الحور والنور

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

١٩٥١

مؤلفـــــات

الدكتور عبد الرحمن بدوى

(أ) مبتكرات

١ ـ الزمان الوجودى
٢ ـ مرآة نفسى (ديوان شعر)
٣ ـ هموم الشباب
٤ ـ الحور والنور

(ب) دراسات أوربية

١ ـ الموت والعبقرية
٢ ـ دراسات وجودية

خلاصة الفكر الأوربى

١ ـ نيتشه
٢ ـ اشبنجلر
٣ ـ شوبنهور
٤ ـ أفلاطون
٥ ـ أرسطو
٦ ـ ربيع الفكر اليونانى
٧ ـ خريف الفكر اليونانى
٨ ـ برجسون

(ج) دراسات اسلامية

١ ـ التراث اليونانى فى الحضارة الاسلامية
٢ ـ الالحاد فى الاسلام
٣ ـ شخصيات قلقة فى الاسلام
٤ ـ الانسانية والوجودية فى الفكر العربى
٥ ـ شهيدة العشق الالهى
٦ ـ أرسطو عند العرب
٧ ـ شطحات الصوفية
٨ ـ منطق أرسطو فى ٥ أجزاء
٩ ـ المثل العقلية الأفلاطونية
١٠ ـ الانسان الكامل فى الاسلام
١١ ـ روح الحضارة العربية
١٢ ـ الاشارات الالهية (للتوحيدى)
١٣ ـ التشويق الى الحياة الدائمة (للتوحيدى)
١٤ ـ الآراء الطبيعية (لفلوطرخس)
١٥ ـ أفلوطين عند العرب

(د) ترجمة الروائع المائة

١ ـ ايشندورف : حياة حائر بائر
٢ ـ فوكيه : أندين
٣ ـ جيته : الديوان الشرقى
٤ ـ بيرن : أسفار اتشيلد هارولد
٥ ـ هيلدرلن : هيپريون
٦ ـ رلكه : صحائف مالتى برجه

الحور والنور

تأليف

عبد الرحمن بدوي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

١٩٥١

إلى سلوى

ابتهـال واعتراف

بين شفتيك دفء عطره أريجُ الشهوة الفاغم ، فمن لى باسترواحه !

ملمس أناملك المسترسلة ، وهى تنساب على جبينى الوسـنان من فرط الهموم ، تَرد إلىَّ قشعريرة الحياة ، فدعينى أحلم بكفيك !

أيامى مطيرة ، والثلج الناصع يجلل الصنوبر ويزحف من القمم إلى مشارف الوادى ، وليس ينمو غير الوحشة من حولى ، فأين منى الآن تلك الحرارة المشبوبة بين نهديك ؟ !

وحنايا عِطفيك ورِدْفيك ، بين اختلاج اللمسـة الحائرة وانكسار عينك اللعوب ، نفسى الفداء لمن يهبنى رنواً إليها واستمتاعاً بها !

أنا غريب ، وفى غربتى تتـلاقى مواكب الأيام فتسمِّر كيانى فى لحظة خاطفة من لحظات الأبدية المتحركة !

أنا وحيد ، وفى وحدتى طعم العـدم الأصيل تنتشر ظلاله الزرقاء فى طوايا نفسى الـكابية !

أنا حزين ، وفى حـزنى مصبٌّ لـكل ما كان أو سيكون من أحزان الناس ، لأن سره ينبوع الأسرار !

نعم ! همومى تتحلّب من ثدى الوجــود لتغذونى بمرارتها أنا الوليد الرجيم .

* * *

عيناك الواسعتان تمدان الظل إلى حفافى الخلود ، فاجعليني أعبر بهما إليه ! فيهما زرقة ، وفى زرقتهما ابتسامة ، وفى ابتسامتهما نعمى المترفين.

أحلامى من تهاويل الجحيم ، وأنفاسى زفرات تنشقّ عن هاوية المجهول ، لأن آمالى غُرِسَتْ فى الصخرة الموحشة على الذُّرَى الشماء .

حملتُ همومى على كاهلى ذات صباح ، وقد تفتح برعم الشمس على فترة من الثلوج والأمطار ، وسلكت الطريق الرائعة ذات الثنايا على الشاطىء الأليف ، ورحت أتلفَّتُ عن يمين وشمال أفتش عنك أيها الحبيب :

أتلمس ، فى الوردة المجللة بأنداء الفجر ، خديك الناعمين يوم الوداع المشئوم ترفُّ عليهما الدموع من نوافذ القطار ، الوردة الوحيدة التى أبقى عليها الصقيع فى بستان الدنيا الحافل بالأوهام ؛

وفى الحسُّون المستضحى على أفنان الصفصاف الجافِّ،بدنى المنهوكَ وقد ارتمى متناعساً على صدرك العامر متدثراً بشعورك الزاهية المسترسلة ، أيتها الشقراء !

وفى الخضرة الكابية المتناثرة فى حقول الثلوج ، آمالى المتبددةَ

وقد تداعت فى مبعث الذكرى ، كلما اهتزت تلك الأشجار تحت ابتسامة الشمس فى هذا النهار الضاحي ؛

وفى الصخرتين الذهبيتين النافرتين الناتئتين فى صدر اليمّ ، نهديك المنطلقين بنـداء الأنوثة الخالدة فى صمت صارخ ؛ ولقد قيل عن هاتين الصخرتين إنهما تغريان العشق الخائب بالانفلات من طريق الحياة ، وكم أتمنى أنا لو انتحرت بين نهديك !

* * *

آتونى بمجامر البَخور ، فنفسى توّاقة إلى عبير الموت !

رُدُّوا علىَّ فضلَ أنفاسى ، فقد احترقت بلهيب القلق !

خذوني إلى الينبوع القانى ، لأنوح مع الباكيات الشاكيات !

مُرُّوا بجنازة أيامى ، تتواكب فيها وفودُ الأحداث الرهيبة ، أمام منازل غرامى ، ثم ادفِنونى فى تراب اليأس عنـد السنديانة العتيقة التى عَشَّش فيها البومُ والغِرْبان !

* * *

فى يد الشقاء مِسْبحة أيامى وقد تبددت حبَّاتها بين قلوب العذارى!

تلقَّفْتُ الزهرة من فم الصبا ، وما كدت أمسك بهـا حتى دُسْتها تحت أقدامى .

طعم الحلال تعافه نفسى ، وعلى شاطىء الحرام ألقيتُ مِرْساتى .

نعتونى بالحماقة ، وفى الحماقة وجدتُ عقلى .

وصفونى بالضلال ، وفى الضلال تلمَّستُ هُداى .

شمسى تطلع فى الليل ، ومن فرط انفعالى تنقدح شرارة نعيمى .

تناوَلَ الناس من قُرْبانى ، وأنا عند نفسى دَنَس الأدناس ، فقدس الأقداس عند الناس هو عندى دنس الأدناس .

أبصرتُ الصبحَ لما انفلق ، فاستحال إلى غَسَق .

من فمي زفراتٌ تنطلق ، وما تلامس شيئاً إلا و يحترق .

* * *

أحمل على كاهلى خطيئةً لا تمحوها كفّارة .

وفى لحمى شوكة أعيت كلَّ مِبْضَع .

و إلى مذبحك أحمل كلتيهما ، فهل لى رجاء فى الشفاء ؟

كأيِّن من مرة جثوت عند قدميك ، واستشرفت إلى عينيك ألتمس فى سعتهما لنفسى الرحمةَ والغفران ، فليت شعرى ماذا أفاد خلاصى !

أنت البراءة ، والبراءة ممدودة حبل الرجاء ، لذا طالما منّيتني بالنجاة ، ولوّحتِ لى بأملها الخُلَّب ؛ لكن هل أُكْذِبُ النفسَ ؟!

فبربِّك ، وأنت القوية الإيمان ، إلا تركتِنى أعَضُّ على خطيئتى حتى يأتى كلانا على أخيه ، فلعل هــذه هى سبيلى الوحيـدة لذلك الخلاص المنشود .

نعم ، لأن الخطيئة الصادقة شوكة دائمـة التلداغ ، وليست وسادة تتربع عليها الطمأنينة المؤمنة كما يخيل إلى إخوانك فى الإيمان .

* * *

الهاوية تدعو الهاوية ، والصراخ المنبعث من طوايا الخلايا الدامية يشق طريقه الشائك إلى « جُلْجلة » الحياة ، فإلى من أتوجه بالدعاء والنداء ؟ !

تساقَطَ حبُّ وجودى على الصخرة الرعناء ، وأخشى ألا يلتقطنى فالِقُ الحب والنوى ليلقى بى فى تربة أستطيع أن أموت فيها لأحيا .

سماء أحلامى لا تُرَنِّق فيها إلا الحمائم السود ، فأين روح القدس التى أتلمس عندها النجاة !

كم تفجرت الدماء من بين أحشائى ، وعبثـاً انتظرت أن تنمو بريِّها الزهرةُ المقدسة التى أرجّيها !

* * *

أعيش فى وطنى ، ووطنى منفـاى ! تمرح الدنيا حولى ، وكأنى أنا وحدي الذى أنوح !

وقطرات العمر تنهمر على طبل كيانى ، فلا يردد غير نغمات خرساء.

* * *

أنا موحِّد ، وفى توحيدى حيوية الوثنية .

بل أنا وثني ، وفى وثنيتى صفاء التوحيد :

توحيدى حرية الخالق بإزاء المخلوق ، أما غيرى فتوحيده عبودية المخلوق للخالق ، والخالق والمخلوق سواء !

وثنيتى تقدس اللمس ، وتفزع من طغيان البصر .

وثنيتى تمجد الجسد ، وتهزأ بدعوى الروح .

أجل ! فى كيانى عصارة حياة لن أبتاع بها كوثر الأوهام ؟

فى فرنسا

— ١ —

إلى سلوى

ليت شعرى أيتسع لديك وجه العذر عن سفرتى المفاجئة إلى باريس بعد أن كنا قد اتعدنا لبنان، بلدك الحبيب، مكان لقيانا فى هذا الصيف كيما ننمى نبتة الحب التى غرسناها معاً تحت ظلال الأرز الخالد، لمّا أن تلاقينا لأول مرة إبان زيارتى القصيرة الخصبة معاً فى شتاء هذا العام ؟ فى سورة غرامك والتهاب إحساسك ما يزيد مخاوفى من هذا الجانب ، بيد أن لى فى صفاء عينيك الزرقاوين ما يخفف من اضطراب فؤادك ، وفى رقة عواطفك الساجية ملجأ لغفرانك . وما بدهتك بهذا النبأ — وقد كنت أحرى الناس بعرفانه من قبل — إلا لخوفى من العجز عن مقاومة إرادتك ، وأنت التى أسلمت لها قياد نفسى المتمردة للمرة الثانية فى حياتى العاطفية . ولست أكتمك أن عزمى هذا قد انسقت إليه انسياقاً لا أكاد أتبين العلة فيه ، وكأن هاتفاً أو طائفاً لا شعورياً هو الذى دفعنى إليه رغماً عن كل إرادتى . فلعل القدر أن يكون قد شاء تدبير أمرٍ بلَيل، أمر أرجو أن نستنضَّ منه وجه الخير معاً .

وإنك لتعلمين أن هذه أول سفرة إلى فرنسا وباريس ، بعد أن كانت لى من قبل فى أوروبا جولات ، ما كان أطيبها من جولات! بيد أنى وإن لم أزرها بالبدن من قبل ، فكأين من مرة طفت بأرجائها وتمتعت بجمالها عن طريق الروح ! أجل ، إن للثقافة الألمانية أخطر

الأثر فى تكوينى الروحى ، غير أن أثر الثقافة الفرنسية قد لا يقل عنه كثيراً . كيف لا ، وما أيقظنى من غفوتى التوكيدية الروحية غير رينان ، هذا الموقظ الأكبر للنفس الوسنى ! لقد كنت أخطر فى الأسمال البالية التى دثرتنى بها التقاليد وما علمنا إياه الأقربون من دون حجى ، كما يقول أبو العلاء . وكانت العقائد الشاحبة التى لقنتها هى التى تستأثر بكل نفسى فى غضارة الشباب الأول — وأنا على ما تعلمين من حماسة متدفقة حارة لكل ما أومن به — حتى تجلى لى هذا الساحر الأكبر ، رينان ... فاطرحت كل شىء ظهرياً والتفت عن خلف ، فاذا به يهتف بى : من هنا الطريق ! آه ! كم كان لصيحته الهائلة هذه من أثر حاسم فى توجيه كل كيانى الروحى ! لقد أبدلنى مخلوقاً آخر لا يهتدى بغير نور العقل ، وإذا به ينهال على الأصنام العتيقة فيحطمها تحطيما ويطهر كعبة روحه من كل أثر عتيق . لهذا فان الدين الفادح الذى أدين به لهذا الرجل العظيم هو من بين الدوافع التى حملتنى بهذه القوة على زيارة فرنسا ، كيما أحج إلى قبره وآثاره ومواطىء أقدامه . وآية ذلك أننى لم أكد أرحض النوم عن جفونى مع أول صباح فى باريس حتى هرعت لزيارة مقاماته الروحية وآثاره .

وهأنذا أسلك سبيلى ضحى يوم الأحد الثالث والعشرين من حزيران (يونيه) إلى كنيسة سان سلبيس Saint-Sulpice ومعهده الذى استيقظت فيه روحه المتوثبة المتمردة . الشمس تبسم من خلال السحائب الداكنة ، ثم تسطع حيناً فتشيع الحرارة الجذلى فى باريس ، بعد أن قضت شهرين لا تزورها إلا غراراً وغب أمطار عنيفة ، مع أن الوقت وقت الربيع .

والطرقات تكاد تكون خاوية إلا من النسوة المسنات أو الغوانى اللائى أمسكن بأكف بناتهن المتدثرات بالأثواب الطويلة الناصعة البياض كأنها أزياء الزفاف ، مقتادات إياهن إلى الكنائس لممارسة مرسم «التناول» . وما كان أجمل منظر هذه الزنابق المتفتحة على ضوء الشمس ذات الجبين الوضاح ! لقد أثار منظرهن فى نفسى نشاطاً طروباً ، بعد أن كان الفتور قد استولى علىّ فى اليوم السالف وقد قضيته مقتعداً كرسيى الوثير فى هذه الطائرة الضخمة التى تنتسب إلى الشركة الفرنسية Air France. وقد غادرنا مطار ألماظة فى السادسة والنصف صباحاً وبلغنا باريس فى الساعة الثامنة مساء دون أن نتوقف فى الطريق ، اللهم إلا فى تونس التى بلغناها فى الساعة الثانية عشرة والنصف وغادرناها فى الساعة الثانية ، بعد أن أخذنا قسطنا من الراحة والغداء فى هذا البلد المسكين الذى وجدت أهله فى المطار لايرطنون إلا بالفرنسية ويأبون أن يجيبوا عن سؤالى إياهم باللغة العربية ، مع أنهم من غمار الشعب. فيالله ! ما أحق هؤلاء بالرثاء!

وميدان سان سلبيس ميدان مستطيل فسيح تستوى على وسطه نافورة ضخمة أقامها فسكونتى Visconti سنة ١٨٤٤ ، على هيئة بناء دائرى ذى أربعة محاريب فى كل منها تمثال لكبار الأساقفة الفرنسيين فى العصر الذهبى : بوسويه ، هذا الخطيب المقوال ذو الصوت الرهيب الرنان ، وفينلون ، المتأله الرقيق ذو النزعة الصوفية الحادة ، ثم ماسيون وفليشييه وقد جللتهما رهبة الكهنوت. وها هى ذى الكنيسة الرائعة تتبدى بكل جلالها وتكتل معمارها ، وقد تعاورها منذ إنشائها طرازان : يسوعى ساهم فى إنشائها ، ثم قديم يونانى وضع وفقاً لتصميم سرفندونى Servandoni سنة ١٧٣٢ .

وأول ما يسترعى الناظر وهو فى مواجهتها هـذان الطابقان اللذان يكوّنان الواجهة، وقد تألف السفلى منهما من رُباعات من الأعمدة الدورية الضخمة، بينما تألف العلوى من رباعات من الأعمدة الكورنثية الصغيرة، وقد أحاط بها من الجانبين الغربى والشرقى برجان شاهقان بنيا على الطراز التقليدى . حتى إذا ما استدار الناظر حول الكنيسة من شارع بلاتيه، تبدت له واجهة الجذع متكتلة لا تخلو من الثقل بما لها من طراز يسوعى قليل النظر فى غير باريس . ومن الجهة الأخرى المقابلة للواجهة، أعنى عند القبة والمحراب ، تتجلى مليئة حُبْلى بالفراغ الفسيح .

وكان اليوم يوم احتفال بعيد ، فكانت الكنيسة تموج بالأفواج الزاخرة من النساء والفتيات بخاصّة . ولما أن دخلت كانوا بسبيل إقامة قداس ، فكانت الأصوات الناعمة الباغمة تنطلق من الكورس فتدوى بها أرجاء الكنيسة، ثم تنقطع حيناً لتخلى السبيل أمام القسّيس وهو يقوم بمراسمه ويهدر بصوته الرهيب فى هذا الصمت المفاجىء . إلى أن انتهت مراسم القداس، فتألف موكب جميل من الفتيات الصغيرات يتلوهن صبية فى ملابس الكشافة . ثم جاء على أثرهم كواعب أتراب ينضح الجمال من وجوههن الناصعة البياض أو المضرجة بالحمرة الفاتنة وقد تدثرن بأثواب من التيل الرقيق الصافى ، ومن ورائهن كتائب شبابٍ فى مقتبل العمر لا يخلون من العبث والمشاكسة فيما بين بعضهم وبعض؛ وأخيراً جاءت كوكبة من طلاب الكهنوت بقمصانهم البيض الطويلة ذات الأكمام المحللة أطرافها بالسواد .

وأنت يا سلوى ! أتذكرين كيف كنا نقرأ « ذكريات الطفولة

والشباب » لرينان فنمتلىء حماسة وحرارة و إعجاباً بما فيها من روح متوثبة توقن بأن المستقبل سائر قدماً إلى الأبد فى طريق التنوير ؟ وكنت أنا بين الحين والحين فى الليالى القمرية الفاتنة على الشاطىء المهجور ذى الخمائل الكثة أعيد عليك عن ظهر قلب بعضاً من صفحاته ، وبخاصة تلك المقدمة الرائعة التى لا أكاد أجد مقدمة تعدلها ؟ ثم « الصلاة على الأكروبول » ، هذه الصفحات الخالدة فى هذا الكتاب الفريد ، أتذكرين كيف كنت أتمثلك أنت بعينيك الزرقاوين هذه الإلهة - أتنيه Athénée - التى ناجاها رينان فى تلك « الصلاة » ؟

لكن ، إليك عنى أيتها الذكريات العذبة ، وأنت أيتها الأسئلة المكلومة ! فما أتيت باريس إلا لأخلو إلى نفسى طليقة من كل طائف أليم وذكرى أسيفة . وما أريد إلا أن أشاهد بعيونى ، وأمتع البصر كثيراً والفكر قليلا . أريد الإحساس الحاد الخالص من كل تأويل فكرى ، الإحساس المجرد الخالى من كل إدراك أو تعقل . فقد سئمت التعقل والتجريد ، فلأدعهما إلى حين . وعندى أن هذه هى الميزة الكبرى للرحلات والأسفار النائية ، بل والدانية .

ولأعد إذن إلى الموكب وقد تقدمه حارس شيخ يحمل عصا معدنية ذات سن مدببة ، فيها زخارف وألوان متعددة ، وهو يحدو الموكب على ترنيمة ذات إيقاع خاص يحـــدده بضرب الأرض بتلك العصـــا ضربات موزونة لا تخلو من الترويع ، وبخاصة إذا انضم إلى سماعها رؤية وجهه المتجعد المتخدد ومنظر ملابسه المزركشة . وفى مؤخر الموكب كله حامل ضخم مكون من مربع ذى أربعة قوائم يجره أو يدفعه

كبار الحاضرين، ولا يمر أمام الواقفين حتى يهرع هؤلاء إلى الانحناء إجلالا له . فكان الموكب كله لا يخلو من الرهبة ، بل قد كان رهيباً حقاً إلى درجة مرهقة ، لولا فراهات الأطفال وبسمات الغادات الحسان.

ولقد طاف الموكب بالكنيسة مرتين ، وتابعته فى كلا الطوافين كيما أتجلى وأتملى بهذه الصور الجدارية (الفرسك fresque) التى طليت بها الجدران الداخلية للكنيسة ، وهى من عمل طائفة من الفنانين فى القرن الماضى أشرف عليهم فى هذا العمل دلاكروا Delacroix ، الرسام الرومنتيكى المشهور : وفيها رسوم للقديس ميخائيل وهو يجندل التنين (فى قاع القبة) ، وعلى الجدار الأيمن رسم هليودورس مطروداً من المعبد ، وقد كان وزيراً لملك سوريا وأراد أن يستولى على كنوز معبد أورشليم ، فأتاه ثلاثة ملائكة وكل إليهم القصاص فجندلوه ؛ وعلى الجدار الأيسر يعقوب يناضل الملاك . وكلها ذات طابع رومنتيكى عنيف ، تمتاز بالانفعال وحدة التعبير وزهو الألوان . ثم توقفت قليلا عند محراب العذراء وقد تبدى ذا تأثير غير قليل .

ولندع الكنيسة بمن فيها من أفواج ، ولنتابع الحج إلى مقامات رينان. فهنا فى الميدان يوجد المعهد العتيق ، معهد سان سلبيس الذى تلقى فيه رينان دراسته اللاهوتية . ولكن أين هو الآن ؟ عبثاً أفتش عنه تحت الرقم الذى دلونى عليه مكاناً له ، وهو رقم ٩ ، فليس ههنا غير مصلحة التسجيل ؛ وبعد لأى عرفت أن المعهد العتيق قد أوصدت أبوابه للاهوت وأخلى فى سنة ١٩٠٦ بعد صدور قانون الفصل ، أعنى فصل الدين عن الدولة فى فرنسا ، فصار يؤوى موظفى التسجيل ، بدلا من الطلاب

السلبسيين ! ولكم أثر هذا فى نفسى! بيد أن هذا ليس حظ ذلك المعهد وحده ، فأكثر ما فى باريس قد تعاورته أيد مختلفة وتناولته معاول التبديل المزرى المدنّس ، حتى المقدس منه ، فلم ترع فيه إلاً ولا ذمة . آه! إنها بلد لا يقيم للزمان وزناً ، ولا يبقى على حرمة العتيق . وهذا هو السر فى فقرها فى الآثار الفنية والذكريات الخالدة ، لو قورنت بمدينة من مدن إيطاليا مثلا . والناس يقولون عن باريس إنها بلد خليع متهتك ، ولقد وجدت مصداق هذا القول فى تهتكها فى الآثار الفنية والذكريات الخالدة ، فقد أطاحت بقداسة الزمان ، وراحت تجرّر بالحديد البراق على العتيق العميق ذيول النسيان .

وما أطيل ، فالرسائل إليك ستنهال عليك تترى . وفى انتظار أنبائك أنت وبلدك العزيز ، أرسل إليك تحية تعبق بأريج الورد الزاهى فى غابة بولونيا Boulogne .

— ٢ —

من سلوى

ويلى عليك وويلى منك أيها الآبق العزيز !

أهذا ما وعدت ، أم خدعتنى عنك نفسى ؟ ! ثم تتحدث بعد هذا عن وجد مشبوب ، لست أدرى لماذا ظل مطوياً حتى اليوم فلم ينفجر إلا عند الفرار ؟ آه لو عرفت كيف كنت أحرِّق الأُرَّم هذه الأيام الطوال منذ فراقنا الموعود باللقاء الجديد ، ولم أكن أستروح إبانها العزاء إلا فى ترجمة معبودك رينان لسفر « نشيد الأناشيد » ، فكنت أتمثل نفسى « شولميت » وأتمثلك ذلك الراعى الذى فرق بينها وبينه أَسْرها عند سليمان ، فأجد قليلا من السلوى فى عباراتها الملتهبة بأوار الحنين ، ونبراتها الصادرة عن أعماق الوجد الدفين . ولو رأيتنى إبان هذا كله وأنا أتنسم من القادمين من وطنك الكريم نسمات أنبائك ، وأقول للغاديات إليك مثل ما كانت تقوله « شولميت » : « يا بنات القاهرة ! إن رأيتن حبيبى فأنبئنه أنى أموت من فرط الغرام » . ثم أتذكرك إذ كنا نتغنى بذلك « النشيد » فى ترجمة معبودنا المشترك الرائعة ، وكيف كنا نمتلىء حماسة وحرارة لتجديد الزيارة إلى وطننا العزيز حينما كنا نقرأ فيه التشبيهات الفاتنة بلبنان وأرز لبنان وينابيع لبنان ؟ وهل تستطيع أن تتصور — وأنت المعجب بهذا السفر ، « نشيد الأناشيد » — أنه يمكن أن يكتب

فى غير لبنان من بلاد الوحى والنبوة ؟ كلا ! فكل ما فيه يعبق بذكر جبلنا الفاتن ، وينبىء عن نضرة وجمال فى الطبيعة لا يتوافران إلا فى هذا الاقليم . وهذه حقيقة كان أحرى برينان أن يبينها ، وهو الذى عرف بلادنا وأعجب بما فيها من فتنة وجمال . فليت شعرى كيف ندّت عن وجدانه المرهف النفاذ !

أرانى فى حيرة رهيبة من أمر هذا الفرار. فانى أخاف عليك وأخاف منك ، كما يلذ لكم أن تقولوا – متلاعبين – معشر الوجوديين .

أخاف عليك من فتيات السين Seine بوجوههن الجذابة الغدارة ، وقلوبهن القُلَّب المنهارة ، وشهواتهن الرخيصة الحارة . فى الشرق أفئدة تعرف للحب مقداره ، لكنها لاتعرفه إلا متدثراً بأسراره ، شأنه شأن كل شىء لديها : فالشرق لايدرك الأشياء إلامحوطة بهالة من الأسرار ، ولا يعترف بوجود شىء لم يشارك فى الاستسرار ؛ إنه يخشى وضح النهار ، لذا تراه دائماً لائذاً بالليل أو بالاستار . وتلك – فيما يزعمون – « حكمة » الشرق ، وما هى فى جلية الأمر إلا « نقمة » الشرق . وأنا أعلم أن هذه النزعة إلى « الاستسرار » هى نسيج وجدانك الطبيعى ، وأعلم أيضاً أن فى أعماق نفسك ترقد هذه النزعة موجهة فى الخفاء كل عواطفك وأفكارك . بيد أنى أعلم كذلك أنك تحاول جاهداً أن تستقيل من طبيعتك هذه ، بل أن تقضى عليها القضاء الأخير . ومن هنا تحاول دائماً أن تنزع إلى « التنوير » وأن تصطنع لنفسك وجدان النهار . لكن ، هيهات ، هيهات ! آه ! كم أرثى لحالك وأنا أراك تقسر كيانك على هذا التوجيه ، فتتلعثم وتتبدد وتأتى من الحركات والخطرات ما يثير

الشماتة عند الأولين والعطف الساخر عند الآخرين . لهذا كله أتوجس خشية من فتنة سافرة، كافرة، تأخذ بلبك وفؤادك ، تنسى فيها السحر المتدفق من وجوه غانيات بلادك .

وأخاف عليك من روعة الطبيعة فى إقليم تبدت فيه بكل صولتها وفتنتها ، فأثارت عناصرها الأولى كما تبهر الناظر بكل مالديها من وثبات القوة ونزوات الإرادة. أجل ، لقد كنت دائماً تحدثنى عن إعجابك بلبنان من بين بلاد الشرق لأنه أقرب بلاده إلى تلك الطبيعة العرمة المهتاجة ، وأنت الثائر على السكون ، النازع إلى الحركة والانفعال ، الهائم بالتجديد والزوال — أو لست أنت الذى كنت تردد على فى كل لحظة ذكر بيت ألفرد دى فنى A. de Vigny المعروف : « أحبب ما لن تراه مرتين؟» ولكن أجدك كان هذا ، أم كنت تصطنع لنفسك طبيعة أخرى ، شأنك دائماً فى كل شىء ويا للأسف؟ أنا أقرب إلى تصديق الفرض الأخير ، لأن طبيعتك الناعمة الساجية لا يهوى مثلها ذلك الاضطراب وذلك الجمال الخشن الشائك . وآية ذلك لديك أنك كنت لا تكاد ترى الشمس تسطع بقوة حتى تستسلم لهذه الطراوة الرخية ، وتنساق فى تيار من الأحلام الهوامة ، غير القوّامة . وكأين من مرة فاجأتك فى هذه اللحظات الطبيعية ، فاذا ما نبهتك إليها رحت تعتذر عنها وعما ينتابك أحياناً من ضعف واسترخاء .

ذلك ما أخاف عليك منه ، قد يكون فيه الكثير من المبالغة فى التثريب ، بيد أنى ما قصدت إلا التنبيه ، لا لنفسك وحدها ، بل ولنفسى أنا أيضاً ، ماذا أقول ! بل ولكل فتى عربى من أبناء هذا الجيل القلق اللهيف القلب الزاخر بالمتناقضات . لهذا فما أقوله ها هنا

ليس حكماً تقويمياً فى واقع الأمر ، إنما هو محاولة للتفاهم النفسى والمحاسبة ، بالمعنى الصوفى لهذا اللفظ الخصب الفريد .

أما ما أخافه منك ، فثورة فى النفس تطيح بالوجدان ، وتتعلق بالخطر متجافية عن شاطىء الأمان ، وتبلبل فى الخاطر يزعزع كل كيان . نعم ، أنت ممن يجنحون دائماً إلى التمرد والعصيان ، ويظنون أن أعدى أعدائهم الاطمئنان ، ولا يستسيغون الوجود إلا متناقض الأحوال والألوان . ومن شأن هذه الرحلة إلى بلاد بينها وبين بلادنا فروق نائية أن تزيد فى نماء هذه الميول ، فما بالك وأنت ذاهب إلى بلاد أصبح البدع السائد فى فلسفتها اليوم هو فلسفة « التمرد » الممزوج « باللا مفهوم » ، كما تتمثل خصوصاً عند ألبير كامى Albert Camus ؟

ثم أخاف منك نفوراً متأبياً قد ينأى بك عن جانب الأفعال والأعمال ، والانغمار فى الواقع الجارى السيال ، وما ألفه الناس فى سلوكهم الرتيب من أحوال . وحالة « النفور المتأبى » هذه من الظواهر الكثيرة الوقوع نتيجة للرحلات ، خصوصاً لدى النفوس المرهفة الشديدة الانفعال ، وتكاد تكون ضرورية الوقوع عند أمثالك من المتوحدين المتبلبلين المتناقضين الذين يلذ لهم دائماً أن يحيلوا داخل نفوسهم إلى جحيم يجدون فيه ماتلذ أعينهم وتشتهيه نفوسهم من نار انفعال يصلونها حامية ، وحميم غساق يصب فوق وجدانهم المشبوب ، وزقوم من التجارب الحية العنيفة التى تغلى كالمهل فى حساسيتهم اللطيفة الوهاجة .

أوه ! لكن لماذا أخشى عليك هذا كله ، وليس يعنيك من أمرى شىء فيما أخال ؟ لقد زورت لى نفسى ، حينما عرفتك ببلدنا ، أنك كنت

فى أقوالك الحارة مخلصاً بريئاً تصدر فيها عن شعور زاخر بالسخاء ، وكدت أقول بالحب الشامل . لكنك ما عتمت أن تبديت على حقيقة حالك ، حتى رحت أسائل نفسى : هل كان ذلك حالا من أحوال تحولاته وتطوراته المتعددة المتقلبة ؟ لقد طالما حدثنى عن أحواله المتناقضة وكيف تعروه النزوات تلو النزوات والغمرات بعد الغمرات ، وهو فى كل منها آية فى الاخلاص ووفرة الشعور وفيض الوجدان . أهو إذن ممثل يلبس لكل حالة لبوسها فيخدع الناس عن حقيقة مشاعره ومتوجة بصائره ، ويرى أن كل هذا ليس بضائره ؟

عزيزى ،

إن كان ما أبديته نحوى حالا من تلك الأحوال ، فاعلم إذن أنك قد أتقنت المحاكاة وأجدت التمثيل ، وهنيئاً لك هذه البراعة والمهارة ، لكنك ستعلم كذلك كيف تعرف الانتقام لنفسها من لا تزال برغم هذا على موفور إخلاصها وحبها .

— ٣ —

إلى ســلوى

ماذا !

أأطاف بك مس من الحماقة المألوفة فى بنات جنسك ، أم هو ما عهدته فيك من افتتان فى الدلال ؟

أنت ساذجة القلب ، سخية الشعور ، فياضة العواطف ، لكنك سريعة الأحكام ، لا أكاد أبعد عن تملق عواطفك لحظة حتى تظنى بى الظنون ، فتفسرى أقل كلمة أو إشارة تفسيرات ما أنزل الحق بهـا من سلطان . لقد كنت أتوقع منك تشجيعاً حاراً على هذا الترحل فى البلاد الغريبة النائية ، أفليس النكول عنه هو ما كنا نأخذه معاً على أبناء بلادنا فى هذه الأيام ؟ فهل نسيت هذا كله ؟ لكنى لن أؤاخذك بما نسيت ، فما أنساك إياه إلا شيطان الغرام . نعم ، قد تقولين إن ما أحزنك وأثارك ليس هو مجرد التنقل ، وإنما التنقل وحدى — دونك أنت أيتها الطفلة الرقيقة — لكن ، أكان فى وسعى أن أفعل غير هذا ؟ أنت تعرفين حال بلادنا الأسيفة ، وماذا عسى أن تقوله ألسن السوء — أعنى كل الألسن فى هذه البلاد — عن مثل هذه الرحلة المشتركة وليس بيننا من الصلة الاجتماعية ما يسمح عندهم بمثلها . فهل كنت تريدين بنا إذن أن نتحدى رأى « الناس » ؟ أوه ! ياهول الكارثة إذن

فى أعينهم المتوقحة ووجوههم الكالحة المنافقة ! أنا أعلم جيداً أنك ما إلى هذا قصدت ، وآية ذلك أنك لم تفصحى عنه وإن تلمسه المرء بعد عناء فى أعماق نبراتك المليئة بشائعة الألم الدفين . وإذا كنت لم تقصدى إلى شىء من هذا ، فالى أى شىء قصدت إذن ؟ إلى العتاب العذب والدلال المتجافى والعبث الرقيق — ما فى ذلك من ريب . فاغفرى لى إذن سفرتى مع نفسى وحدها ، فهذا قضاء آثم قضت به علينا عصابة المتزمتين المنافقين فى بلادنا المزيفة . إنهم لايفهمون كيف أن سفرة معاً كهذه ستزداد فوائدها أضعافاً مضاعفة ، فيجنى منها كلا الطرفين الخير العميم لنفسه ولبلاده . ماذا أقول ! بل هم يفهمونه بعقولهم وقلوبهم وتأباه أفواههم وتصف ألسنتهم الكذب الصراح . ولست أدرى إلى متى نجمل نحن أمام هذه الأوهام التى فرضها علينا « الناس » ولا نبددها وندعهم فى حياتهم الميتة هذه يتخبطون . دعينى أقل لك إن علينا يقع الاثم فى هذا كله — نحن أبناء هذا الجيل — ، فاننا من الجبانة بحيث لم نتحدهم ، وندعهم يقولون ما يشاءون . أى والله نحن جبناء ، والذين يزعمون فى أنفسهم الشجاعة من بيننا يكتفون بالتعويذ مرددين هذه السورة الكريمة : « قل : أعوذ برب الناس — ملك الناس — إله الناس — من شر الوسواس الخناس — الذى يوسوس فى صدور الناس — من الجنة والناس » — متخذين هذا الموقف العاجز الصريع . ولو تدبروا الآية حق التدبر لوجدوا فيها خير محرض وأقوى دافع على العصيان والتمرد على « الناس » و « مايوسوس فى صدور الناس » و « ما يقوله الناس » . ألا فلنتخذ نحن من هذه الآيات العميقة أكبر مبرر لنا على هذا السلوك ، ونحن بهذا التفسير

الديناميكى الحركى لها إنما نعطيها – نحن وحدنا – كل معناها ومدلولها ، وننقذها من ذلك التفسير العاجز المستسلم الرخيص .

أوه ! لماذا استطردت كل هذا الاستطراد ؟ ألإقناعك وإرضائك ، وما إرضاؤك بالشىء العسير الذى يحتاج إلى هذا الحجاج المعقد ؟ كلا ، بل لنذكر الغافلين ولنذكر أنفسنا أيضاً ، وإن أقل ابتسامة لتكفى لتملق رضاك .

لكن ، أين أنا الآن من باريس والشانزلزيه بكستنائه السامقة وغاداته المتبرجة ونغماته الصاخبة ، وما فى نظرات فتياته من معان ستعلمين نبأها بعد حين !

— ٤ —

إلى سـلوى

على أطلال باريس العتيقة

عزيزتى سلوى !

سأدع الآن باريس العصرية بألوانها الصاخبة وروحها الهجين المدمرة ، كيما أفرغ قليلا لباريس العتيقة ، تلك التى طالما حلمنا بها قبل أن نراها ، وظننا أنّا ملاقوها ، وكنا واهمين : فقد لفظت أنفاسها الأخيرة أو كادت . كادت ، لأن ثمت بقعة مدفونة على الضفة اليسرى لا تزال تحمل من ثمار المدينة العتيقة قدراً ظل حتى اليوم بعيداً عن متناول ذلك الجانى المخرب الذى يسمونه « مشروع التحسين الصحى لمدينة باريس » ، وهو فى حقيقة الأمر « مشروع التخريب الكامل لكل عريق فى باريس » . ولعل تلك اليد « الرحيمة » لم تمتد بعد إلى هذا الحى لأنه « حى العرب » كما يسميه أصدقاؤنا العرب فى باريس ، إذ يضم فى الواقع شمل الجالية العربية وعرب أفريقية الشمالية بخاصة ، ويكاد يسيطر عليه أبناؤها : من أفخر مطاعمه ومقاهيه حتى أدناها شأناً : من « مقهى القرن العشرين» الفاخر إلى أبعد حدود الترف والزينة حتى « مقهى باريس القديمة » وما إليه من مقاه متواضعة تتردد فيها النبرات العربية ، ممزوجة فى أغلب الأحيان بالنبرات الفرنسية .

خلفت « المدينة » La Cité من ورائى تترنح أبنيتها الفاحمة فى لهيب الأصيل فى ذلك اليوم الرهيب القيظ فى أواخر حزيران ، وكنيسة نوتردام تتواثب أبراجها وسهمانها بين فيوض النور فى سورة من الوجد المشبوب بجذوة العشق الإلهى ، يحرسها الفارس الكبير شارلمان من فوق جواده الأصيل فى غيرة تجمع بين التقوى والجبروت. والفتيات الزاهيات الألوان يتدافعن مستطارات فوق « جسر سان ميشيل » ومن مخارج محطات المترو ، فى حركة سريعة لا تجدين لها تعليلا . فأين هن — ولك الغفران يا سلوى — من فتياتنا اللواتى ترى فى وجوههن استسلام رخىّ الأحلام وفتور الليل الطويل ؟ ! عبثاً حاولت أن أجد لديهن تلك النظرات الحالمة والحركات الساجية التى تشارك فى الصمت النبيل أو تحمل على الدعاء والابتهال . ماذا أقول : بل كنت لا أملك نفسى أحياناً من العدو خلفهن لا لشىء إلا للمشاركة فى هذه الموجة المنتشرة حولهن .

وهأنذا قبالة تمثال القديس ميخائيل فى ميدان سان ميشيل : التمثال قد أسند إلى جدار ، ومن تحته نافورة تتواثب أمواهها حتى تجذب إليها ذلك الجن الذى جندله القديس ميخائيل ؛ ومن حوله أربعة أعمدة تحمل الفضائل الأربع الرئيسية ، وكل هذا يؤذن، وأنت داخل هذا الحى ، بما سيستقبلك فيه من قداسة : دينية وعلمية . ولا أكتمك أن هذا التمثال الذى صنعه ديريه Duret يغلب عليه طابع باروكى baroque ثقيل ، فما عتمت أن نفرت منه وخلفت الميدان عن يسار إلى الحى العتيق ، « حى العرب » ، كما نسميه ، و « حى سان سفران » كما يسميه أصحابه الفرنسيون .

مررت خلال أزقة متعانقة تحمل بيوتاً ران عليها صدأ الزمان ، وتعاورتها سلسلة متصلة من المقاهى والحانات ، وأغلب أصحابها من الأجانب ، وفى الليل تكمن فيها حركة لا تخلو أحياناً كثيرة من العنف. ها هو ذا شارع لا آرب LaHarpe ببيوته الشائقة التى تدعو إلى الاستطلاع الآثم. وبعدقليل فى الجانب الشرقى من شارع البارشمنريه Parcheminerie تلقى حديقة صغيرة فيها تمثال نصفى لأميل فرهيرن Verhaeren ، الشاعر البلجيكى المتغنى بالصناعة الفنية العصرية والمدن ذات الأخطبوط والآلة ، حتى كان صريعها من فرط غرامه بها!

ثم بلغت كنيسة سان سفران الغارقة فى مسوح القداسة الرهيبة . وهى تعود إلى القرن السادس حين نشأت هيكلا صغيراً أنشأه راهب متوحد يدعى سفران ، ظهرت كراماته فى إبراء أبرص فاستطارت شهرته إلى كلوفيس فدعاه إلى بلاطه ، وأجزل له العطاء لأنه شفاه من هبوط قواه ، بيد أن الراهب انصرف عن المال والدنيا وقنع بخلوته هذه على الضفة اليسرى من السين . ثم احترق الهيكل على يد النورمانديين فى القرن التاسع ، ولعل رفاته أن يكون قد نقل إلى مكان آخر قريب ، مالبث أن ظهرت فوقه الكرامات ، فبنى عليه هيكل سمى باسم آخر راهب دفن فيه ، وهو سان جان باتيست سان چوليان . وهكذا فقدت الكنيسة الحالية شفيعها الأول ، ولسنا نعلم بعد على وجه التحقيق من هو شفيعها المقيم بها . وعلى كل حال فالكنيسة الحالية قد أعيد بناؤها فى القرن الحادى عشر ، واستمرت تبنى أقسامها فى القرن الخامس عشر ، وجرى فيها بناء ظاهر فى القرن السابع عشر . وهى تحمل طابع عصرين بارزين :

القرن الثالث عشر والقرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ولهذا ترى فيها الطراز القوطى المتصاعد جنباً إلى جنب مع الطراز الحديث فى القرن السادس عشر . ومع هذا ، فلا تخلو فى مجموعها من انسجام . ولعل من أجمل ما فيها ألواحها الزجاجية ، وبخاصة وردية الواجهة .

وطالما كانت هذه الكنيسة مأوى النبلاء الحالمين ! فكأين من طالب عالم جثا عند أقدام تمثال سان سفران ضارعاً إليه أن يهبه بسطة فى الفهم ! ودانته Dante يقال إنه أوى إليها وصلى فى رحبتها لبياتريش Beatrice ونفسه . وسان سانس ، الموسيقى الفرنسى المشهور ، قد أعجب بأرغنها إلى حد أنه منح نفسه لقب عازف أرغن على شرف هذه الكنيسة . ولكم مجدها ويسما نس Huysmans بعد أن دلف إلى الإيمان العتيق فى حس النادم ، فدعا لروحه الكابية بالخلاص ، ولنفسه الشاردة بالاهتداء إلى السبيل القويمة التى ظل سادراً عنها طويلا فى شبابه ومطلع رجولته . ولم لا يطلب منها الهداية ، وشفيعها المزعوم سان سفران هو شفيع الفرسان الرحالة ! وهذا الفارس الضال فى غابة الشهوة الآثمة يسأل المغفرة واتخاذ السراط المستقيم ! ولعله وجد فى أضوائها الفاحمة وعطورها المخدرة المستسلمة وظلماتها الموحية ما يتجاوب كل التجاوب مع الأحوال النفسية الطارئة عليه فى ذلك الحين .

ولا أريد أن أثقل عليك ، أى سلواى ! يا من تنفرين من التجريد الفكرى وتميلين إلى الحياة الزاهية . فلأدع القديس سفران مترحماً عليه وعلى الأموات الذين يرقدون فى كنيسته ، عملا بالنقش الموجود على بابها ، وفيه : « أيها الطيبون الذين من هنا تمرون ، أدعو الله لأرواح الموتى الراقدين ! » .

ولنخط بضع خطوات إلى أمام قبيل كنيسة سان جوليان الفقير ، فقبيلها فناء عن يمينه بيوت هرمة ، أريد أن أقتادك الليلة معى إلى كهف فيها يدعى «كهف الأوبلييت» Caveau des Oubliettes حيث نستمع إلى الأغانى الفرنسية القديمة

* * *

أظلم الحىّ وسكنت كل نأمة فيه ، وكسته الظلمة مسوحاً كمسوح الرهبان . والحانات المترامية فى الشوارع المحيطة لايكاد ينبعث منها إلا شعاع ضئيل ، كأننا فى حى من تلك الأحياء القديمة فى مدننا الشرقية ، وبخاصة فى القاهرة ودمشق ، لولا أن الرطانة الأجنبية المتصاعدة من بعض المـــارين العابرين تنبّهك إلى مكانك ، فتنتزعك من الأحلام الرطبة التى كنت بسبيل الانحدار إلى أغوارها .

أواه ! ماذا يحملنى على التردد مرة أخرى إلى هذا الكهف ؟ أهى الأغانى وحدها ؟ كلا ! وآية ذلك أننى تحسست قلبى وأنا أهبط الدرج الصغير الملتوى المنحدر بنا إلى غرف الكهف ، فوجدته يخفق تعجلا وفرحاً . ماذا إذن ! نعم ! نعم ! إنها الفتاة التى ألقت بعض هذه الأغانى فى المرة الأولى هى التى تهدج على أطيافها أنفاسى . فتاة فى ثياب ريفية عتيقة ، أرخت ذيولها الحمراء المخططة ، ونهد صدرها الرائع تحت دراعتها ذات الواجهة من القطيفة السوداء ، وقد صففت شعرها الذهبى على شكل هرمى فى تناسب مع وجهها المستطيل ، وفى عيونها الخضر نظرات تجمع بين الاستعلاء والاغراء ، فتقدم ثم تحجم ، وتحجم ولكنها ما تلبث أن تقدم ، وعلى شفة الرائدين كلمة يود كل أن يقولها

لها لولا نظرة باشق لاتعتم أن ترد الكلم الآثم إلى فم صاحبه ، فلا يستطيع النطق به . ولكن لسان حال الحاضرين طوال غنائها وترددها بين صفوفنا سعياً وراء تقديم المشروبات وتقاضى الأثمان يقول : حنانيك ، أيها البلبل الورد معاً ! أو لعل فمها هو البلبل وخدودها الأسيلة المستسلمة للنظرات الجامحة هى الورود ، والعشق بينهما متبادل مشبوب ؛ فيا شعراء إيران الذين طالما تغنيتم بعشق البلبل للورد ، تعالوا هنا فتغنوا بالبلبل الورد !

غنتنا فى هذه الليلة أغنية «فتاة تونكين» ، فقدم لها صاحب المغنى — وهو شيخ هرم يلبس قباء أحمر تحت رقبته قطعة مستطيلة ناصعة البياض ، فكان منظره عائداً بالذاكرة إلى العصور المتطاولة — وراح يخبرنا عن هذه الأغنية وكيف أنشدت للمرة الأولى فلم تثر شيئاً ، أما فى الثانية فقد غزا طلاب الحى اللاتينى المسرح وظلوا يكررون بعد كل مقطع هذه العبارة : A poil ! (عارية) ، فاضطرب أمر المسرح وكان اضطرابه سر شهرتها ، خصوصاً فى الحى اللاتينى فى العشرين سنة الأولى من هذا القرن . وما كاد يلقى هو علينا نحن الحاضرين هذا الشرح ، حتى تلقفنا العبارة وصرنا نرددها بكل حماسة ، ولعلى أنا كنت من أكثرهم حماسة . . . ! فمن ذا الذى يبصر هذه الفتاة الرائعة الجمال ولا يصرخ من أعماق نفسه وبكل قلبه راجياً — ولو فى الخيال — أن يرى هذا الجمال صافياً « عارياً » فى هذا الكهف الرهيب تحت الأضواء الشيطانية التى تغمره فتدفع خلالها الأشباح والأرواح ، وتنطلق فى أجواز جو الكهف جنيات حوريات ترفرف بأجنحتها النورانية على نفوسنا الغرثى !

وكانت تلك الأغنية خاتمة سلسلة من الأغانى التاريخية من مختلف

العصور، يشرح ذلك الرجل تاريخها وأصحابها وكيف قوبلت من الناس؛ وأكثرها يمتاز بالمرح الماجن المكشوف إلى حدود بعيدة فى أحيان كثيرة. ولكنها تعيد إلى النفس أطياف العصر الوسيط بفرسانه وشعرائه التروبادور والتروفير Troubadours et Trouvères ، ورماحه – وقد نصب رمحان على جانبى المنصة – ، وتدور بها خلال تاريخ فرنسا الحديث حياً على أفواه أبناء الشعب، وتسبر أغوار النفس الفرنسية بما طبعت عليه من ميل إلى التهكم والمجون والعبث الرشيق مع حب انفعال وحرية فى التعبير المكشوف . وكل هذا فى إطار عتيق يعطيك اللون المحلى بطريقة قوية مؤثرة .

فكأين من معان ثمينة أفدتها من هاتين الشفتين القرمزيتين ، شفتى جاكلين فوكونييه Jacqueline Fauconnier – وهذا اسمها، معان تعمر العقل والقلب معاً !

— ٥ —

إلى سلوى

عيد النور والألوان فى كاتدرائية شـــــارتر

« ارفَعْ ذِكْرَ النور ، وانْصُرْ أهـــلَ النور ، وأرْشِدْ النور إلى النور ! »

أى سلواى !

أتذكرين هذه « الآية » الرائعة التى كان السهروردى يتلوها مسبحاً فى « هياكل النور » ؟ ما من مرة قرأناها معاً إلا تحدرت على خدودك المشبوبة عبرات التأثر اللهيف ، لأنك ، وأنت ابنة الظلمة ، تتحرقين شوقاً إلى النور فى تبتل الآثم الصارخ من أعماق هاوية الليل . لهذا كنت اليومَ أترجى صحبتك حتى تنعمى بهذا النصر النبيل وتسبحى فى فيضه الأتِىّ وهو يحمل موكباً من الأسرار .

اليوم يوم الأحد وزمر متراصة من أهالى باريس قد فزعوا فى متوع الصباح إلى أرباض المدينة فى ثياب – على تواضعها – زاهية مفوفة ينهل من ثناياها الحبور الرخيص . وأنماط من الشباب والفتيات يرددون أغانى صاخبة قصد منها إلى مجرد الجرس دون أن تعبر عن شىء أو لا تكاد . والغيوم الكابية تخلى السبيل للسحب البيض فيستيقظ الضياء من لفائف الظلمة المتكدسة منذ أيام فى كبد السماء .

ومحطة « مونبارناس » Montparnasse فى هدوئها الناصع تستقبل الوافدين فى غير احتفال أو كثير اكتراث . فبينما محطة « سان لازار » Saint-Lazare تعج بالحركة المتوثبة وتدفع إلى النشاط ـ أحياناً بغير ما داع ـ ترى « مونبارناس » تكره الضجيج وتحب الاعتكاف والسكون الشفاف .

وانطلقنا بالقطار نجوس خلال تلك الضواحى البديعة المترامية على طول الطريق . فها هى ذى « ميدون » Meudon، مدينة فناننا الأعظم رودان ، وقد أطل متحفه البلورى من فوق الرابية يتلألأ فى النور كأنه الثريا ، ومن تحته الوادى المجلل بالسنديان والقسطل والشوح والأشجار العامرة بأشهى الثمار ، وادى فال فليرى Val Fleury الذى يلمع من بعيد كالسراب . وهناك يرقد جثمانه وزوجه (وقد ماتا فى عام واحد ـ سنة ١٩١٨ ؛ وكادا يولدان فى عام واحد) يرقدان معاً تحت تمثاله الرائع : « المفكر » .

واستطال الزمن لبطء القطار ، والنفس فى لهفة إلى هذا المكان الأقدس . فكم فى خيالى عنه من أحلام وتهاويل ، وكم هدهدت نفسى بأمنية الحج إليه سنوات متواليات ! وكم كنت أستشعر طوال سنى الحرب وجلاً على هذه التحفة الفذة الباقية من الفن القوطى العتيق ، بعد أن كاد برابرة هذا العصر أن يصيبوا التحفة القوطية الأولى ، أعنى كاتدرائية كيلن Köln (كولونيا) ذات الأبراج المحلقة بعرش الله !

لقد كنت فى شغل عن بطاح مقاطعة البوس La Beauce الفاتنة بهذه الفكرة القدسية التى تجسدت المعمار ، فما حفلت « بالمفرش الملىء

والتموج العميق ومحيط البر والزبد المرغى» ، كما نعتها شارل بيجى Péguy.
بل تركت حقول القمح تتنزّى فيها قوى النضج ، ومخارف السنديان والغاب تتخلل المروج الخصبة الممرعة ، والقصور المترامية على طول الطريق تعيد إلى الخيال عهد الاقطاع الزاهر بنبالته العريقة الحريصة على تمجيد الروح : قصر رنبوييه Rambouillet وأضرابه مما يعيد عهداً لو أنصف هذا العصر لبكى عليه وتمنى العود إليه .

وفجأة صرخت وقد عيل صبرى : آه ! ها هى ذى شارتر ! ذلك أنى لمحت من بعيد برجيها الضاربين فى أحضان السماء ، وما لبثت المدينة أن برزت إلينا من فوق رابيتها وقد تربعت عليها الكاتدرائية فسادت الاقليم كله متدثرة بغلالة صافية من النور الوهاج كأنها عروس فى ثياب الزفاف تطل من مقصورتها العالية على حشد من الأبكار والغوانى . هنالك تذكرت تلك الأبيات الحارة التى أنشدها ذلك الحاج الآخر ، شارل بيجى Péguy :

« ها هى ذى المحاور والخطوط والزهرة الفخمة . . .
« هذا هو الحجر الخالى من الكدر ، الخالى من الخطايا :
« أعلى صلاة أقامها الإنسان . . .
« وأعلى خط امتد إلى سماء بلا أطراف . . .
« السهم الذى لا عيب فيه وليس للسقوط إليه سبيل . . »

لقد حج بيجى إليها طمعاً فى أن ينال الشفاء لابنه المريض ببركة « سيدة شارتر » ، فسار إليها على قدميه ، وراح يركع فى الكاتدرائية أمام عمود السيدة العذراء ، أو السيدة العذراء ذات العمود كما يطلقون عليها . ركع وأطال الركوع ، وصلى فأطال الصلاة مساء السبت وصباح

الغد . وكان أن شفى طفله من الدفتريا التى أصابته ، فعزا الشفاء إلى فضل العذراء فنذر أولاده الثلاثة لها . ورجا أن يموت فى شارتر ، التى أنقذته « سيدتها » من اليأس القاتل . ولئن لم يجب إلى طلبته ، فان قلبه – فيما يقولون – دائماً فى شارتر ، ومنذ ذلك الحين وقد حج إليها مرات ، لأنه استعاد فيها إيمانه ، فيما يقول .

أما أنا فقد حججت إليها كيما أستعيد إيماناً بقدرة الإنسان الذى أبدع هذه الأسطورة المعمارية الرائعة التى تنهض شاهدا قوياً على جلال الإنسان وآية تحمل على الإيمان به ، ودليلا يهدى إلى معناه .

النواقيس تصلصل بنبرات عميقة تنشر ألحان التقوى فوق الرابية الخاشعة ، موءذنة فى المصلين . وأنا فى زحمة الوافدين وحيدبشارك فى جوقة تلك النغمات التى تمجد الروح ، وأطياف من الأحساس المشبوبة تلبى فى أعماق ذلك النداء فى صفائه الأوّلى العارى عن كل أسماء وطقوس : إنه شعاع سارب فى السرب المظلم للنفوس الإنسانية لم يخطىء فهمه إلا الذين اقتبسوا منه قبسا ، ثم زيفوا عليه اسما ثم ادعوه لأنفسهم فى أثرة بغيضة ظلت توءكد نفسها بالمراسم والطقوس حتى نفّرت عقول الأحرار .

وهأنذا قبالة واجهة هذه الكاتدرائية الفذة فى الميدان المستطيل الراكع أمامها . فوقفت أتأمل برجى الناقوس وهما ينطلقان بسهميهما الحادين فى آفاق السماء : ألا إنهما ليستمدان الوحى من عليين ويعبران عنه للناس فى تلك النبرات الهادئة الحزينة التى تنطلق بها نواقيسهما . أتراهما ينوحان فى « وادى الدموع » ، فى دنيانا الأسيفة هذه ، ويعلنان صراخ بنى الإنسان إلى الرفيق الأعلى ؟ لكن لات من سميع مجيب .

عن يميني أرى بيت الناقوس القديم يصّاعد في بساطة مقدسة : أعني تقدست عن كل وشي وزخرف ، فتجلى فيه جلال المعمار الرائع ، كل هذا في غير تكتل ، بل في مرونة ورشاقة طائرة تأسر الناظر بنشوة طارئة تنشله في التو إلى الآفاق العالية . هنا حقاً مثل رائع لما يمكن أن نسميه « المعمار للمعمار » ، مما يتجلى في أروع نماذجه في فننا المصرى القديم : ففي أهرامنا النموذج الأعلى المحقق لهذا النوع الصافي من المعمار العالي ، ولقد صدق سيزان Cézanne زعيم المدرسة التكعيبية في الفن الحديث ، حين قال « إن الطبيعة أسطوانات ومكعبات » ، أى أشكال هندسية بسيطة . وهذه الشارة التي اتخذتها تلك المدرسة في التصوير قد جعلها المصريون شعارهم في المعمار ، خصوصاً في الأهرام والمسلات ، فسبقوا بأكثر من ستة آلاف سنة ما نعده اليوم التجديد كل التجديد والبدع نعم البدع Mode ، وحققوه خصوصاً في المعمار ، الذى هو ميدانه الحقيقي . أجل ، كم من دروس يجب أن نتلقاها من هذا الفن المصرى العتيق !

أما عن يسارى فناقوس أحدث عهداً في بيته وبخاصة في أطنافه التي ترجع إلى القرن السادس عشر ، وإن كان أعلى (١٥١ م و١٨ سم) من الآخر (١٠٥ م و ٦٦ سم) ، حتى إنه ليعد أعلى بيت ناقوس في فرنسا بعد بيت ناقوس كاتدرائية اشتراسبورج ، لكن ما فيه من طبقات تعلو السطح قد قضت على وحدته ، وإن ما فيه من زخارف ومقرنصات (إن صح هذا التعبير الخاص بالفن الإسلامي) وتحليات قد أفقده البساطة الرائعة التي تعطي المعمار كل مقداره وجلاله .

الواجهة الغربية تتجلى أمامى بكل فتنتها وتماثلها : ثلاثة طوابق فى ثلاثة أقسام يقوم فى قلبها القسم الوسيط ببوابته ذات النحوت البارزة . وها هو ذا الباب السلطانى Portail Royal ، كما يسمونه ، تتجلى عليه النحوت الدقيقة التى تمثل المسيح فى جلاله والسيدة العذراء : المسيح فى جلاله يشغل كوة الباب الرئيسى ، فتراه يتجلى رائعاً تحف به الحيوانات الأربعة الرمزية ، وهو يطل على الحجاج الداخلين إلى هذا المكان المقدس. بيد أن لجلاله أثراً مريعاً ، إنه جلال حزين يدعو إلى التأمل الطويل . أما السيدة العذراء فقد كساها الزمان شحوباً ، وعند قدميها مناظر متوالية تصور حياتها الدينية التى تكمل صورة حياة ابنها .

ألا فلندخل الآن فى هذا الحرم الأقدس . وأية رهبة وأية روعة ! خيوط من المعمار الدقيق تتواثب إلى أعلى ثم تتعانق فى شغف منكسر ، وأقواس قوطية تتوالى منحنياتها حتى تصب عند الوردية rosace العديدة الألوان القائمة فى أعلى المحراب قِبَلَ المشرق ، ومجامع الأعمدة الصغيرة كأنها الأطناف balustrades تسود الطابق الثانى فى بناء الكاتدرائية فتشق كتلة المعمار حتى تهبه روح اللطافة والرشاقة معاً ، ومن فوقها النوافذ الزجاجية الملونة تحيل هيكل البناء إلى ثريا من البلور الناصع ، فتزيد فى فيوض النور التى تغمر البناء كله ، حتى تكاد تحيله إلى كرة من البلور فى يد ذلك العراف الأكبر المجهول الذى أبدع هذه الكاتدرائية . وإنه لعراف ساحر حقاً ، يختلبنا فى حبائل يده الصَّناع ، ويخدعنا عن حقيقة فنه . فهذه الرشاقة الأخاذة التى يتسم بها هذا المعمار كله قد تُخيل إلى الناظر أن البناء غير متين ، وأنه ليس إلا لعبة من لعب

الخيال المعمارى الجامح ، مع أن فى هذه الخفة الطائشة نفسها سر متانته ورسوخه . وهذه الأعمدة الممشوقة النحيفة قد توقع فى الوهم أن البناء على غير أساس ثابت ، فما هى إلا قضبان كأنها الرماح ، بيد أنها أيضاً كالرماح العوالى صلابة وقساوة . أجل ، إن هذا الفن القوطى ليعبث بعقول الناظرين .

لكن هذه الثريا البلورية الناصعة قد أفسدت بعض أثرها — وا أسفاه ! — تلك الزحمةُ الكئيبة من النحوت التى أحاطت بالكورس من غير أدنى داع . لقد ألقت ظلمة حزينة على هذه الفرحة المعمارية التى قدست النور وكانت خير تسبيح له . إنهم يزعمون أن القساوسة والرهبان قد أزعجتهم هذه الطوفانات من النور لأنها تشغلهم عن حشد الخاطر فى التأمل والصلاة والدعاء إذ تشتت عليهم انتباههم ، فطلبوا إقامة هذه الحواجز الكالحة التى قتلت الكورس chœur وحشت جوف الفناء بزخرف دميم وسور عقيم ونحت ذميم .

ولقد قلنا إن الكاتدرائية كلها ثريا بلورية فى يد ساحر جبار . نعم ! ها هنا معرض مستمر لأفخر الجواهر والأحجار الكريمة يتمثل فى هذا الموكب المتصل من الألواح الزجاجية الضخمة . ويقوم على تنظيم التماثل فى هذا الموكب ورديات rosaces هى الفتنة بعينها فى تنوع ألوانها وتعددها ، ودقة رسومها وقطعها .

كل هذا ولن أستطيع أن أعبر لك عن أقل قدر من الاحساسات العالية التى شعرت بها فى هذه الكاتدرائية . ولن تستطيع كل الصحف نفسها أن تصف لك غير أثارة ضئيلة من تأثيرها وجمالها . ولهذا فليس

لدى ما أقوله بعد سوى أن أدعوك إلى شد الرحال إليها ، أى سلواى العزيزة ! وإن كنت عندى نموذجاً حياً إنسانياً لهذه التحفة المعمارية نفسها : فأنت أينما حللت تسبحين فى فيوض من النور ، وإن كانت نفسك كما قلت من فرط شفوفها تستهويها العتمة ، وأنت عيد من الألوان بثيابك الزاهية وخدودك القانية المشبوبة كأنها وهج الشمس الغاربة فوق الأفق ، وبعيونك الخضر الصافية التى يستشف منها المرء أعماق القداسة الأولية ممزوجة بالبراءة الأنوس ، وأنت الرشاقة والتصاعد والحنان مجتمعة حتى ليسبق إلى وهم الناظر العابر أنك سلسة القياد هينة المأخذ ، مع أنك صلبة القناة ، فيك شماس وفيك عناد.

أجل ! إن كاتدرائية شارتر Chartres عيد النور والألوان فى دنيا المعمار ، وأنت يا سلواى عيد النور والألوان فى دنيا العاشقين .

-٦-

إلى سلوى

يوم المقابر بين رينان وغادة الكاميليا

« ألهاكم التكاثر ، حتى زرتم المقابر . . . »

صدقت يا إلهى ! فقد اختطفتنى باريس ، تلك اللعوب الغادرة ثم اقتادتنى بأناملها الوردية إلى حيث ألهانى النهم الساغب ، من فرط الحرمان الكليل ، عن تلمس هياكل عبادتى الصامتة فى ملكوت الفكر . جئت حاجاً قانتاً لهداتى الروحيين ، فانكفأت عما قليل ضالا يستعذب الشرود بين أتاويه الحسد فلا يغذوه إلا قوت الحواس ، وقد ألقى إلى ناموس الحياة العنيفة معاذيره ، فتلقفها العقل المنافق بين عبوس الماضى ولهفة الحاضر .

سبحانك ، اللهم ، سبحانك ! وغفرانك ، يا سلوى ، أى غفرانك !

لم يكن ثمت عاصم من أمر الحسد الذبيح إلا أن أعطف على المقابر ، وما أروع المقابر فى باريس ! قد يكون فى غيرها ما هو أرفع منها فناً وأكبر عراقة وأصالة ، كمقابر « جنوة » وأضرابها ، لكن لا شىء منها يعدل مقابر باريس غنى بالذكريات والأشخاص الأعزاء لدى كل القلوب . فهنا بساطة المقبرة وجلالة المقبور ، وهنا أطياف الماضى القريب تتواثب أمام المخيلة عرمة بالحياة عامرة بالأنفاس الحارة . القبر

متواضع ، لكنه بنى بحجارة من إعجاب ؛ والأزهار قليلة ،لكنها تندى بدموع المحزونين وتسقى من قلوب العاشقين ؛ والطرقات لزبة خشنة ، بيد أنها مرصوفة بأنبل الذكريات .

فبعيداً عن زحمة الأحياء اللاهين ، تعالى معى يا سلوى إلى تلك المعابد الصامتة للأموات الأحياء الخالدين . وتعالى معى أولا إلى المقبرة التى يرقد فيها جثمان عزيزنا الأول ، رينان ، ألا وهى مقبرة مونمارتر. وأنت تعلمين ما هو حى مونمارتر فى باريس . إنه حى باريس الآثمة المنهوكة بين أحضان عبادة فلوس وفينوس ، وقد كان منذ عهد قريب حى الفنانين الشاردين ممن أبدعوا النزعات العصرية فى الفنون وفى التصوير بخاصّة ، وهو مع هذا أيضاً حى القداسة المترفعة فوق رابية مونمارتر ؛ حيث تستضحى بازليكة قلب يسوع المقدس Sacré-Cœur بعمارتها الناصعة ذات الطراز الحديث الثقيل . فهذا الحى إذن أروع تعبير عن الحياة العنيفة ضفتيها ، وهل القداسة إلا ذروة شهوة !

المقبرة مقسمة إلى قطع تفصل بينها طرقات ضيقة امتدت على جوانبها بواسق الأشجار ،ولكل قطعة رقمها حتى يهتدى به السالكون . مادخلت الباب حتى يممت عن شمال إلى القطعة رقم ٢٢ التى يرقد فى أرضها جثمان رينان . كنت أقرأ الأسماء على كل ضريح ، وهاأنذا فى تلك القطعة، لكنى لا أرى اسم رينان . أواه ! أواه ! إن أتفه الناس فى هذه المقبرة قد ظفر باسمه محفوراً على الناووس أو المقبرة ، أما رينان العظيم فقد أغفلوا اسمه ! لكن « الدليل » صريح فى أنه دفن فى هذه القطعة إلى جوار حميه ، آرى شيفر ، الفنان المشهور . وها هو ذا قبر

مظلم قد نقش فوقه اسم آري شيفر ، فلابد إذن أن يكون رينان مدفوناً فى نفس المكان . وآية ذلك أن غصناً من الصفصاف الجاف لايزال معلقاً بباب القبر ، والاحتفال بإقامة متحف رينان فى بلده ترجييه Tréguier كان منذ قليل . فلعل أحد الأقارب أو المعجبين قد وضع هذا الغصن الجاف على قبره بمناسبة هذه الذكرى التى جمعت شمل المعجبين والناقمين فى هدوء بتلك البلدة النائية فى أقاصى إقليم بريتانى فى فرنسا ، فمضى اليوم هادئاً يرفرف عليه جناح السلام ، بعكس ذلك اليوم العاصف الصاخب الذى احتفل فيه بوضع تمثال رينان فى بلده سنة ١٩٠٣ بين ضجيج الساخطين وهتاف المعجبين .

كم من هموم اعتلجت فى صدرى لما أن رأيت هذا الإهمال ! وكم ثارت نفسى على المسئولين عنه ، أولئك الذين يزعمون لأنفسهم احتكار شئون الموتى ! لهذا سرعان ما دلفت من حيث أتيت ، سعياً وراء أزهار لازوردية أضعها على هذا القبر المجهول المغمور ، حتى يحين الأوان كيما نضع هذا الجثمان الطاهر « فى الأكفان اللازوردية التى ترقد فيها الآلهة الموتى » ، كما قال « فى صلواته على الأكروبول » .

آه ! أين أنتم يا أصدقاء رينان ؟ وكيف أغمضتم أجفانكم على هذا النسيان والطغيان ؟ ! ! لماذا تركتم الظلمة العابسة تخيم على قبر هذا الذى حمل لكم جميعاً مشعل النور ، وعلى شفتيه بسمة رائعة سجدت لها أصـــنام الجاحدين .

لم يكن فى وسعى أن أقدم غير أزهارى اللازوردية ، عسى أن يكون فيها لنفسى ما يوهمنى أنها تلك الأكفان . فلتكونى إذن أيتها الأزهار

شفيعاً، بعض الشفاعة، لدى عزيزنا الأكبر هذا، فلقد سقيتها من عبرات الأسى والاعجاب !

لذا لم أتلبث أمام هذا القبر إلا قليلا، وتلفت إلى خلف عن يمينى لزيارة الخالدين الآخرين، وأنا مشترك الخواطر أميد من الأسى. فرأيت قبراً يرقد فوق ناووسه تمثال منبسط لاسكندر ديما الابن. فتمهلت قليلا أستعيد ذكرياتى معه، فانبثقت فى التو «غادة الكاميليا» وقصتها لاتزال تنبض بالدم فى عروقى. و «الدليل» يشير إلى قبرها فى مقبرة مونمارتر هذه نفسها فى القطعة رقم ١٥، فلأدع ديما راقداً فوق ناووسه مستظلا بسقفه الحجرى، ولأتوجه إلى قبرها هى، فهى التى تعنينى.

أما «غادة الكاميليا» هذه فهى ابنة الهوى مارى دوبلسى Marie Duplessis كما لقبت نفسها لما أن طرقت أبهاء الدنيا الزاهرة، أو ألفونسين بلسى Alphonsine Plessis كما هو اسمها الأصلى الحقيقى. وقد ولدت من أسرة فقيرة حقيرة فى السادس عشر من كانون الثانى (يناير) سنة ١٨٢٤، فقاست فى أيامها الأولى مرارة الذل والفاقة والتشرد فى مسقط رأسها نونان Nonant بمقاطعة الاورن Orne. وماذا عسى أن يكون أمرها غير هذا، وأبوها رجل عرف بالشر والقسوة والفجور ! وما كان أفظع قسوته على ذويه، حتى اضطرت زوجه إلى الفرار من جحيمه إلى حيث راحت تخدم سيدة إنجليزية تقطن مدينة جنيف، تاركة بنتيها، دلفين الكبرى، وألفونسين التى تصغرها بعامين، إلى أقربائها. فظلت فتاتنا هذه ألفونسين، تهيم على وجهها فى الحقول إلى أن بلغت الرابعة عشرة، فارتحلت إلى باريس.

وهناك ضاعت فى زحمة هذه الدنيا الواسعة ، وهى لاترتدى غير أسمال بالية . بيد أنها ضاعت فيها لتتفقد طريقها ، وذلك دائماً شأن المدن الكبرى : يضيع المرء فيها ليجد نفسه . فبدأت بأن شقت طريقها فى حياة العمل ، فاشتغلت لدى سيدة أزياء ، أو لدى غسالة . والذين يعرفون باريس المغمورة يعرفون جيداً هذا النوع من الفتيات اللائى يطلق عليهن اسم midinettes ، واللائى خلد ذكرهن هنرى مورجيه Murger فى قصته المشهورة «مناظر من الحياة البوهيمية» ، ومثلهن موسيه Musset فى شخصية ميمى بنسون الخالدة . فهن من اللواتى يقضين النهار فى العمل لدى سيدات الأزياء ، وفى المساء يغشين المراقص والحانات بصحبة الشباب الصاخب الفقير ، وفى أيام الآحاد فى الربيع وأوائل الصيف يتوافدن على المراقص الريفية أو فى الهواء الطلق ، ولا متعة لهن غير هذه الرقصات الرخيصة التى لاتكلف شيئاً غير كوب من الليمون ، أو قطعة تافهة من الحلوى الطرية الرديئة . وتراهن أمام واجهات المطاعم الهزيلة يلتمظن بشفاههن ، ولات ساعة مغيث ! ومع هذا يحيين حياة صاخبة يستمتعن بها إلى أبعد حد ، ويبقين على هذا النحو دون أن يطمعن فى المزيد ، طالما لم تمتد إليهن تلك الأيدى الناعمة الكاذبة التى تقتادهن يوماً إلى مطعم جيد أو ملهى فاخر . هنالك تضطرب حياتهن إلى أبعد حدود الاضطراب ، حتى تقتحمها العاصفة المدمرة التى ترتفع بها إلى قمة الحياة العالية ، ثم تهوى بها عما قليل إلى هاوية الحياة السحيقة : البؤس الكظيم الملىء بالذكريات الأليمة إن جاوزن الثلاثين ودلفن إلى الشيخوخة الكالحة التى يفقدن فيها كل وسائلهن ، أو الموت العاجل مطلع الشباب

المبذر الفاجر ، وغالباً ما يكون بتأثير علة خبيثة من تلك العلل الملازمة لهذا النوع من الحياة الذى يتخذنه : والسل بخاصة .

ولهذا النوع من الفتيات معارج يسلكنها فى طريق هذه الحياة تبدأ بمرحلة غشيان مجامع الطلاب فى الحى اللاتينى ، فيشدين من هذه المعاشرة حظاً من الثقافة سيكون لهن العون نعم العون لما أن تبسم لهن الحياة العالية المشرقة . ولهذا فان للفتيات اللائى يغشين الحى اللاتينى حتى اليوم شهرة فى هذا الباب : فهن الخلايا الأولية للغادات الدنيويات اللائى سيبهرن عما قليل محافل الشانزليزيه ، وتراهن إذا ماشببن عن طوق الحى اللاتينى وغشين أندية الشانزليزيه يجدن ألماً بالغاً إذا حدثتهن عن الحى اللاتينى ، فذكرتهن بذلك الماضى التعيس . ولذا لاترى مكاناً أبغض إليهن من ذلك الحى ، وتراهن يكتفين بالإشارة إليه على أنه من « الضفة اليسرى » ! وكفى هذا تحقيراً له فى نظرهن ، جرياً وراء تلك المنابذة المشهورة بين « الضفة اليمنى » و « الضفة اليسرى » ، والتى ترى الفرنسيين ، والفرنسيات على وجه التخصيص ، حساسين كل الحساسة بالنسبة إليها . وإذا كان ثمت عوامل عدة قد دعت إلى وجود هذه المشاقة فيما بين ساكنى ضفتى نهر السين ، فلا شك أيضاً فى أن لهذا النفر من الفتيات اللائى نتحدث عنهن أثراً إن لم يكن فى إيجادها ، ففى تقويتها والمبالغة فى توكيدها .

ونعود إلى ألفونسين ، فنجد حظها حظ أترابها : عرفت مجامع الطلاب ، لكنها مجامع إن صلحت لزيادة الثقافة والصخب واللهو الرخيص ، فهى لا تصلح لمن تريد أن تشق طريقها إلى المحافل العالية

فى « الضفة اليمنى ». فسرعان ما انتابها ما ينتاب حياة الطلاب الفرنسيين والأجانب البائسين الشاردين فى باريس : فقر وذل ، وبطن خاوية ، وعمل شاق ؛ إن وجدت اليوم كسرة خبز أو غرفة سطح تؤويها ، ففى غد ستطوى بطنها جوعاً وتأوى إلى مقعد فى مفارق الطرق أو تحت جسر من جسور السين تقضى عنده ليلها المظلم الطويل .

لكن جاء اليوم المحتوم ، يوم أن اقتادها صاحب مطعم فى رواق مونبانسييه Montpensier فى الباليه رويال Palais-Royal فى قلب الضفة اليمنى ، اقتادها إلى ضاحية سان كلو Saint-Cloud فذاقت لأول مرة طعاماً ممتازاً وركبت مركباً فاخراً ، وقضيا ليلة عامرة بالمباهج التى أذهلت تلك العيون الكليلة التى لم تعرف غير الأضواء الخافتة فى أزقة جبل سانت جنفياف والمضاجع الخشنة عند أسوار حديقة اللكسمبور . أجل ! كان فارسها قد خوى عموده ونقضت السنون مرّته ، لكن ما قيمة هذا عندها إلى جانب هذه الألوان الصاخبة التى تغمرها ! وهو إلى جانب هذا كان لا يزال للحب فى قلبه مكانة ، فاشتعل بالفتاة الشاردة غراماً ، حتى استأجر لها شقة أنيقة صغيرة فى شارع الاركاد L'Arcade . ثم إنها ما اتخذت ذلك الرجل إلا مطية للولوج إلى حرم الحياة الواسعة والدنيا البهيجة . لهذا سرعان ما هجرته إلى رجل سيد عظيم وهما خارجان من رقص عام ذات مرة . وذلك السيد هو الكونت دى جيش فى ذلك الحين ، ومن بعد سيصير باسم دوق دى جرامون Duc de Gramont وكان فى ريعان شبابه وناضج فحولته ، إذ لم يكن يكبرها إلا بخمس سنوات ، وكان يبذل عن سخاء ،

وبالجملة كان ولداً متلافاً وهدفاً مرموقاً من كل الفتيات . فواعجبا لحظ ألفونسين ! أستغفر الله ، وأستميحها العذر ، فلم يعد جائزاً أن ندعوها بهذا الاسم المتواضع ، بل يجب أن ندعوها بكل تبجيل باسمها الجديد الذى اختارته آنذاك ، اسمها الدال على النبالة الجديدة التى اكتسبتها لسنا ندرى كيف ، ألا وهو : مارى دوبلسى ! ! ولولا أن تظن بنا السخرية لأضفنا إليها لقب : كونتس ، أو دوشس ، أو برنسيس . . . ! !

على أن فتاتنا ، والحق يقال ، لم تبطرها النعمة التى أسبغت عليها . فلم تشأ أن تكون مذبح الثروات والألقاب ، ولم ترد أن يختصم من حولها النبلاء العاطلون المأفونون ، شأن أترابها من فتيات الهوى اللائى يسلكن سبيلها ، فلم تثر من أجلها مبارزة ، ولم تبدد ثروة فى القمار بين يديها . إنما كانت فتاة هوى « صاحبة مزاج » كما يقال ، فلم تكن تهوى إلا طبقة « الشباب الزاهر » jeunesse dorée كما ينعتونه : أولئك الذين يمتازون بروعة الشباب وغيدان الحداثة وفتنة الأناقة ، أكثر مما يمتازون بكثرة اللعب بالأوراق واقتناء العربات الفاخرة والجياد المطهمة . فلا عجب بعد أن نجد فى محيطها طائفة من أهل الفن الذين كانت تؤثرهم على أولئك النبلاء الطامحين الفارغين ؛ من أمثال ألكساندر ديما Dumas الابن ، وفرانتس ليست Liszt الموسيقار العظيم .

فالفتاة لم تكن فى الواقع خالية من المواهب الممتازة ، فضلا عن جمالها . فقد كانت ذات حركات تنبىء عن نبالة نفس وشرف محتد ، وكانت فى عيونها براءة ، وفى بسماتها جد رقيق ، وكان لإشاراتها مايكشف

عن تأثير بالغ فى نفوس من يرونها دون أن يعرفوها . ولهذا فان ألكسندر ديما الأب قال لابنه وهو يشاركه وجدانه : « لك الحق فى العطف عليها ، فانها فوق مستوى مهنتها بكثير » ، يعنى مهنة الخليلة ذات الأصل الوضيع .

وحديثها لم يكن يخلو من عمق : أولاً بتأثير عهدها الغابر فى الحى اللاتينى ، وثانياً بتأثير العالم الجديد الذى ألفت الآن غشيانه : عالم المسارح والعرض الأول لكل رواية جيدة ، وعالم الموسيقى وقد كان يعمره فى ذلك الحين فى باريس فرانتس ليست Franz Liszt بألحانه السماوية الرائعة ذات الحنان والرقة مع العمق والجلال . فتراها إذا ماتحدثت مع أهل الفن هؤلاء نم حديثها عن حسن فهم وسلامة ذوق مع ترفع مشوب بالاغراء . لهذا لم يكن غريباً أن يولع بها أولئك الفنانون ، وأن يكون ألكساندر ديما الابن من أولئك العشاق ، فخلدها فى تلك القصة الخالدة : « غادة الكاميليا » .

ولعل أبلغ آية على سمو نفسها أنها كانت دائماً تظهر ملالها من عباد جمالها ، وتنشد الوحدة والصمت ، وتعاف العبارات الممجوجة التى كانت تصم آذانها كل يوم : « أنت رائعة ، أنا أحبك ، غرامى كاد يقتلنى ! »
أجل ، لم تكن فنانة بأى معنى من المعانى ، إنما كانت بنت هوى فحسب ، تتقاضى ثمناً فادحاً لنظراتها ورفقتها وتعلقها . لكنها مع هذا لا تخلو من السمو النفسى ، وإلا لما تعلق بها أولئك الفنانون .

أما قصتها مع ديما الابن نفسه فقليلة القيمة : إذ لا تتجاوز تعارفاً بسيطاً أعلن فيه الفتى المتلاف الواله غرامه العنيف ، وردت هى عليه

— وقد عرفت الآلاف من أمثال هذه العبارات الجوفاء — بكلمات فيها مرارة كأس الحياة، تطلب فيها أن تكون بكامل حريتها فى صلتها به. وما كان لديما أن يفعل غير هذا، فلم يكن لديه من المـــال غير ديون باهظة! لهذا سرعان ماانتهت قصة غرامها، برغم ما مر به من شكوك ومتاعب وعذاب، انتهت ببطاقة أرسلها إليها يقول فيها: «عزيزتى مارية! لست من الغنى بحيث أقدر على حبك كما أود، ولا من الفقر كيما تحبينى كما تهوين. ألا فلننس نحن الاثنان معاً: أنت: اسماً لابد أنه لايكاد يعنيك فى شىء، وأنا: سعادة يستحيل علىَّ الظفر بها. ومن نافلة القول أن أصف لك كم أنا حزين، لأنك تعرفين إلى أى مدى أنا أهواك. وداعاً إذن. وإن لك من القلب ما يسمح لك بفهم العلة فى رسالتى هذه، ومن العقل ما يجعلك تغتفرين لى. آلاف الذكريات!».

بيد أن هذه الحياة الزاهية التى أشرفت مارية على أوجها كان لابد أن تدفع كفارتها من هيكلها الذى طالما أرهقته. لكنها قبل أن تدفع الكفارة الأخيرة رامت أن تستعيد نفسها وتظفر بالخلاص، فتزوجت من الكونت إدوار برجو Edouard Perregaux حفيد مدير بنك فرنسا فى ذلك الحين، وتم الزواج فى لندرة فى ٢١ شباط (فبراير) سنة ١٨٤٦ خوفاً من أعين الرقباء، حتى ظل سراً مكتوماً، ونقول تم الزواج، ونقصد اسما، لا فعلا، فما لبث هذا الزوج فى سن السابعة والعشرين أن هجر زوجه حتى قبيل وفاتها بلحظات، وإن كانت هى قد استغلت اسمه وصلته على شئونها الخاصة. ومن ثم عادت بزواجها الخائب إلى باريس،

فاستأنفت أو شاءت أن تستأنف حياتها الصاخبة . لكن لات ساعة حياة ! لقد عبث السل برئتيها ، وتبدى على شكل سعال جاف مصحوب بحمى ، فبقى منها آنذاك جسم شاحب ذاب بياضه الناصع ، وتبدى النحول فى وجهها ، وعلت عيونها السود قتامة كالحة – حاولت أن تخفى شيئاً منها بأرديتها الزاهية وزينتها الفخمة ، لكن عبثاً ؛ وعبثاً كذلك أن ارتحلت إلى بروكسل وإلى مدن المياه المعدنية مثل إمز ، فقد حم القضاء ، ولفظت أنفاسها الأخيرة فى بيتها رقم ١١ بشارع المادلين ، فى يوم ٣ شباط سنة ١٨٤٧ وهى فى الثالثة والعشرين .

تلك حيـــاة هذه الفتاة الغريبـــة التى ألهمت ديـمـا الابن قصته الخالدة .

وقد دلفتُ إلى قبرها مليئاً بهذه الذكريات ، فوجدته قبراً ناصعاً من المرمر الشفاف ، ومن فوقه أوانى زهر يانع وتاج من الزهر الرخامى ، وكل ما فيه يشعر بأنه لايزال حياً تسهر عليه عيون المعجبين . والعجيب أنه لم يكن بين هذه الأزهار زهرة الكاميليا التى نسب ديما إليها إعجابها وتعلقها بها . ولعل السبب فى هذه النضارة والحياة اللتين شاهدتهما عند هذا القبر أنه قد احتفل هذا العام (١٩٤٧) بمرور مائة عام على وفاتها ، فحج إليها المعجبون ، وتركوا عندها ذكرياتهم الخاصة التى تشارك فى أحوالها .

ولا أحسبك ، أى سلواى ، ستسألينى العلة فى إطالتى الحديث عنها . فأنت أدرى منى بها ! !

— ٧ —

من سلوى

على أعتاب الإمام الشفيع

حبيبي !

هنيئاً لك وقوفك بمقابرك العامرة بالذكريات ، العزيزة لديك ، أليس كذلك ؟ إى والله ! وإلا فخبرنى ما السر فى تلبثك طويلا أمام قبر « غادة الكاميليا » ، ألفونسين دو بليسى ، وفى اجترارك — بشهوة خفية ، ولكنها قوية — لقصة حياتها الحافلة بالأحداث العاصفة ؟ هل فى حياتى وصلتى بك ما يدفع بالمقارنة فى خاطرك ؟ هيهات ، هيهات !

أم حنين إلى ماض طالما ادعيت فأقسمت بمغلظ الأيمان أنك تبت عنه إلى غير رجعة ، وقديماً قال الشاعر :

وذو الوجد القديم ، وإن تعزى ، مشوق حين يلقى العاشقينا ؟

اصدقنى القول ، ولو مرة واحدة وما عهدتك إلا أبرع الممثلين ، أعنى أشهر الكاذبين ؛ أما أنا فياويلتاه ! بأى مقابر أفاخر !

أتذكر الطريق الرائعة التى طالما اخترتها مرتاداً لنزهاتك ، الطريق المؤدية إلى « صفا اليم » كما سميناها ، « الصخرة » ، أو « كهف الحمام » كما يسميها الفرنسيون وأشباههم منا ؟

أنفاس الربيع المتأخر تتردد على شجيرات التين الشوكى بأزاهيره الصفر الفاقعة قبالة « الصخرة » ، والمقاهى الخاوية تستجدى الوافدين بمذياعاتها الصارخة فى واد لاسميع فيه ولا مجيب ، إلا ذلك المقهى المنفرد بعد « الصخرة » يغص بالقوم المنتجعين لجيد الأسماك . والتراب الأحمر القانى والبنى يلمع فى ضوء الشمس الزاهية الوثابة الأشعة فوق الموج الرفيق . ورأس « الناقورة » قد استوى على الجودىّ بلونه الكابى الداكن وهو يختال فى شمم ناصع . والأبنية الجديدة الزاهية الألوان تنحدر على السفح الراقد فى انزلاق رشيق كأنه غادة باسمة تنزلق على الثلوج . ومن بينها منزل له فى قلبك — أو كانت له — منزلة عظيمة ، عابرة ، وإن كنت أحسبك لاتزال تحن إلى صاحبته التى حدثتنى عنها : كيف فتنتك وأطارت لبك — وما أسهل وما أروع ما يطير ! — حيناً من الدهر بعد أن شهدتها وهى تشتو فى بلدك العزيز . وهـــل أنسى حديثك الحار النبرات عن مفاتنها : قوام ملىء ، ولكن فى نعومة تثير فى خلايا الحس ناراً مشبوبة الأوار ، وصدر عامر فى استواء ، وخدود أسيلة بضة كأنها باقة من الزنابق أو الجردينيا تتوسطها أزهار التفاح ، وعيون ، آه ! عيون عسلية تنضح بأسرار الفتنة كلها لا تقوى على إغرائها مقاومة : تحت أهدابها ظل تسكن إليه العواطف المتأججة ، وفى سعتها انطلاق يفتح على آفاق الباطن الفسيحة ، وفى محاجرها ابتسامة راقدة تغفى فيها زفرات المولهين ، وعلى حفافيها هالة من السمرة تحسبها كحلا وما هى بالكحل ، إنمـــا لون ساحر يرفرف بجناحيه الخفيين ولا يمتد على بشرتها ؛ وحديث مشبوب بالدلال ، لرنينه جرس الألفة ومعسول الإغراء واحتجاز الحياء الأصيل ؛

ووشاح من الحرير الهندى الرقيق تكسو به بعض رأسها ، على عادتنا أهل لبنان وسورية ، وغالباً مايكون من الأخضر الزاهى ، يحيط بالمحيا الرائع فيضفى عليه أصفى الحنان . . . إلى آخر حديثك الطويل عنها فى حسرة ، وحرارة نبرة ، وتصعيد زفرة ... ؛ حتى كان يخيل إلى أن إدمانك على سلوك الطريق الرائعة ومشاهدة « الصخرة » الكائنة فى عرض اليم كان من أقوى دواعيه أن تمر على ديارها لتقبل جدرانها بنظراتك المليئة بالشوق واللهفة والحنين السعيد .

على أنى — وقد برئت من الغيرة كما تعلم ، علماً أخشى أن تسىء استخدامه ، أيها الماكر العابث ! — لم أنس ، وأنا مارة بهذا القصر الوردى الراقد على الربوة بين النخيل والصنوبر قبالة « الصخرة » ، لم أنس أن أحييه وأحيي من أمضت عمرها البكر فيه إرضاءً لك ونيابة عنك !

ثم هرولت مسرعة على الشاطىء المهجور بين الموج الرقيق والصخور القاحلة والرمال المترامية عند أرباض مدينتنا بيروت ، مارة بشواطىء استحمامها المندثرة الخاوية — والصيف لما يأتِ — حتى بلغت قرية صغيرة فيها ضريح الإمام الأوزاعى .

وأنا أعلم أنك ستبتسم هنا ابتسامتك الماكرة التى يقول لسان حالها : وما شأنها بامام من أئمة الإسلام العظام ، وهى اللبنانية الأصيلة . . . !

لكن يكفينى — لرد ابتسامتك الخبيثة إلى فمك القاسى — أن أردد على سمعك أبيات البحترى :

ذاك عندى ، وليست الدار دارى باقتراب منها ، ولا الجنس جنسى
غير نُعْمَى لأهلها عند أهلى غرسوا من زكائها خير غرس

وكيف ننسى هذا الغرس الأعظم الذى غرسه ذلك الإمام الإنسانى الواسع العقل والحرية ، حين أراد الأمير صالح بن على العباس إجلاء أهل الذمة (النصارى) من جبل لبنان بعد أن أوقع بهم ! لقد كان قومى مهددين بالاجلاء عن جبلنا الحبيب ، بل بالقتل والتخريب ، فأرسل إليه الإمام الأوزاعى كتاباً يفيض بكرم الأخلاق ونبالة النظرة وجمال التقوى وعمق التدين الصحيح ، وهو يقول فيه : « وقد كان من إجلاء أهل الذمة من جبل لبنان ممن لم يكن ممالئاً لمن خرج على خروجه ممن قتلت بعضهم ورددت باقيهم إلى قراهم ، ما قد علمت . فكيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم ؟ وحكم الله تعالى ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وهو أحق ما وقف عنده واقتدى به ، وأحق الوصايا أن تحفظ وترى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه قال : « من ظلم معاهداً وكلفه فوق طاقته فأنا حجيجه » ؟

أى كرم فى هذه الشمائل ، وأية سراوة أخلاق ! أية سعة فى أفق التفكير ، وإرهاف إحساس بمعانى الحرية والكرامة ! وما أحوج القوم عندنا — فى بلدنا الأسيف الممزق الأهواء ، المتنابز بالألقاب ، المتصارع فى حمأة الطائفية المجرمة بتحريض من الغربان التى لا تحيا إلا من جيفنا وأشلائنا ! — ما أحوجهم إلى تلقى العبرة من هذه الكلمات النبيلة التى كتبها ذلك الإمام الممتاز !

فكيف لا يكون علىّ فرضاً — أنا وكل لبنانى ولبنانية على اختلاف المذهب والدين — الحج إلى ضريح هذا العلم الشامخ الذى يجب أن نعده رمزنا واللواء الذى يجب أن نلتف جميعاً حوله ؟!

يضاف إلى هذا أن عدواك قد انتقلت إلىّ ، فحطمت القيود العتيقة التى كانت تكبلنى فصرت لا أفرق بين أحد منهم أبداً — منهم : أعنى من الأرواح الهادية التى حملت مشعل النور فى أى مرفق وإلى أىّ دين انتسب — بل أعدهم جميعاً من عشيرتى وأهلى . وأنت شيخى فى هذا : درست فى مدرستك ، أعنى رسائلك وأحاديثك وروحك — وأصبحت أفهم الآن كيف تهتز أنت لمعانى الحياة الدينية والروحية التى لا تشارك فيها بالاسم والانتساب الأصيل ، أعنى المفروض عليك فرضاً بالوراثة والمكان والزمان . نعم ، لقد أعدتنى هذه الحمى الروحية التى تسرى فى كيانك وتعبر عنها فى الصفحات المشبوبة التى تكتبها إلىّ عن الكنائس والمعابد والقديسين الذين حججت إلى هيا كلهم . نعم ، أيقنت الآن تمام اليقين أن خير مبدأ أتخذه فى حياتى الروحية هى أن : أشارك بقلبى فى كل شعور عبر عنه صاحبه بإخلاص ، أيا كان مذهبه .

واسمح لى هنا مرة أخرى أن أهيب بشاعرنا البحترى فى نفس القصيدة :

وأرانى من بعدُ أكلَفُ بالأشـ ـراف طُرّاً من كل سِنْخٍ وجنس

بلغت قرية « حنتوس » والساعة ساعة الأصيل . والقرية لا تتجاوز الضريح وبيوتاً ضئيلة هزيلة وحمامات متواضعة لاتزال تذكرنا بحالها لما أن كان يعيش هذا الإمام الذى ذهب ضحية هذه الحمامات !

وإن كان القوم على خلاف فى الحمام الذى ذهب ضحيته : فمنهم من قال إنه حمام داره : « إذ اختضب فى داره ودخل الحمام ، وأدخلت معه امرأته كانونا فيه نار وفحم ، وأغلقت عليه باب الحمام ، فلما

هاج الفحم صعدت نفسه. وعالج الباب ليفتحه ، فامتنع عليه ؛ فألقى نفسه . » (« محاسن المساعى فى مناقب الإمام أبى عمرو الأوزاعى » ص ١٦٠ — ص ١٦١) ، ومنهم من قال : « كان الذى أغلق عليه باب الحمام صاحب الحمام ، أغلقه وذهب لحاجة له ؛ ثم جاء ففتح باب الحمام فوجده ميتاً قد وضع يده اليمنى تحت خده وهو مستقبل القبلة » («محاسن المساعى . . » ص١٥٩). ويخيل إلى أن الرواية الثانية هى الأصح ، وأن ذلك الحمام كان فى قرية حنتوس هذه ، ويؤيد هذا دفنه فى هذه المنطقة بدلا من دفنه فى بيروت نفسها .

وواجهة الضريح إيوان ذو أعمدة . تدخل من باب صغير فتدع غرفة مغلقة عن يمينك وجداراً ممتداً عن يسارك يسكن فيه خادم الضريح ، ثم تجد نفسك فى صحن مكشوف ؛ وعن يمين الداخل يقوم الضريح نفسه ، وهو مؤلف من غرفتين : غرفة انتظار خارجية ، وغرفة داخلية فيها مقصورته وقبره وقد غطى بكلة خضراء . وفى هذه الغرفة الداخلية ألوان من النذور والكتابات المعلقة على الجدران . وليس فيها نقش قديم ولا ما يمكن أن يستدل منه على تاريخ إنشاء القبر . وقد غصت الغرفة بالوافدين والوافدات ولكلٍّ نذره أو نذرها . أما النسوة فنذورهن تدور حول الحمل على وجه التخصيص : فهذه عاقر تلتمس النسل بشفاعة هذا الإمام ، وهذه مئناث ترتجى الذكر . وقد حدثتنى سيدة من علية القوم أنها جربت شفاعة الإمام فتمنت أن يكون المولود ذكراً فكان ، فأعطته اسم الإمام : عبد الرحمن . وبالجملة ، فالضريح وصاحبه يلقيان من المؤمنين كل رعاية واعتقاد خالص واحتفال .

ماذا أنذر، وماذا أرتجى ؟ صعدت إلى الغرفة الداخلية وهى تعاو عن الخارجية بقدر نصف متر أو يزيد ، واستندت إلى الجدار أتأمل فى الضريح وأنظر إلى النسوة المؤمنات القانتات اللواتى أودعن كل تقتهن لنوال مطلوبهن فى الضريح وصاحبه ، وصليت فى داخل نفسى صلاة حارة طويلة ، ودعوت دعاء اهتز له كل كيانى وأحسست بقشعريرة بالغة سرت بعنف فى كل إحساسى .

بأى شىء توجهت إليه فى دعائى ؟

بأمر ، وإن كان يعنيك ويعنينى معك فى الأعماق ، فسيظل سراً بين إمامى الأوزاعى وبين نفسى ، حتى يحدث الله لنا منه أمرا ! !

– ٨ –

إلى سلوى

مع الجنية فى وادى شفريز

انتثرت أوراق القمر فى مخارف الغابة السامقة، وشبحى النحيل تلهث آنفاسه الذابلة من فرط ما بهرنى سحابة اليوم الضحيان من ألوان الفتون .

وكانت تسير إلى جوارى مأساة بشرية من تلك التى يعرفها الناس جيداً فى هذه البلاد : فتاة فى رَيِّق العمر فيها وفرة من جمال وفتنة ، وفيها على ذاك فقر فيما عداهما : فى الثقافة فلم تحصل إلا أولياتها ، لأنها لاتملك ما تستطيع أن تستعين به على الاستمرار فيها وهى آمنة على قوت يومها ، وإلا فهى آية فى حدة الذكاء ؛ وفى عراقة النسب ، فهى لاتنتسب حتى إلى الجنس العادى من الناس ، إنما إلى ذلك الجنس الفريد الشاذ المنتشر فى أنحاء أوروبة ، مكوناً أمة قائمة برأسها بالرغم من اعتزائهم الرسمى إلى هذه أو تلك من الدول الأوروبية ، وهو جنس « النَّوَر » الذى يؤلف مملكة على رأسها ملكة تنتخب كل عام فى كل إقليم . ولئن كانت صاحبتنا هذه لم تعد صريحة النسب إليه – فى مظهرها لأن لهم زياً خاصاً يمتاز بطول الثياب ورداء للرأس من القماش ، أشبه ما يكونون بالاكراد فى بلادك ، يا سلوى ! بحيث لايخطئهم المرء إذا رآهم يخطرون فى طرقات باريس – نعم ، لئن كانت صاحبتنا ليست

منهم فى مظهرها ، لأنها ليست محض النسب فيهم ، إنما تدعى إليهم من ناحية أمها فحسب ، فان عرقهم ينزعها نزعاً كاملا : ففى أعماق روحها ترقد تلك النفس الشاردة الموحشة التى تهفو إلى الجريمة ، وتستعذب العذاب ، ويستهويها الشاذ فى كل مرفق من مرافق الحياة : فيها اضطراب أشبه ما يكون بالنزق ، وفى حركاتها فراهات شيطانية بحيث لا تستطيع الاستقرار عند عمود من أعمدة الرأى فى أمر من الأمور. تجلسين إليها حيناً فتبدهك بلوامع خواطرها ، وتأسفين على أنها لم تحصل من الثقافة قدراً موفوراً ، لأنك تستشفين من ورائها مخايل امتياز روحى لاشك فيه ، ثم لاتلبثين بعد لحظات أن ترتدى عن رأيك فيها ولا تستطيعين أن تكونى على بينة من حقيقتها . وقد يطمئن البرىء إليها فيوطىء لها أكناف ثقته ، لكنه لا يكاد يستنيم إليها لحظة حتى يستروح مناسم الظنة تطوف بكل أحوالها . لهذا طالما حرت فى أمرها : إن أمسكتها على هونٍ تمردت ، وإن أغلظت لها القول غلبتنى شائعة الندم لأنها تستثير من العطف ببقية مواهبها ما يحمل على الرثاء لها .

لهذا كان موقفى منها عجباً حقاً ! لقد عرفتها ذات ليلة وهى تطلب القوت الرخيص باهتزازات سقيمة من بدنها الريان ، فى مرقص هزيل من تلك المراقص العديدة المختنقة الأنفاس فى حى باريس العتيقة الذى حدثتك عنه من قبل . وكان يجذبها إلى هذا الحى ، بما يسوده من روح شرقية خالصة ، ميل غريب يتصل بأعماقها ، مما يدل على أن ثمت واشجة قرابة بين روحها الخاصة ، وبين تلك الروح الشرقية . ولعل معقد الصلة هنا انحدار جنسها الأصيل من بلاد الشرق فى زحف

المغول الهائل على أوروبا الشرقية . فضلا عن أن أمها من إقليم بريتانى فى غرب فرنسا ، والجنس البريتونى جنس كلتى ذو نزعة صوفية حادة وتغلب عليه النوازع الخارقة ، ويحيا دائماً فى عالم جنى على صلة قائمة بالأشباح والعناصر النارية الأولية . وفى هذا كذلك ما يجذبها إلى الروح الشرقية ، والشاهد على هذا أن كثيراً من البريتون Bretons ، أى من انحدروا من إقليم بريتانى فى غرب فرنسا ، لهم رسالة الشرق vocation pour l'Orient أى أنهم يستطيبون روحه ، ويهفون إليها : ويكفينا أن نذكر أسماء : شاتوبريان — والقوم كما تعلمين يحتفلون هذه الأيام بمرور مائة عام على وفاته فى الرابع من شهر تموز (يوليه) ١٨٤٨ — الذى سجل هذه النوازع فى رحلته الرائعة من « باريس إلى القدس » ، ثم إرنست رينان ، وأخيراً — وليس آخراً — أستاذنا ماسينيون ، الذى يرجع أغاب ولعه بالشرق الإسلامى إلى تغلغل الروح البريتونية فى أعماقه ، وهى روح صوفية بينها وبين روح الشرق ماسكة رحم وثيقة .

ففتاتنا هذه كانت إذن ذات آصرة مزدوجة بالروح الشرقية . فلم لا تغرق فى أعماقها بين الأحياء الممثلين لها فى المدينة العالمية الحافلة ، باريس ؟ ! لهذا سرعان ماتبين لى أن عملها فى تلك الأماكن المستشرقة لم يكن بدافع الحاجة المادية وحدها ؛ بل وكذلك بدافع النزعة الروحية ذات الوراثة المزدوجة الكامنة فى زوايا لا شعورها . وآية ذلك كله أنها كانت لا تهفو فى صلاتها لغير الشرقيين ، وتنفر بطبعها من كل ما هو غربى ، وإن لقيت من الشرقى سوء العذاب ، ومن الغربى كل احتفال . ماذا أقول ! لقد شاهدتها بعينى تقبل على الشرقى وهو يجلدها ويسومها

الخسف والإيذاء الشنيع ، وتطوى كشحاً عن معسول الاغراء المتحلب من لسان الغربى وحركاته . شاهدت بعضاً من هؤلاء الشرقيين يضربونها ضرباً مبرحاً حتى شوهوا وجهها الناعم بألوان عديدة من الجروح المثخنة ، حتى أتتنى ذات يوم وعليها دم ناقع تحدر على خديها المستديرين بكل غزارة ، وكان ذلك فى منتصف الليل ، فضمدت لها جراحها ما وسعنى ، وتركتها راقدة ونهضت إلى عملى فى الصباح الباكر بعد أن اتعدنا فى الظهيرة مكاناً للغداء . فأخلفت هى وعدها — على غير عادة — وآويت أنا إلى بيتى ، وفى الطريق وجدتها فى صحبة أولئك الذين أثخنوها بالجراح عشية الأمس ! !

بيد أنها ليست نسيج وحدها فى هذا ؛ بل كثيرات هن أولئك الباريسيات اللواتى يشبهنها فى هذا كل الشبه : كلهن لا يستهوينهن إلا أولئك الذين ينزعهم عرق الشرق على أية صورة . وإن فتشت عنهن وجدت أن ثمت عاملا فعالا فى هذا ينتسب إلى الوراثة والعنصر : فهن إما مولدات مباشرة من أب فرنسى أو أم فرنسية ، وآخر من جنسية شرقية أو غربية مثل السنغاليين وأبناء المرتنيك وجزيرة موريس والانتيل ، وإما ينحدرن من أصلاب النورومن إليهم ، وقد يواكب هذا انتساب إلى الجنس البريتونى والكلتى عامة .

وأنت تعلمين ميلى العنيف إلى هذا النوع من الطبائع الشاذة التى تصطلح عليها أضداد من العناصر والوراثات . وما أخصب باريس فى هذا النوع ، خصوصاً بين من يسكنون الشاطىء الأيسر فى القسم الخامس وما يضرب حواليه ! لهذا سرعان ما أقبلت على فتاتنا الراقصة تلك ، طمعاً فى استكشاف هذا العالم النفسى الممتاز .

عرفتها فى المدينة ، وللمدينة ؛ خصوصاً إن صارت مدينة عالمية مثل باريس ، عواملها المحددة فى تكوين النفسية ، وأنا أريد إسقاط هذه العوامل لتتخلص لى روحها بكل معقدها النفسى الفريد ، فأخذتها معى إلى أرباض باريس . وما أروع أرباض باريس ! ! إنها أجمل عندى ألف مرة من باريس بغاباتها ومخارفها وطرقاتها الفسيحة وحدائقها من التويلرى حتى بستان مونصو . وحارت نفسى فى الخيار بين هذه المفاتن الزاهية كلها ، ثم استقرت عند ضاحية تدعى شفريز Chevreuse يستقل لها قطار خط الأختــام ligne de Sceaux أمام حديقة اللكسمبور ، وتبعد ٣٢ كيلومتراً من باريس .

كانت الساعة ساعة المغيب بعد نهار قائظ فى شهر أيلول (سبتمبر) وكان الطلاب عائدين إلى مساكنهم فى المدينة الجامعية و قد ودع كل رفيقته بقبــلات حارة ما أرخصها فى باريس حتى كادت تفقد كل معناها ولا تفترق فى شىء عن المصافحة باليد أو الإشارة بالسلام ، قبلات تبودلت من باب اللكسمبور و طوال شارع القديس ميشيل و فى مداخل المحطة . وكان الجو فى ذلك المكان يعبق بأنواع من الروائح أندرها الروائح العطرية النسوية الصناعية ، وأغلبها الروائح ــ العطرية ؟ نعم ، بل فى أنوف بعض الناس : العطرية جداً ــ النسوية الطبيعية ! !

ونزلنا فى سان ريمى لاشفريز St. Remy-Les-Chevreuse و منها ركبنا الحافلة التى اقتادتنا إلى شفريز .

كان القمر بدراً أو ما يشبه البدر . فأنى لى بالنوم والليل ساج والغاب موحش ، والقنوات أنيقة تصاعد منها روائح طحلبية تبث

فى كيانى عنصر النبات ، هذا العنصر الذى أميل فى أعماق إليه ، وطالما فضلته على عنصر الحيوان ! لهذا ما فرغنا من العشاء حتى اندفعنا نطلب النور الظليل فى أحضان الوادى ، وكانت شفريز المدينة ساكنة لولا موسيقى فرقة المطافىء تعزف فى نديها على عادتها مرة فى كل أسبوع . ويممنا شطر القصر العتيق ، قصر دوقة شفريز التى كان لها ما كان من أحوال عنيفة مع ملوك فرنسا فى القرن السابع عشر ، حتى دمر قصرها أو كاد لويس الرابع عشر . الطريق لولبى يخترق الغابة التى تفصل بين القرية والقصر فى جهد وعنف . والأشعة الفضية تعاور الأشجار الباسقة ، فحيناً تزاور عن القصر ذات اليمين ، وحيناً آخر تقرضه ذات الشمال ، فيتلاعب هذا كله بالنفس فتنثال فيها خواطر عذاب . فلما أعيانا السير — ولما نبلغ القصر — رقدنا على ثلة من العشب الكثيف ، وسألتها الانشاد فراحت تسوق أغانى شعبية — أعنى شائعة عصرية — فوجدتها فى غير مجالها ، ورحت أنا ألقى على مسامعها قصائد من محفوظى الكثير ، ثم أرعت سمعها خصوصاً إلى إنشادى قصيدة « بيت الراعى » لألفرد دفنى ، واستهواها منها خصوصاً هذه الأبيات : « وأنت أيتها الغادية الرخية ، أولا تودين أن تحملى على منكبى واضعة عليهما جبينك » ! فظلت تستعيد هذه الفقرة مراراً — نعم ! ولم لا تفعل هذا وأكثر ما ترجوه أن تكون دائماً غادية مسافرة تذرع البلاد ، شأن جنسها الشارد ! ومع ذلك فالمدينة تدعوها كيما يستقر جبينها على منكب يحمل عنها عبء تلك الحياة . فهذا التعارض بين الترحل وبين الاخلاد إلى منكب إنسانى ، هو الرمز الحى لحالها ،

أو المعادلة الكيميائية لمركبها النفسى المعقد الغريب . وكأنها شعرت فى تلك اللحظة بهذا الصليب القاسى الذى تحمله دائماً على روحها، فاندفعت الدموع الحارة الغزار من مقلتيها الواسعتين فى خدها الناعم المتورد . هناك غشيني استسلام هائل ، سترنا معاً وأظلنا بجناحين من التفكير والحلم ، فلم نفق إلا وقد تبلج الفجر من خلال الطريق الضيق فى الغابة ، فعدنا أدراجنا إلى الفندق ، ورقدنا حتى الصباح الضاحى .

وفى ضحوة الغد عدنا نتلمس الطريق إلى القصر لنستشرف إلى هذا الوادى الراقد تحت الشمس القوية فى استسلام لذيذ .

وقصر المادلين Madeleine هذا كما يسمونه لم يعد باقياً منه اليوم سوى أطلال يمكن أن تنقسم ثلاثة أقسام : الصحن ، والبرجان ، وجناح راسين . أما البرجان فيحتوى كل منهما على غرف مستديرة بعضها فوق بعض ، ثم يشرف المرء من فوقه على الوادى كله ، وقد أمضيت فوقه وقتاً طويلا مستمتعاً بما يهيء للعين من متعة زاهية تمتد على مدى البصر .

أما جناح راسين فيعيد إلى الذاكرة تلك الأيام الناعمة الخصبة التى قضاها ذلك الشاعر الرقيق الاحساس المشبوب العاطفة الدينية ، ذو الطلاوة اللفظية التى ترن فى الأذن كأنها أنغام روسينى Rossini : نفس طويل ، وإيقاع ناعم ، وصوت بلورى . وما أشبهه فى هذا بملتن Milton ! أترى للأناشيد الطقوسية Chants Liturgiques هذا التأثير العميق فى الشعر بحيث أنتجت لديهما ، وفى النثر لدى شاتوبريان ورينان ، هذا السحر اللفظى الخارق ؟ وهل بدأ إعجابى الحار بالشعر الفرنسى إلا يوم

هدهدت مسامعي الطفلة – لقد كنت في الخامسة عشرة – ألحان مسرحية «أتاليا» Athalie ؟؛ لهذا سرعان ماانثالت على أطياف الذكرى لريق الشباب لما أن كنت مأخوذاً بموسيقى شعر راسين . فدخلت الغرفة التى ظل يقطنها عهداً طويلا فى هذا القصر وفى ذهنى كل هذه الذكريات ، ونفسى عامرة بأنغامه . والغرفة – كما أنبأنى الحارس – لاتزال على حالها ، إلا فى أثاثها طبعاً ، كما كانت فى أيام راسين ، لكن يحلو لهذا الحارس وزوجه العجوز أن يسكناها بعض السكنى !

وخرجت من حرم القصر مقتفياً آثار راسين ، فوجدت قبالتى ذلك الطريق الطويل الذى كان يقطعه راسين كل يوم غادياً إلى دير بورروايال أو عائداً إليه فى المساء – بعد أن يكون قد أخذ زاده العميق من التقوى والثقافة والقداسة التى تشع من ذلك الدير العتيق الذى طالما أفاض القداسة والعلم ، فأخرج للناس راسين وبسكال وبوالو ، وأضاء فى سمائه أرنو ونيقول ولا نصلو ، أعلام الزهد والعلم فيه . وربما عدت فقصصت عليك طرفاً من أنبائه وما فعلت به الأيام .

الطريق يبدأ من القصر ويطلقون عليه اسم « طريق راسين » Chemin de Racine وينتهى إلى دير بورروايال المتداعى ، وعندبدايته لوحة عليها أربعة أبيات من شعر راسين يمجد فيها هذا الوادى والجبال فقال : « ما أبهج نفسى فى هذا الإقليم بين هذه الجبال ! » والحق أن المنظر من هذه الرابية التى ترتفع عن القرية بما يقرب من ثمانين متراً يأخذ باللب حقاً : فها هو ذا قصر دانبيير Dampière يرف فى رؤيا الخيال الناعس عند حافة الأفق . ونهير الايفت Yvette التى ترقد

شفريز على ضفته اليسرى ينساب كالحية الرقطاء فى الوادى الزاهى ، والكنيسة التى طال تجديدها — وبناؤه الأول يرجع إلى القرون الثانى عشر والرابع عشر والخامس عشر — تبرز بجلال بيت ناقوسها بين تلك البيوت العتيقة ، والضاحية كلها — شفريز — متلفعة بالغابات المحيطة بها ، ومن حولها سهول خصبة أينعت وتطاول نبتها ، وراح المحراث ينقب عن دفائن كنوزها ، وأهلها — ولا يتجاوزون ألفاً وثمانمائة رجل وامرأة — فيهم دماثة واحتجاز .

سرنا بين الغابات فأطلنا السير ، وسالت بأعناق أحاديثنا تلك الأباطح الفاتنة ، واستروحنا أنسام الطبيعة والتاريخ فى كل موضع حللناه فى هذا الوادى .

حقاً لقد قضيت وقتاً عامراً بألوان شتى من الإحساس الغريبة المتناقضة ، ولا عجب فقد كنت مع جنية فى واد يزخر بالأطياف الشيطانية . ولعل فى هذا ما يشيع الطمأنينة فى نفسك ؛ فلم تكن صلتى بها إلا ما تكون صلة إنسى بجنية !!

— ٩ —

من سلوى

نداء الجنية فى وادى العرائش

غالِ ماشئت فى وادى شفريز ، وانعم ما طاب لك بجنياتك.
فما أحسبك تقصد إلى المقارنة والمفاضلة بينه وبين أوديتنا الفاتنة.

وإلا ، فهل نسيت وادى العرائش الذى ترقد زحلة بين ساقيه ؟
وهل نسيت تلك الجنية اللعوب ذات العينين الخضراوين وما كان لك فيه معها من مغامرات ؟

أنسيت الينبوع الوحشى الساحر الذى ينطلق من أعلى «صنّين» فى صرخة رائعة تنساب بين أمواه نهر البردونى ؟

ألقى القيظ اللاهب مراسيه على وجنتى الوادى، فتلألأت الحمرة الزاهية على مدارج المنازل وهى تنحدر فى وعورة إلى بطن النهر كيما تغتسل وتتبرّد فى سيله الدافق . وأشجار الصفصاف والسرو قد عجت فيها النضرة الوثابة ، وتفتحت الأزهار عن فيض من الألوان .

أوغِلْ فى الوادى اللصيق برفق ، ودع القوم عن يمين وشمال يصخبوا فى تجاوب ناشز مع اصطفاق الماء المندفع ، ويخففوا من وقع الحمال الوحشى بما يلهون به من ثرثرة يعللون بفقاعاتها حلوقهم التى جففها شراب « العرق » الشاحب الهزيل .

نثار من الثلج يرف فوق الذرى الشاهقة ، والتراب اللازوردى يكسو السفح الرهيب ، والأكار يزجى الأتان فى الطريق الوعر المتصاعد على حفافى الغور ، والصخور النائية الداكنة تحلق فوق الهضاب الشامخة ، والسيل الجارف يتقبض بين المنعرجات ، وفوهة الينبوع تنبثق فى الأعالى من حيث لا أين .

تعال إلىّ ، يا حبيبى ، لنتفيأ ظلال عريشة الكرم فى ذلك المقهى المهجور : فهنا الوحدة التى نتمناها ، وهنا السيل فائر ثائر ، وما عهدتك إلا مؤثراً للثورة والفوران .

ضم صدرك إلى نهدىّ ، وضع رأسك الواهن على كتفىّ ، وتشرّب رحيق الحياة من شفتىّ !

بربك هل اطلعت على أسرار الوجود فى غير نظراتى ؟ وهل أحسست بقشعريرة الوجد إلا فى لمساتى ؟ وهل تهدجت أنفاسك إلا من نفث زفراتى ؟

أناملك بين أناملى جمرات يكسوهن حرير ، وخدى على خدك ورد فاغم العبير ، ودموعى من فرط حيائى أنداء العشق الغرير .

بيسراك اهتصر غصنى الأملود ، وببنانك اعبث بشعرى الجفال الممدود ، وبأطراف يمناك الشاردة تنقل بين النهود والخدود فى غير قيود ولا حدود .

أنا جنية ، وإن كنت أرتاع من الأشباح . حملت بى أمى سفاحاً من روح من تلك الأرواح الشاردة فى هذه الجبال الموحشة ذات مساء عاصف الأرياح — أمى ، وويلى علىّ من أمى : غلبها الضباب الكثيف والمطر ينهمل كالسيل ، والشعب المنحدر من القرية ، قريتها ، إلى قرية

أهلها يلتوى وتمحى معالمه ولا يضيؤه غير البرق المتقطع ، وأشجار الزيتون تتوالى مخارفها فى زرقة كابية جللها الزمان بالهرم العتيق والشيب ذى البريق ، والحور السامق ينتصب أمامها رهيب السواد فيزيد خواطرها كآبة ومهابة . هنا لك استولى عليها ، على روح أمى ، عفريت من الجن ، ولات حين مناص وخلاص . قل إنه الوهم الرهيب ، من غير شك ، لكن سواء عليه أكان وهماً أم حقيقة فى تلك الحال ، فان أثره فى كليهما واحد ؛ والعبرة هاهنا بالتأثير الناتج ، لا بحقيقة العلة المنتجة .

أمى ، وويلى علىّ من أمى !

لم تدر أنه كان عليها أن تتجنب أبى حتى تبرأ من عفريتها هذا . لكنها ما بلغت قريته حتى ارتمت بين أحضانه على أمل أن يؤمّن روعتها ، ويرد إلى النفس دعتها . لا تسألنى بعد عما حدث ، ولكن الشيء الثابت هو أنها حملت بى فى تلك الليلة الليلاء وظنت أنها إنما حملت بى من أبى ، وهى فى الحق لم تحمل إلا من ذلك الجنى الخبيث ، لأنه لم يكن فى مخيلتها فى تلك الساعة الرهيبة غيره . فجئت صورة لأبى الحقيقى ، لا لأبى الشرعى .

فأنا جنية الروح ، لا جنية الدم . وهل توجد حقاً هذه الأخيرة ؟ إن هى إلا من إبداع خيال العجائز المربيات وهن يرهبن الأطفال أو يهدهدنهم ! أما جنية الروح فهى الجنية حقاً .

فتعال إذن إلى جنيتك الحبيبة ، فقلبها تفتت من طول البعاد !

— ١٠ —

إلى سلوى

في هيكل رودان

من القصور المجللة بالظلمة الكابية من دخان المصانع ، إلى القصر المتلألىء بالنور : نور الشمس ونور الفن ونور الأزهار .

قبة الانفاليد Invalides تستضحي للشمس الزاهية ، فيرف طلاؤها الذهبي الموشى بالسمرة كأنها رأس زنجية تجلل بالحلى البراق . تحتها يرقد جثمان عظيم ، لكن مهما تبلغ عظمته فلن تساوى شيئاً بازاء تلك العظمة الأخرى التى أودعت سرها فى ذلك الهيكل الجاثم إلى جوار تلك القبة كأنه قزم صاغر أمام عملاق جبار : لكنها ضخامة لن تغنى شيئاً فى تقويم الروح . أحدهما ، وهو نابليون ، قد بهر الدنيا بمجد زائف زيف ألوان تلك القبة ، أما الآخر فسيبهر من دون أن يظهر ، لأنه ينبع من الأعماق الأولى ، ويصدر عن السر الأول ، سر الخلق . يد الأول قد ضغطت على بقعة من التراب ، فلم تستطع إلا أن تعدل خطوطاً وتغير حدوداً صناعية . أما يد الآخر ، رودان ، فقد أمسكت بقطعة من الطين فنفخت فيها من روحها فاستحالت كتلة عامرة بالحياة : فقصارى أمر الأول أنه طفل كبير أخذ الكرة الأرضية بين يديه ورسم عليها رسوماً كرسوم الأطفال ، لا تتجاوز خطوطاً عابثة لم تقدرها

الطبيعة ، بينما الآخر كان فناناً صناعاً صور الطين وفقاً لناموس الحياة وعملا بتصميم السر الأكبر للخلق . لهذا كان عمل الأول مصيره إلى الفناء ، هو وأضرابه من منشئى الامبراطوريات ، مهما يطل أجلها. أما عمل رودان وأصحابه من أهل الفن فمصيره إلى الخلود ، لأنه قَسمة من الحياة ، والحياة دائماً فى حياة .

انصرفت إذن عن الأنفاليد بمجده الزائف وما فيه من معارض تنشأ لأولئك الذين عبثوا بالحدود بين الأمم فظنوا أنهم أبدعوا شيئاً . وزادنى سخطاً عليه فى ذلك اليوم أن كان فيه احتفال بجنازة واحد من أولئك ، فهرولت مسرعاً إلى ناحية الجنوب حيث شارع فارن Varenne تعتصم بزاويته كعبة الفن الرفيع .

هذه الكعبة هى قصر بيرون Hôtel Biron الذى شيده المعماران جبريل وأوبير Gabriel et Aubert ؛ ويقوم فى حديقة غناء واسعة الأرجاء ، وعند مدخله عن يمين الداخل كنيسة ألحقت بالقصر لما أن أقامت به « أخوات قلب يسوع الأقدس» ، ثم اضطررن إلى تركه فى سنة ١٩٠٤ ، فاستحال إلى قصر عام يمكن من شاء أن يسكن فيه ، بعد أن قضت قوانين الفصل بين الكنيسة والدولة أن يقوم على إدارته مدير قضائى .

من ذا الذى دل رودان على هذا القصر الرائع ؟ — إنه صديقه الشاعر رلكه Rilke. ذلك أن زوج رلكه ، كلارا ، كانت قد استأجرت شقة من هذا القصر ، ثم سافرت إلى إقليم هانوفر وخلفت الشقة لزوجها الذى وجد فى القصر غاية ما يرجوه ، فأقام به منذ أواخر شهر آب (أغسطس) فى الشقة الفسيحة المركزية فى الطابق السفلى ، ثم استأجر

لنفسه غرفة دائرية فى الطابق الأول . أعجب رلكه بالقصر ، وسرعان ما أعلن إعجابه هذا إلى صديقه رودان Rodin فكتب إليه فى ٣١–٨ سنة ١٩٠٨ يقول : « عليك ، أيها الصديق العزيز ، أن ترى هذا البناء الجميل والقاعة التى أقطنها منذ هذا الصباح . إن كواها الثلاث لتطل بروعة على بستان مهمل ، فيه يرى المرء بين الحين والحين الأرانب الساذجة تتواثب من خلال الأسوار القضبانية وكأنها فى سجادة عتيقة » . أما رلكه فقد أقبل على عمله بنشاط ، مكبا على الطاولة من الزان التى أهداها إليه رودان ، فكانت « بمثابة سهل واسع خصيب سأرتب عليه مخطوطاتى كأنها القرى » المتناثرة فى بساط هذا السهل . وكان من بين هذه المخطوطات العديدة التى بدأها ثم تخلى عنها حيناً طويلا ، مخطوطة رائعته الكبرى ، « صحائف ما لتى لوردز برجه » التى سيقص فيها قصة شاعر شاب دانيمركى يسجل ، على هيئة يوميات ، همومه ويأسه ورجاءه وما يختلج فى صدره من أحساس ومشاعر وهو فى غرفته بأحد فنادق الحى اللاتينى فى باريس ، فتتراءى صور مضطربة لهذه المدينة الهرمة التى تشيع فى أركانها رائحة الموت كأنه شبح دائم التجوال فى طرقاتها ومن خلال غرفها وشرفاتها . والفتى الحالم ، المغمور بأشباح دنياه الشمالية العامرة بأرواح الساجا وعرش فوتان ، يمتلىء فزعاً من هذا العالم الغريب على نفسه الذى لقيه فى باريس ، وتختلط فى نفسه المضطربة ذكريات أجداده الأمجاد مع هذه الصور المريعة التى تمثلها المدينة العالمية . ولعل الشعور بالجزع الكونى الذى تستشعره النفس القاطنة فى المدينة العالمية الهرمة لم يوصف ببراعة مثل تلك التى تتجلى فى يوميات

هذا الشارد الشمالى الذى انطلق من تلافيف الغيوم إلى الشمس الباهرة فى مدينة النور فاستروح بَوَاده الجزع الموحى الأصيل: وفى صورة هذا الفتى وجد رينر ماريا رلكه نفسه القلقة التى سرعان ما نفرت من باريس لما أن رأتها لأول مرة . ماذا أقول ؟ بل استمر على نفوره منها طوال حياته القصيرة بالرغم من الجاذبية الهائلة التى كانت لباريس فى نفسه . وهذا هو سر باريس الغامض : بقدر ما تفر منها تنجذب إليها . وإنى لأشهد هذا عن نفسى ، أى سلوى ! فأنت ترين فى رسائلى إليك ما يفيض بالقلق والجزع من تلك المدينة المليئة بالأسرار والتهاويل الضاربة فى أعماق الأسطورة ، بالرغم من مظهرها السطحى الزائف الذى يبهر وحده جل الوافدين إليها . لهذا فأنا أقبل عليها بقدر ما أشعر بالنفور منها .

ولم يكد رودان يرى هذا القصر حتى أعجب به فانتقل إليه فى الثانى عشر من أيلول (سبتمبر) من العام نفسه (سنة ١٩٠٨) . فاستطاع الشاعر والمثال أن يستأنفا الحياة معاً ، بعد أن قضت فترة جفاء بينهما أن ينفصلا فى ربيع سنة ١٩٠٦ — جفاء عابر ما هو إلا استجابة لنزوة طارئة أصابت رأس رودان فغضب على صديقه الذى أقام لديه فترة تبلغ خمسة أشهر أو يزيد فى مقامه بضاحية ميدون كاتباً له يعنى بأمر مراسلاته . ومن هذه اللحظة التى أقام فيها رودان بقصر بيرون ، كان مصيره أن يرتبط بهذا القصر الذى أصبح اليوم متحف رودان .

أجل! إن مرسمه الأصلى فى ضاحية ميدون **Meudon** لايزال له كل

جلاله ، وهو يرف من فوق الرابية الشامخة فى غابات ميدون الرائعة كأنه قصر من البلور بجدرانه الزجاجية المغمورة فى فيض من النور . لهذا لم أجد نفسى فى حل من زيارة هذا المرسم حتى تكتمل فى ذهنى الصورة عن هذا المبدع الأكبر . فارتحلت ذات يوم اشتد قيظه إلى تلك الضاحية برفقة صديقين كان أحدهما المزاح كله . وسلكت طريقى إليه بين بيوت ريفية أنيقة صغيرة تسلقتها أغصان الجهنمية والورود ، وعمرت بساتينها بالأزهار الزاهية الخارقة الألوان ، ثم صرت إلى حرم ذاك المرسم ، فاستقبلنا نباح كلاب تبدو فيها الضراوة ، فتركنا لصديقنا المازح أمر تدبيرها ، فله فى هذه المواقف براعة مشهودة ! ! ثم دخلنا قبالة المرسم الزاهى حيث استقبلنى تمثال المفكر يدعونى إلى التأمل والخشوع ، فأنا داخل حرم الفن المقدس . هنا فى هذا الحرم سأستطلع طِلْع رودان وهو يعمل ، سأرى كيف كان يرسم مجملاته esquisses ثم ينقلها إلى الطين ، هذا الحمأ المسنون ، فتستحيل كائنات حية صغيرة من الجبس الناصع ، هى الأجنة الناعمة الخارجة من رحم هذه اليد الصناع . هنا تفرشك هذه المثولات والنماذج ما أضمرت من أسرار فنية . فتكاد تحس فى هذا المرسم بأنك تقلق الفنان بفضولك الزائف ، شأنك شأن من يقف عند كتف الفنان وهو يكتب أو يرسم ، أو يترصد من زاوية كيف يبدع المبدع آثاره . لهذا استولى علىّ ، وأنا فى داخل المرسم ، شعور انتهاك الحرمة والفضول المقتحم المتهجم ، حتى كدت أستشعر وخز الخطيئة فى أعماق نفسى ، فلم أستطع المكث طويلا وعدت أدراجى إلى باريس ، ألتمس الكفارة على مذبح الهيكل ، الهيكل الذى يدعى متحف رودان فى زاوية شارع فارن Varenne .

هنا الفنان قدم إليك آثاره فى صورتها النهائية ، فلا انتهاك لسر ولا شعور بعدئذ بوخز خطيئة . ادخل عن يمين حيث الكنيسة القديمة تؤوى طائفة من النماذج الجبسية والأصول الأولية لبعض آثاره . هنا ستجد خصوصاً النموذج لتمثال أعيان كاليه Calais الذى صنعه رودان إرضاء لرغبة مدينة كاليه حينما أرادت فى سنة ١٨٨٤ أن تخلد ذكرى أوستاش دى سان بيير Eustache de Saint-Pierre الذى كان مثال الشجاعة والوطنية والتهذيب الخلقى ، فوكلت إلى رودان أمر هذا التمثال . فأقبل على العمل تحدوه الرغبة فى أن يصنع تمثالا ضخماً يتحدى به القدرة المعمارية والنحتية معاً . وكان قد قرأ فى أخبار القرن الرابع عشر مغامرة ستة من أعيان مدينة كاليه شاءوا أن يقدموا حياتهم لملك إنجلترة فـداء لمدينتهم المحاصرة من النهب والدمار . فرأى ببصيرته أن هؤلاء الستة يكونون مجموعة لاتنفصم عراها ، فمن الظلم أن تفرد لأحدهم وحده مكانة خاصة ، فينحت له وحده التمثال ؛ وليتكلف التمثال من الجهود والوقت والمال ما يتكلف ، فنبل العمل يقتضى نبل البذل . ومن أجل هذا درس الأجسام العارية وفقاً لنماذج حية ، ثم كسا هذه الأجسام بالقميص الخاص بالمحكوم عليهم بالاعدام. وتلك كانت طريقة رودان: أن يبدأ بالعارى ، ثم يكسوه. ثم وضع الأجسام الستة على مستوى واحد على نظام من السير ، وهم فى الطريق إلى حتفهم . ولم يشأ رودان أن يضع هذه المجموعة على قاعدة، بل رغب أن تكون فى مستوى الأرض وفى قلب المدينة ، حتى يختلطوا بأهلها ، وكأنهم منها . أليسوا فلذة كبدها ، وبُضعة من لحمها الحار الحى ! وكان ذلك بدعة هائلة سرعان

ما صرخ فى وجهها النقاد التقليديون ، فطلبوا منه أن يعدل مشروعه ، فأصر عليه ، وأصر كذلك على أن يأخذ تمثاله صورة تكعيبية ، لا هرمية ، فان الصورة الهرمية « هى ، كما قال رودان فى كتابه إلى عمدة كاليه ، صورة عفى عليها الزمان فى نحت التقليديين . أما المكعب فيعطى تعبيراً ، بينما المخروط هو التكأة الرخيصة التى يلجأ إليها التلاميذ المتقدمون لمسابقة جائزة روما . . وأنا الخصم اللدود لهذا الفن المسرحى » .

فى هذه المجموعة تبدهك التعبيرات المرتسمة على وجوه هؤلاء الأعيان الستة وفى حركات قاماتهم وأيديهم . فيهم عزم على الموت فى إذعان مستبشر بحسن العاقبة وجلالة التضحية ، وفى شفاه أولهم عن يمين تصميم وقوة إرادة يؤازر على إحداث أثرهما قبضتا يديه ، وفى قسمات أوستاش سمو ساج ينبع من صدق الإيمان العميق . التأثر القوى باد على وجوه الجميع ، لكن ليس فيه صراخ : ومشكلة اللاوكون Laocoon المشهورة تجد هنا حلا رائعاً فيه مزيج من الألم الجارح والهدوء المذعن . حقاً لن تجد فى هذه المجموعة ذلك السجو الخالد الذى تراه فى النحت المصرى ، وكما يقتضيه النقاد عامة فى النحت بوصفه الفن السكونى . لكن يجب مع ذلك أن يقال إن رودان لم يسىء استخدام العواطف الجامحة بشكل ظاهر أو مستشبع ، والطابع الحركى الديناميكى الذى يتمثل بكل قوة فى كل ما أخرجته يد هذا الفنان التأثرى impressioniste لا يجافى كثيراً الروح الأصيلة أو الظاهرة الأولية لفن النحت . فلا يسرفن أحد فى الانحاء على رودان باللائمة فى هذا الباب ، وإن كان الفن المعاصر يحاول كثيراً أن ينأى جانباً عن التأثر برودان.

والطابع الباروكى كذلك ليس ظاهراً فى هذه المجموعة التى كان يخشى عليها تماماً أن تنحدر إلى باروكية ميكلنجلو Michelangelo فى تمثال « موسى »، وإن كان ثمت مشابهة لاتنكر بين فن رودان هنا وبين فن ذلك النحات الإيطالى الأكبر. ثم فى هذه المجموعة كذلك وحدة، وحدة حقيقية باطنة لا ظاهرة، تنبع من وحدة الفكرة التى سعى لتحقيقها أولئك الأعيان الستة، بل هى وحدة ناشئة كما يقول رودان « من البساطة. والبساطة فى الفن معناها الانسجام، فالبساطة تحدد العناصر الجوهرية. لكن ليس معناها الفقر، بل بالعكس، فان التبسيط لايتم إلا بدقة الملامح، فالبساطة إذن تنتج عن الحقيقة ». وقد فكر رودان — بعد أن تم وضع التمثال — فى زيادة هذه الوحدة فى المجموعة وتوكيدها وذلك بأن يضع تمثال كُلٍ فى مخلاة، لا أن يجعله يرتدى قميصاً. « فالمخلاة أجمل، وفيها زيادة فى توحيد المستويات، فيزداد مجموعها تماسكاً. ولكنى لم أتجاسر ». فبودنا أن نرى مثالا يحاول اليوم أن يحقق أمنية رودان هذه لنرى ما عسى أن يكون أثر هذا التجديد الخارق.

ورودان إنما رمز فى كل صورة من هذه الصور التجسيمية الست إلى معنى خالد يستشفه المرء تفصيلا بعد أن يستكشف المعنى الرمزى الواحد للمجموعة كلها. والتعبيرات التأثرية البادية على الوجوه ليست طارئة، بل فيها الخلود الذى يقتضيه دائماً فن النحت شرطاً أساسياً لوجوده. فرودان، كما قال عنه رلكه، كان حينما « يبدع صورة فكأنه ينشد الخلود فى الوجه المقصود تمثيله، ينشد ذلك الجانب من الخلود الذى به يشارك هذا الوجه فى التيار العظيم للأشياء الخالدة ». وهو

لهذا كان يسعى إلى تصوير الأشخاص من باطن ، أعنى أن يستشعر فى نفسه تجربتهم الروحية العميقة ، ثم ينفخ فى الطين من روح تلك التجربة ، فيستحيل إلى تمثال عامر بالحياة العضوية ، الحياة التى يرى تيارها الخالد أبداً . وبهذا المعنى يجب أن نفهم كل ما فعله رودان فى باب تمثيل الأشخاص portraits، هذا القسم من النحت الذى قد يوهم المرء أنه يخرج على الظاهرة الأولية لهذا الفن ، برسمه العابر ، أعنى الشخص الفانى . وهذا الوهم إن صدق بالنسبة إلى النحاتين من الطراز الثانى والثالث ، فلا يصدق بالنسبة إلى رودان وأضرابه من فنانى الطراز الأول . فهو فى تمثال فكتور هيجو قد شاء أن يصور بالتجسيم فيض العبقرية الشعرية حينما تصبح صوتاً من البلور الرنان . وفى تمثال بلزاك –القائم إلى جوارى فى شارع رسباى قبيل التقائه بشارع مونبارناس– نرى صورة القصاص الخالق لعوالم إنسانية كلها تفيض بالحياة الضخمة ، ولو أنه لم يتم هذا التمثال الأخير ، الذى فيه حاول كذلك أن يتجه إلى النحت ذى الحجر الواحد ، فجاء قطعة واحدة من الصخر الصلد ، كما كانت عبقرية بلزاك صخرة صلدة تحمل كل أعباء . وهو أيضاً فى التماثيل العديدة التى صنعها صوراً لأشخاص – مثل الرسام بوفى دى شفان Puvis de Chavannes أو مسز سمبسون أو برنرد شو أو كليمنصو – قد رغب فى أن يجسد الحجر أو المرمر أو البرونز المعنى الأعلى الذى يمثله كلٌّ .

ويلوح أن سر الجسد كان له على رودان تأثير غريب ! فهذا الأثر هو أشد ما يبقى فى نفسك حينما تزور القسم الرئيسى من المتحف وهو القائم فى القصر نفسه ، فتتوالى أمامك مواكب من أسرار الجسد

والشهوة أطلق فيها رودان لقدرته الفنية كل مجراها . ها هو ذا تمثال « الصنم الخالد » (سنة ١٨٨٩) ، يصور لك امرأة واقفة ورجلا راكعاً جاثياً على ركبتيه يقبل بعنفٍ مركز الاشعاع الجسدى فى المرأة ، أعنى صرتها ! هنا عرامة الشهوة فى الرجل تتعارض واستسلام المرأة الرخى فى شعور بالاذلال لهذا العابد النهم ، حتى إنك لترى السيادة للمرأة برغم ما يبدو على وجهها من استسلام زائف ، والاستعباد لهذا الغرثان ؛ وفى تثنيات بدنه تعبير هائل عن قوة الشهوة المتضرمة فى خلايا بدنه الصلب . وأشباه من هذه الأحساس تعروك حينما ترى «الحب وبسيشيه» (سنة ١٨٨٦) و « القبلة » (سنة ١٨٨٦) ، و « الربيع الخالد » (سنة ١٨٨٤) ، وما إليها .

ويشهد الله أنى ما تمنيت شيئاً فى اللحظة التى كنت فيها قبالة هذه التماثيل الأخيرة إلا أن تكونى إلى جوارى يا سلوى ، فتتذوقى معى جمال هذه الآثار الرائعة ، التى لايقدرها حق قدرها إلا من كانت نفسه عامرة بالاحساس والعواطف الملتهبة التى تجمع أمثالها بين كلينا ! فهل تتحقق هذه الأمنية الجميلة الأثيرة لدىَّ فوق كل الأمانى ، أمنية أن نلتقى هنا معاً ، ونقف طويلا حالمين أمام هذه الروائع الحية التى خلقها ذلك الخالق الآخر ، أوجيست رودان Rodin !

— ١١ —

إلى سلوى

صلوات أمام فينوس ميلو فى اللوفر

« مثل الجمال مثل الألوهية : بضعة منه هى بمثابة الجمال كله »

هذه الفكرة الرائعة التى امتثلها رودان هى التى قادتنى صباح يوم عامر بالضباب والأمطار إلى حدائق التويلرى ، ثم إلى متحف اللوفر حيث ذلك التمثال الخالد ، « فينوس ميلو » ، يحج إليه من أقاصى الدنيا أولئك الذين ينشدون صورة الجمال بالذات ، فيأتون هنا يلقون عن قلوبهم أعباء زفرات تنشق من أعماق المعنى المغلف بسر الحياة ، أو يطهرون ألواناً من الاحساس والشهوة رانت عليها أبخرة الجسد فى ليالى التجديف الحيوانى بقداسة الجنس .

لقد اكتشف هذه الرائعة الفنية العليا فلاّح يونانى كان يفلح أرضه فى جزيرة ميلو من جزر يونان ، فأدى هذا الجلف الجاهل خدمة جلى لم يأت بمثلها أولئك السادة الأكاديميون الذين ملأوا الأضابير رجماً بالظن . وانتفخت أوداجهم زهواً لأنهم اكتشفوا — ويا ويح الناس مما اكتشفوا ! — كوزاً مكسوراً من الطين كان يعبث به طفل فى عهد من شئت من الملوك والأمراء ! فيلوح أن الحظ يريد أن يعبث بغرورهم الزائف هذا عبثاً منكراً مريعاً ، فيقدم لهم أحوالا من نوع تلك

الحال ، أو كما حدث فى بلادنا نحن : فخير ما اكتشف فى مدينة الاسكندرية من العهد الرومانى هو تلك المقبرة الرومانية التى «اكتشفها» حوذى بسيط كان يعمل فى نقل الأحجار ! فهل لعلماء الآثار أن يطامنوا من كبريائهم الرخيص البغيض ؟

لكن دعنا من هذا التماحك ، فقد بلغنا حضرة فينوس ، وعندها كما عند عرش الله يختفى كل نزاع وشقاق ، وينعم الكل بذلك السجوّ الخالد الذى يطوف بحضرة القدس .

وقفت خاشعاً ، ولولا خوف الناس — ولا يزال عندى هذا الاحتجاز الذى طالما ألِفْتِهِ فىّ يا سلواى ! — لجثوت على ركبتى ! ! ثم انقطع لسانى لأنى استحلت إلى زفرة كاملة استعجمت نبراتها فى نفسى ، فانثال القول ، فاستعنت على الصلاة بهذه المناجيات الحارة التى بثها رودان أمام هذا التمثال . فاستمعى إلى ما قال :

إلى فينوس ميلو

أنت يا من سواك البحر ، مستودع القوى كلها ، أنت تأخذين بمجامع نفوسنا وتملكين علينا أمرنا بهذا اللطف وذلك السكون اللذين لا يملكهما غير القوة ، وتشيعين فينا سجوك ، هذا السجوّ الذى ينتشر كسحر الانغام القوية الحادة .

ما هذه السعة الظافرة ! وما تلك الظلال القوية !

من أطراف العالمين تأتى الجموع الزاخرة طمعاً فى تأملك ، أيها المرمر المبجل! وشعاع الأصيل يتكاثف فى القاعة حتى يبرز جمالك ، فتشرقى وحدك ، بينما تمضى ، فى صمت ، تلك الساعات الحبلى بالاعجاب .

أنت لاتزالين تسمعين صيحاتنا ، أي فينوس الخالدة ! وبعد أن أجبت معاصريك ، ها أنت ذي الآن لنا ، للكون بأسره ! ويلوح أن القرون الخمسة والعشرين التي أمضيتها في الحياة لم تفعل إلا أن قدست شبابك الذي لا يقهر !

والأجيال ، هذه الأمواج في خضم الأعصار ، أيتها الظافرة بالزمان ! هذه الأجيال تغدو إليك وتروح ، يغريها بك جذب دائم ونداء متواصل ، لا سبيل لمقاومتهما ــ فالاعجاب لايتلاشى كمايتحلل المرمر.

أنت ملاذ الشعراء والباحثين والفنانين المتواضعين ، ملاذهم الساعات الطوال في مضطرب المدينة الصاخب . أنت مبتورة ، ولكنك تامة في عيونهم . وإذا كان الزمان قد قدر له أن يعدو عليك ، فما ذلك إلا ليظل ثم شاهد على مجهوده الفاسق ، وعلى عجزه كذلك .

لست تمثالا عابثاً جدباً عقيما ، صورة لإلهة غير حقيقية من آلهة عليين . إنما أنت على أهبة العمل ، تتنفسين ، أنت « امرأة » وهذا سر مجدك . لست إلهة إلا بالاسم فحسب ، والشراب الطهور الاسطوري (النكتار nectar) لا يجري في عروقك . الإلهي فيك هو ذلك الحب اللانهائي ، الذي كان يحمله المثال الذي أبدعك ، نحو الطبيعة . كان أشد الناس غيرة ، وكان على الأخص واسع الصبر أكثر من لداته ، فاستطاع أن يكشف جانباً من النقاب الثقيل على أيديهم المتخاذلة العزم .

ولست كذلك فسيفساء من الأشكال البديعة . فلا بديع من الأشكال إلا تلك التي « تتناسب » ، تلك التي تتداعى ويفترض بعضها بعضاً وفقاً لمنطق الضرورة المنسجمة الذي لايدحض ، إنها تلك التي

تستمد الحياة من بعضها البعض . — إن شكولك لتلتئم فى مجموع لايقبل التقسيم ، مجموع هو السيل الساجى للحياة التى تشيع من حواليك ، هذا السيل الذى منه انبثقت ، عارية واحدة. وما عسى أن يضاف إليك من ألوان الجمال « المجلوب » لا يمكن أن ينال من تلك الوحدة . فالجزء الذى لاينسجم وبقية الأجزاء، وأقل نشاز بين القسمات كاف لتحطيم الرائعة الفنية، لأنه بمثابة شىء لا عائدة منه، بمثابة بناء ينكره النور ، ويسلم أمره إلى كل ألوان الفقر والقساوة . وهذا سيكون حتما مصير كل تركيب — مهما يكن بارعاً — تركيب من قطع ، مهما تكن كاملة مختارة من نماذج مختلفة .

أما أنت ، فأنت تحيين ، وأفكارك أفكار امرأة ، وليست أفكار — ليت شعرى — أى كائن « أعلى » غريب ، خيالى ، صناعى . أنت لم تصنعى إلا من الحقيقة ومن الحقيقة وحدها تستمدين كل قوتك .— فلا شىء قوياً ، ولا شىء جميلا هو خارج الحقيقة .

وحقيقتك فى متناول الجميع : إنها « المرأة » ، التى يخيل إلى كل إنسان أنه يعرفها ، هذه الرفيقة المألوفة لجميع الناس ، لكن أحداً لم يرها ، لا العلماء ولا البسطاء ! والأشجار ، من ذا الذى ينظر إليها؟ أواه ! ليس للنور نظارة يبصرونه .

وبرغم هذا فليس فى وسع المرء أن يفعل شيئاً ، اللهم إلا إذا قصر نفسه على الملاحظة المستمرة الدقيقة الدائمة التعمق للحقيقة . — هنالك نفر ينعتونك بأنك « مثالية » . وهذه كلمة ، إن لم تكن خلواً من كل معنى ، فليست تدل إلا على حماقة . المثل الأعلى ! الحلم ! لكن

وقائع الطبيعة تفوق أشد أحلامنا إيغالا فى الطموح ! إن فكرنا ليس إلا نقطة لاتدرك فى الطبيعة . والجزء لا ينتظم الكل ولا يسوده .

الإنسان عاجز عن الخلق والابداع . وكل ما فى وسعه هو الاقتراب من الطبيعة ، بكل خضوع ومحبة . وهى الأخرى لاتتوارى عن بصره : فما على الإنسان إلا أن ينظر ، وهى تبصّره بما سيقوى على فهمه بفضل اصطباره — هذا فحسب . وهو نصيب مع ذلك عظيم ! نصيب بقدر نصيب برومثيوس ، ذلك الذى استطاع أن يسلب من الطبيعة الحياة التى نتعبدها فى فينوس ميلو .

لاعوض عن الدراسة المثابرة: فاليها وحدها يُفْضَى بسر الحياة. أحبَّ حياتك ، بكل صبر ووجدان ، كيما تفهم الحياة . فما أجزل العائدة إذا استطعت أن تبلغ مرتبة الفهم ! ستكون فى حضرة النعيم إذن أبداً . أن تفهم ، أن تبصر — أن تبصر حقاً ! أفيحجم الإنسان أمام المجهود الضرورى ، أمام التثقيف والمران اللازمين ، مهما يكونا شاقين طويلين ، إذا وقف على المعنى فى نعيم الفهم ؟

الفهم ! هو ألا تموت .

فعندى أن الروائع الفنية القديمة تختلط فى ذاكرتى بكل مناعم ريعان شبابى : أو بالأحرى « القديم » هو شبابى نفسه ، الذى يصاعد فى قلبى الآن ويخفى عنى أنى علتنى كبرة . فى متحف اللوفر كانت آلهة الأولمب قد أنبأتنى قديماً ماذا عسى الشاب أن يلقّنه بفائدة ، مثلهم مثل القديسين مع راهب يلقنونه فى صومعته؛ ثم حفظتنى من بعد وألهمتنى ، وبعد غيبة طالت عشرين ربيعاً افتقدتها بسرور لايبلغ

مداه التعبير ، وفهمتها . هذه البضع الإلهية، هذه الآثار من المرمر التى عمرت أكثر من ألفى سنة ، تتحدث إلىّ بصوت أعلى من صوت البشر ، وتثيرنى أكثر مما تثيرنى الكائنات الحية . — فعلى العصر الجديد أن يتأمل فى هذه الروائع وأن يبذل وسعه فى السمو إليها عن طريق العقل والحب ، فلها سيدين بما لا يحصى من النعم! إن فى مستطاع الإنسان أن يكون صانع سعادة .

إن « القديم » و « الطبيعة » مرتبطان بسر واحد . و « القديم » هو الصانع الإنسانى وقد بلغ أوج المهارة . بيد أن « الطبيعة » فوق مستواه. فسر « الطبيعة » أبعد غوراً من سر العبقرية . ومجد « القديم » فى أنه فهم « الطبيعة » .

أى فينوس ميلو ! إن الفنان الرائع الذى سوّاك قد استطاع أن ينشر فيك قشعريرة تلك الطبيعة الكريمة ، قشعريرة الحياة نفسها ، — أى فينوس ، ياقوس نصر الحياة ، ياجسر الحقيقة ، يادائرة اللطف!

أية روعة فى قامتك الجميلة ، المتربعة ثابتة على سيقانك الراسخة ! وأية روعة فى هذه الألوان الحقيقية التى ترقد على نهديك ، على بطنك الفاتن الواسع سعة البحر ! إنه الجمال الوسيع كأنه بحر لانهاية له . أجل ، إنك أم الآلهة والناس .

إن الخط الجانبى profil المولد لهذه القامة torse ليعيننا على أن نفهم العالم وأن يكشف لنا عن نسبه. والمعجزة هى فى هذا : فى أن الخطوط الجانبية المتجمعة فى اتجاه العمق والطول والعرض تعبر — بسحر لايدرك — عن النفس الإنسانية ووجداناتها، وعن الخلق الذى يكون أساس الكائنات .

لقد استطاع القدماء، بقليل من الحركات، أن يظفروا، عن طريق النحت، بهذا الطابع الفردى وتلك اللطافة المطبوعة بالعظمة التى تقرب ما بين الصورة الإنسانية وصور الحياة الكونية، والنحت الإنسانى عندهم له كل جمال الخطوط المنحنية فى الزهرة. ثم إن الخطوط الجانبية ثابتة واسعة كخطوط الجبال العظمى الجانبية: إن هذا لمن أمر المعمار. وهى بسيطة، هى ساكنة سكون حيات أبولون.

ولعل التسميات التشريحية قد كان من نتائجها المحزنة أنها فرضت على النفوس تلك الفكرة السابقة الزائفة، فكرة تقسيم الشكول الجسمانية. فيتبدى الخط الهندسى والمغناطيسى الكبير للحياة كأنه متكسر فى نظر الشخص العابر. نعم، إن هذه التخليلات النظرية قد شوهت، عند غير المطلعين، معنى الحق.

لكن الرائعة الفنية تحتج على هذه الفكرة الزائفة المصطنعة، فكرة القسمة. فهذه الشكول المتلائمة التى يتداخل بعضها فى بعض كما تتماوج عقد الحية، والتى ينفذ بعضها فى بعض فجأة، هذه الشكول هى الجسم فى وحدته الرائعة.

والجاهل، وقد أسلم إلى نفسه، لا يدرك إلا التفاصيل الظاهرة للأشياء. أما ينبوع التعبير، أما التأليف – وهو وحده الناطق البليغ – فيندّ عنه. ومن المؤسف أن الوصف التشريحى يبدو كأنه يقدم حججاً فى يد الجهل التجسيمى عند الجماهير، حينما يلفت، بالكلمات، انتباههم إلى الأجزاء المختلفة التى يتركب منها المعمار البدنى. فهذه الكلمات المتحذلقة: العضد والرسغ والفخذ وما إليها، وهذه الكلمات

الجارية الاستعمال : الذراع والساق — لا معنى لها من الناحية التجسيمية . في مؤلَّف الأثر الفنى لا حساب للأذرع والسيقان إلا إذا تألفت وفقاً لمستويات تجمعها على إحداث أثر واحد . والأمر كذلك فى الطبيعة ، التى لاتحفل بأوصافنا التحليلية .

وكبار الفنانين يعملون كما تؤلف الطبيعة ، لا كما يصف علم التشريح . فهم لاينحتون هذا العضل أو العصب أو العظم من أجل ذاته ، إنما يهدفون إلى المجموع وعنه يعبرون ، وعملهم إنما يرف فى النور أو يلج فى الظل من خلال المستويات الفسيحة .

من الزاوية التى أنظر منها إلى فينـــوس ميلو ، أرى كل جانبية profil الثلاثة أرباع تفيض نوراً ، بينما الجانب المقابل غارق فى الظل . ولا يكاد المرء يميز ألواناً نصفية demi-teintes ناحية أسفل جانبية الأرباع الثلاثة profil de trois-quarts ،وفى أعلى ومن أبعد يصاعد الرأس ويسود ، تسويه أنصاف الظل والنور ، بينما الخطوط الساكنة الراقدة ، خطوط الظهر المـــائلة ، تنغم ألحانها البطيئة . أى تنازل تعبر عنه الخطوط الطويلة الناعمة لهذا الظهر ، وقرار الاحشاء فى اللون النصفى !

أيها الفخر السامى للمرمر ! أيتها الحياة الهادئة للنفس الجسمانية ! إن الطبيعة لهى انسجام متصل — .

تأمل فينوس من أية جانبية أردت ! تلك التى أعجبنا بها منذ قليل فيها من الجمال ما يدعو ، بل ما يفرض فكرة الأبدى . لكن تنقل شيئاً ! وها هى ذى جانبية أخرى : وهى بدورها مطبوعة بخاتم

الخلود . كلاهما يستثير الإعجاب والأنس ، كلاهما سعيد ينعم في السكون .

لهذا الشكل من التنويع والحرية ما للزهرة ، والفنان وقد مال بانتباه إليها ، ينهض وتشيع في باطنه شائعة الدين : لقد سمع فينوس تتكلم .

أدور حولها ، وها هي ذي جانبية أخرى ، وأتأمل الشكل : في هذا الفم ظل لم يكن منذ حين ، لقد أضيف النحت إلى الرسم وإذا بالخطوط التي كانت مترددة تمتلىء عزماً . طرف الشفة متقعر شيئاً ، وكذلك طرف الخياشيم ، تلك آيات الشباب . هذا الفم ، وإن يك ذا رسم مدرسي ، فهو على مستوى جدير بأستاذ . ويخطىء المرء إذا راح يبحث عن نقطة تلاقي الشفاه . وكل شيء يقوم في الرأس ، والخد ، الذي يلوح لي ذا جانبية ضائعة ، هذا الخد هو « النحت » كله ، كما أن الفضيلة الواحدة هي « الفضيلة » كلها . — هذا الفم البسيط ، الطبيعي ، الكريم ! إنه ليحتجز آلاف القبلات ! ويستحيل على الإنسان أن يتملص من تأثير سحره . بل إن أشد الزوار جهلا ليتأثر به . كم نرى تماماً كيف أن المرأة قد اتخذت وضعها أمام فنان الألوهية !

إن روح الشكول لتتنفس في الحياة العميقة السارية في هذا البدن النابض . وإني لأبصر مكتنز عظامها الفاخر ، كما أبصر أفكارها : كل هذا اللطف ، مستوراً وحاضراً ، ما أقوى انتظامه من وراء هذا الشكل الرقيق رقة الشهد ! حيث لا تأخذ العين سواداً ولا نصاعة ، بل تجرى الحياة بلا عقبات ولا وثبات ، تجرى ناصعة نصاعة الماء الحي ، يستشعر المرء مقاومة لوح راسخ شديد ! واللحم وقد أقيم على قواعد لن تضعف أبداً ،

يتواثب بفرحة ، وكأنه يود لو يفر من هذه الظلال المتكومة التى تتكاثف تحت النهود لتبرزها ، بينما النور المتوهج يلوح أنه ينبعث من القامة .

وهذا الشكل المجسم الخليق بالعبادة يرحب بالجميع ترحيب الحياة المحامل . ثم الظلال ، والتلاعب الإلهى للظلال على تماثيل المرمر القديمة ! فى وسعنا إن نقول إن الظلال تهوى روائع الفن . إنها تتعلق بها ، وتضفى عليها ألوان الزينة . ولست أجد نظائر لهذه الحوقات من الظلال إلا لدى أصحاب الفن القوطى وعند رمبرنت Rembrandt . إنها تحيط الجمال بهالة من الأسرار ، وتصب لنا تسنيم السلام ، وتهيء لنا أن نستمع — بلا اضطراب — إلى بلاغة الجسد ، التى تنضج الروح وتوسع من آفاقها .

تلك البلاغة تطلق علينا سهام الحقيقة ، المنتشرة انتشار النور : ذلك إشعاع السرور . أى انفعال خفى يغزونى أمام اللطف المتأمل لهذا النموذج ! نقلات لا توصف من النور إلى الظل ! بهاء لأنصاف الأصباغ لا يبلغ مداه التعبير ! أوكار غرام ! آية آيات لا اسم لها بعدُ فى هذا الجسم الأقدس !

أى فينوس الوالدة ! أى فينوس الظافرين ! أيها المجد الكامل للطف والعبقرية .

إن الاعجاب يغلبنى كالنعاس .

وفينوس ميلو تنعكس صورتها فى بقية الفينوسات الأخـَر ! فى هذه يتحدد هذا أو ذاك من ألوان جمالها . فى إحداها ، وقد تحررت من كل أنواع الثياب ، ما هو تحت الظلال يجعل الجسد يزداد بالشهوة نبضاً : فهذا الفخذ ، عمود الحياة ، يرتعد حقاً لا مجازاً .

وعند تلك الأخرى تحدث الظلال والأنوار التى للبطن والسيقان نوعاً من الترجّح فيه يشيع الحب الجنسى كله : كل نشوته ثم كل هدوئه . وأعلى الجسم يميل فى انحناءة توقير : حركة بالغة اللطف ، فيها يجد الفن القوطى و فن النهضة رمزهما .

وفينوس الثالثة الأخرى ، أية غريزة تثبتها على هيئة قوس من اللطف ! إن منحنياً واحداً ، مكوناً من كل منحنيات الأكتاف والسيقان والأفخاذ ليرسم فينوس الجاثية .

وإنى لأملك رائعة صغيرة طالما أصلت كل عادات عيونى وروحى وكل معارفى . كنت أكن لها كل عرفان بالجميل عميق ، لأنها جعلتنى كثير الحلم والتفكير .

وهذه الرائعة تنتسب إلى عهد فينوس ميلو . وإنها لتشعرنى بعين الاحساس الذى للنحت القوى الملئ . ولها نفس اليسر فى عظمة أشكال هى ، برغم ذلك ، ضئيلة النسب مادياً . أية نشوة هادئة تحويها وتوحيها ، أو بالأحرى أية شهوة !

الظلال الجميلة التى تداعبها لها اتجاه واحد ، وتدور بأسرها فى اتجاه واحد ، وإنها لتبرز – بأية مهارة ! وبأية حكمة ! – النهودَ ثم تتناعس على البطن العريضة ، فتجسم الأفخاذ بقوة .

إحدى الذراعين ، فى ناحية منزوية ، تغرق فى الظل والنور الخفيف ، وحركة الذراع الأخرى تذشر على الأفخاذ أثواباً كما يتجمع الظل الظليل عند أسفل البطن .

إن الظل ، وقد قصد إليه الفنان قصداً ، ليضفى على كل هذا

الشكل نوعاً من الدثار الأوَّلى الذى يحجب بعضاً من الشكول ويكشف عن بعضها الآخر . فاذا أمعن المرء النظر ، أدرك أن هذه الأصباغ المتنوعة كلها تبرز تحت قسمة واحدة ســوداء ، قسمة تشف عن القوة .

إن ذلك لهو مبدأ النحوت الجميلة ، كما هو مبدأ المعمارات الجميلة. إن التعبير عن الحياة يجب ألا يوقف أو يحد ، حتى يحتفظ بمرونة الواقع اللامتناهية . ولهذا فان الأسود ، بما يُعْطى من تأثير ، يجب أن يعالج بمهارة .

وإنا لنلاحظ أن روائع الأوائل كانت تعالج على ذلك النحو . ولهذا فانها تحدث تأثير الاعتدال الرقيق والخلود.

أما إذا أسىء علاجها ، فان آثار هذه الإساءة تكون تجديفات ضد الطبيعة . إنها لن تكون ذات بلاغة بعد ، ولا تولد غير القساوة والنحول . وإلى جانب هذا فان التأثيرات المعتدلة تبدو من بعيدٍ أقواها . وفينوس ميلو ، على وجه التخصيص ، تدين لهذا الاعتدال بجلال تأثيرها . لا اصطدام ؛ إذا اقتربنا منها خطوة فخطوة نوقن بأنها نحتت شيئاً فشيئا تحت التأثير المتصل للبحر .

أو ليس هذا ما عناه الأوائل حينما أكدوا أن أفروديت ولدت من رحم الأمواه؟ »

- ١٣ -

من سلوى

تحت نخيل عمشيت

عمشيت ، عمشيت ! أية أصداء حبيبة تثيرها فى نفسى !

هنا مثوى أختى بالروح ، هنريت رينان – وهل تمنيت شيئاً أعز من أن أكون بالنسبة إليك ما كانته هى بالنسبة إلى أرنست : مصدراً للعطف الصافى والإلهام المشرق والخلة المتمكنة ؟ –

هنا ترقد فى أرض أدونيس ، تحت نخيل عمشيت ، « بالقرب من ببلوس (جبيل) المقدسة والينابيع القدسية التى اعتادت النسوة ، فى الأسرار العتيقة ، أن تصب فيها عبراتها » .

وهنا جئت أنا وقد اتعدت وإياها ميعاد لقاء «تحت نخيل عمشيت» «على أرض الأسرار العتيقة ، بالقرب من ببلوس المقدسة » ، « كيما أموت فى مشاركة طاهرة مع الإنسانية فى بيعة المستقبل »

اليوم يوم الزفرات والعبرات !

نحن فى أخريات كانون الثانى (يناير) ، وباقات الأمطار تنصب علينا على فترات من ضحوة النهار ، وقلبى اللهيف يود لو يطير مستقبلا قبلة قبر هنريت فى عمشيت .

لكن كيف نطأ بأقدامنا حرم أدونيس وفينوس دون أن نذرف الدموع مشاركة لأولئك النسوة الباكيات على الإله الشهيد ! ها نحن

أولاء تنطلق بنا السيارة على الطريق الرائعة التى تحيط كالسوار بخليج جونيه ذى الالتفاتة الساحرة ، نمر بنهر الكلب ونقوشه المتباهية المتبجحة ، نمر بها عابرين : بسخفها وسخف ما تدل عليه من خيلاء متنفجة زائفة .. ونتملى بثمار البرتقال الذهبية وشجيرات الموز الزاهية . — وسرعان ماأبصرت نهراً قانى الأمواج صاخب التيار رشيقاً وثاباً ، فصرخت فيمن معى : قفوا !

هنا مصب نهر أدونيس (إبراهيم) ، وهذا ماؤه القانى الذى احمر من الدم الذى اختلط بدموع النسوة النائحات الباكيات على الإله العزيز الأملدانى ، الناعم الغض ، أدونيس . هنا يصب منحدراً من مغارة «أفقا» وينبوعها المقدس ، حيث كان معبد فينوس يحج إليه عبادالجمال — وهل نحن إلا عبيدها وعبيد أدونيس ؟ — الجمال الحى المنشب أظفاره فى لحم الواقع والمنتشى ببخور الجسد العابق بالقداسة الشهوانية ، إن جاز هذا التعبير البادى المفارقة . ولقد كانت عبادتهم صادقة ، أولئك القدماء ، لأنها تعبير عن النوازع العميقة الحقة المنطوية فى أعماق النفس الانسانية ، لذا كانت تتسم بالإخلاص والصدق . أما العبادات الأخرى ففيها نفاق وخيانة : خيانة للأرض ، أمنا الرؤوم ، وللجسد واللحم ، طينتنا الحقيقية ، ونفاق أثيم لأننا لم نخلق للسير وراء مقتضياته . فلماذا كل هذا العذاب الرهيب الذى يفرضه الإنسان على نفسه بنفسه ! ألا لعنة « الأرض » على الامبراطور المنافق قسطنطين الذى حطم ذلك المعبد وما يقام فيه من عبادة لفينوس وعشيقها أدونيس ! واللعنة مرات ومرات على من عــَفَّى عليه بعد أن جدده الإمبراطور العالى الروح ، الحر

النفس جوليان (يوليان المرتد) ! أفيتاح للإنسانية إمبراطور جديد من نوع يوليان ، يرد العبادة إلى هذه المذابح المهجورة ، فيجدد شباب الإنسانية وإيمانها الظافر الصادق ؟

لكن هذا اليوم وهم بالنسبة إلى هذه الإنسانية الحائرة التى نخرتها المخدرات الرهيبة القتالة التى حلت محل تلك الألوان القوية من الإيمان الصلب بالحياة والجسد والواقع الحى .

فلا أقل إذن من أن تأتى إلى ، أى أدونيسى الحبيب ، لنحيا وحدنا تلك التجارب العتيقة العميقة . تعال إلىّ واصطد ما يحلو لك فى غابات لبنان ومروجها ، ولا تخش شيئاً فعينى ترعاك فى كل مكان ، و « المريخ » (مارس) الغادر لن يستطيع أن ينال منك شيئاً مهما أرسل إليك من وحوش وخنازير برية. أجل ، أنا أعلم أنه لك بالمرصاد : يود لو يهتبل غِرّتك فى لحظة من تلك اللحظات ، والكل يعرفون فيه الغدر والحيلة ! لكن لا عليك ، طفلى الحبيب ، فعينى دائماً ساهرة .

أما وأنت عنى اليوم بعيد ، فليس أمامى إلا أن أنزل إلى شفا النهر ، نهر أدونيس — أو إبراهيم ، كما يسمونه اليوم — لأمزج دموعى الدامية بمياهه القانية ! فمن يدرى ! لعلك قد صرعك خنزير برى فى البلد الغريب الذى تعيش اليوم فيه ، باريس ، خنزير برى من أولئك الفتيات الماكرات الضاريات اللواتى تعج بأمثالهن تلك المدينة اللعينة !

لقد قيل إن أدونيس وفينوس قد تبادلا القبلة الأولى والأخيرة فى هذه الظلال التى تحيط بمغارة أفقا ، فخشيت أنا منذ اللحظة الأولى أن أقتادك إلى هذه المغارة حتى لا يكون مصيرك أليماً كمصير أدونيس ،

ومصيرى دامياً كمصير فينوس ، فآثرت أن يكون ذلك تحت ظل أرز الرب ، هذا الأرز الخالد ، حتى أتفـاءل بخلوده ابتغـاء أن يخلد ما بيننـــا من غرام . فليت شــعرى أواهمة أنا فى هذا التفــاؤل أم سيصدق ظنى !

برغم هذا فسأذرف هنا دامى العبرات ، لأنى أعتقد — وقد تكون عقيدتى هذه غريبة شاذة — أن الوفاء لذكرى العشق الشهيد من أخص خصال العشق الصادق . أجل ، أنا موقنة أن صورتك أنت هى وحدها التى ستتراءى أمامى ، وأنا أقوم بتلك الطقوس وأؤدى هذه الشعائر المقدسة ؛ لكن لا عليك من هذا ! فشدة القلق عليك من شأنها أن تزيد من شدة تعلقى بك ، وحنينى إليك يجعلنى أصرخ :

دموعى عليك سخينة يا أدونيس !

ها هو ذا دمك الطاهر النجيع يفيض من الينبوع فى سيل دافق .

فهلمتى أيتها العذارى لننوح على الإله الجميل الشاب .

كللن جباهكن بشقائق النعمان التى نبتت من دمه الزكى .

إيتن بالأوانى المليئة بالعطور والثمار والشهد ،

فعطره فى أفواهكن ، وثمار صدوركن وخدودكن وشفاهكن القانية من جنى ثمــاره .

افرشن الأرض بالأزهار ، واحملن جسمه الغض البض عليها ، ثم غطينه بفرش من الأرجوان

دموعى عليك سخينة يا أدونيس !

* * *

شعوركن اجزنها يا لداتى ، فما نفعها وقد مات فتانا أدونيس ؟ !

إن أنامله وحدها هى الجديرة باللعب بغدائرها والسباحة بين رَسْلها.

اجزنها خوف العار ، وألقين بها فى الينبوع .

وخدود كن الطمنها ، فمن ذا الذى يستحق بعده أن يقبلها ؟ !

قبلاته أشهى من الشهد وأطيب من عرف الورد .

أنفاسه تنضح طيباً تملأ الدنيا عطراً أزكى من شذى أزهار الليمون والبرتقال بين خمائل « أنطلياس »

من عينيه انعكس النرجس ، ومن قده امتشق البان

دموعى عليك سخينة يا أدونيس !

* * *

أيها الشادى ، هات الناى الشاكى واعزف عليه مع المرتلات !

ها هن أولاء يحملن تماثيل الإله الشهيد، ويضربن صدورهن ، ويرقصن رقصة الموتى ، ويسرن فى جنازة الشباب والجمال والطبيعة والحياة والنور .

تقتادهن فينوس الحزينة وهى تحمل جثمانه الطاهر بين يديها الرقيقة وتندب :

ويلى عليك أيها الحبيب ! نهيتك عن الصيد فى غير حِماى فأعرضت عنى !

حذرتك الفتنة ، فازددت بالفتنة وَلوعا .

اختدعك شبابك فأغراك بالمغامرة والمخاطرة ، فذهبت ضحية الغدر والبراءة معاً .

أوه ! دموعى عليك سخينة ياأدونيس !

. .

وأنت يا أدونيس الآبق منى إلى بلاد الفتنة ، ألا تعتبر وتخشى نفس المصرع ؟ !

ودخلنا عمشيت والشمس المتضاحكة من بين ثنايا السحاب تنعكس أشعتها البلورية على قطرات المطر الرفافة على سعف النخيل فى هذه القرية العامرة بالنخيل ، دون بقية أرض لبنان ، وعمارها به إنما جاء نتيجة للصلات القوية التى تربطها ، هى ومنطقة جبيل ، بمصر منذ العهود القديمة .

دخلناها فيممنا فى التوناحية بيت «طوبيا» ، فاستقبلنا أهله بماطبعوا عليه من كرم وجزالة ومروءة ووفاء لذكرى ذلك الضيف الأول ، رينان ، وقد عرفوا فينا الرغبة فى الطواف بهذا الركن ، وما أكثر الذين حجوا إليه من أرواح عالية نبيلة لم تستطع المرور بلبنان دون أداء تلك الفريضة المقدسة !

عن يسارك غرفة استقبال لاتكاد تستقر فيها وتملى النظر بما يعمر جدرانها من تحف أثرية : من سجاد وأسلحة عتيقة ، حتى يطلعك صاحب البيت على السفر التذكارى الذى وقع عليه الحجيج الممتازون من أمثال موريس بارس . وآخر من عرفنا منها إدوار هريو الأديب السياسى المعروف .

وعن يمينك بهو مستطيل لاتزال تزين جدرانه صفائح من الخشب العتيق الملون ورفوف وضعت عليها الأوانى الخزفية ذات الرسوم الزرق . هنا أقامت هنريت ، وهنا صعدت روحها الرقيقة التى طبعت

على الحب والتفانى والإيثار والتضحية دون أن تظفر بالراحة فى الدنيا ، لأن الله لم يرد لها غير الطرق الشاقة الطويلة ، ماتت وهى لم تكد تظفر بجزاء ! فلم تئن لها الساعة التى يحصد فيها المرء ما بذر ، والتى يستريح فيها ليذكر متاعبه و آلامه الماضية» كما قال أخوها (« أختى هنريت» ص ٩٣ – ص ٩٤ ، باريس سنة ١٨٩٥) .

هنا فى هذا البهو أحسست بقشعريرة لا يبلغ مداها التعبير ، وتراءت أمام مخيلتى هذه المناظر الأثيمة لعلتها وتباريحها بين قوم غرباء وإن كانوا من الحنوّ عليها أقرب من كل القرباء ، وحبيبها أرنست يعانى ما تعانى من علة فى الغرفة المواجهة وقد غلبه الإغماء فلم يستطع أن يتلقى أنفاسها الأخيرة وقد كاد هو أن يسبقها إلى هذا المصير الأليم.

كانت هنريت فيما يروى أخوها ذات نزعة مثالية تتسم بالحنين والرقة فى غير انصراف عن نواعم العيش ومفاتن الحياة . وكانت تجد فى الطبيعة ينبوعاً لأجمل متعها ومشاعرها : فاشراق يوم ، وشعاع شمس وزهرة كانت كافية لاختلاب لبها. وكانت تعشق العمل الصابر الجليد فى غير تباه ولا خيلاء ، بل فى تواضع تنسى فيه نفسها وما كان ينتظرها من مجد لو حرصت على السير فى طريقه واتخاذ ذرائعه. وكانت تحن إلى الآلام وتهفو إلى استعذاب العذاب وتجنح إلى استنباط الوجه الحزين والمعنى الأسيان فى الأحياء والأشياء . وكانت من تلك الطبائع التى لا تعرف إلا الأطراف فى العواطف : فهى إذا أحبت امرءاً شاءت أن تستصفيه لنفسها وحدها وأن تحيطه بمودة وحنان قد يتجاوزان كل الحدود. ولولا أن عَـصَـمَتها نصاعة الذهن ونزعة تنويرية قوية واتجاه

عقلى واضح لكان مصيرها إلى استهلاك روحها العالية فى العتمة الرطبة لصومعة فى دير .

ولست من الادعاء بحيث أرى فى هذه النعوت جانباً من نفسى . بيد أنى أشعر مع ذلك شعوراً قوياً لا أملك له دفعاً بأن هذه النفس النبيلة ، نفس هنريت رينان ، ذات رحم بى ماسة ، وأن نوازع خفية ، بيد أنها قوية ، تهفو بى إلى الاقتداء بسيرتها ، وإن باينت ظروفها ظروفى : فما لى أخ أنعكف عليه بحنانى ، وصلتى بك — على الأقل فى نظر الناس — ليس من طبعها أن توجد بينى وبينك ما كان بين رينان وأخته هنريت . وهذا بعينه هو الذى يزيد فى عذابى . فرحماك يا إلهى !

النجاء ، النجاء من هذا البهو حتى لاتفتضح خواطرى الأليمة ! فغادرته موقرة بأعمق الانفعالات والتهاويل ودخلت الغرفة المواجهة ، وفيها واصل رينان مابدأه فى قرية «غزير» الفاتنة المسيطرة على الوادى الرائع الممتد حتى خليج جونيه ، أعنى كتابة « حياة المسيح » . ومن العجيب فى التوارد أن يكتب فى هذه الغرفة قصة آلام المسيح فى نفس الوقت الذى كان يعانى فيه آلام الحمى التى انتابه نومها هو وأخته فى وقت واحد ، فلم يستيقظ غيره ، أما هى فظلت تغط فى سباتها الأبدى .

إلى النافذة يا آنستى ، — هكذا نادانى رب البيت الكريم — فمن هنا تستشرفين إلى منظر رائع يمتد حتى جبل موسى : حديقة بديعة تمتد على حفافيها مخارف النخيل فى رشاقة وأناقة ، وفيض من النور يدخل من زجاج النافذة فيملأ الغرفة لمعاناً صافياً تحس لنعومته ملمس

الحرير . فكيف لايطرب رينان لهذه المناظر الفاتنة ، وهو الروح الشاعرية المرهفة الحساسة المتنوعة النغمات العذبة! لكن أنى له الطرب آنذاك وعزيزته تودع أنفاسها الأخيرة فى البهو المواجه ! لقد لفظت زفراتها النهائية فى الساعة الثالثة من صبيحة يوم الثلاثاء ٢٤ أيلول (سبتمبر) سنة ١٨٦١ ،ولم يستطع أخوها — وهو فى إغماءة طويلة منذ يومين — أن يتلقى تلك الأنفاس الحبيبة ، ولا أن يظفر بنظرة وداع من عيونها البراقة التى كانت تشع منها الرحمة والمحبة والمودة .

أنبىء الأخ بوفاة أخته فتهاوت عليه تهاويل الحمى ، ومزقه عطش مريع ، وإذا به يحلم حلماً رهيباً، يصوره وقد عاد معها إلى مغارة أفقا ، إلى ينابيع نهر أدونيس ، تحت أشجار الكستناء السامقة الضخمة التى تشرف على النهر من تحت الشلال . وكانت تجلس إلى جواره على العشب النضير ، فقدم إلى شفاهها المحتضرة إبريقاً مليئاً بالماء الشبم القراح ، وغرق كلاهما فى ينابيع الحياة هذه ، وهما يبكيان وفى نفوسهما يختلج شعور بحزن نفاذ .

هذا الحلم الرهيب لم أكد أقرأه فى كتاب « أختى هنريت » (ص ٩٠ ، باريس سنة ١٨٩٥) حتى أقض مضجعى وتوجست منه خيفة هى العلة فى تهيُّب دعوتك لزيارة مغارة أفقا بصحبتى أيام أن كنت بيننا ، أيها الحبيب النائى . فأشد ما أخشاه أن تدق لنا الساعة التى نضطر فيها إلى الذهاب معاً إلى تلك المغارة لنبكى مصيرنا — ذات يوم ؟ — تحت ظلال الكستناء العتيقة تحت الشلال .

أواه ! إن يومى حقاً يوم الزفرات والعبرات !

وأقساها تلك التى ذرفتها على قبر هنريت ، فما عتمنا وقد فرغنا من زيارة البيت حتى خرجنا لزيارة القبر الذى يقع فى نهاية القرية قرب كنيسة صغيرة .

وهذا القبر ضريح رباعى الشكل مبنى من الحجر فى أساسه ، ومن فوقه جدران بنيت بالطوب الأحمر . وعليه شاهد يذكر أن ها هنا ترقد هنريت رينان . والضريح كان فى الأصل لميخائيل طوبيا ، رب هذه الأسرة . فسمح ابنه زخيا بأن تدفن فيه واشترط إذا أريد نقل رفاتها أن ينقش على القبر بأن فرنسية قد دفنت فيه . ومن ذلك الحين وهى ترقد فى تلك التربة .

وقد زعموا – وتصف ألسنتهم الكذب – أن رينان لم يكن وفياً لذكرى أخته ، إذ كان عليه أن ينقلها إلى وطنها ، لأنها حين أحست بقرب نهايتها قالت لأخيها والدمع يرطب عيونها : « سأعمل وصيتى ؛ وما أتركه ضئيل ، ولكنه شىء على كل حال ، وأريد منك أن تعمل بما اقتصدته قبراً للأسرة ! ولابد أن نكون قريبين ، وأن يكون بعضنا إلى جوار بعض ، ولابد لارنستين الصغيرة أن تعود معنا » (« أختى هنريت » ، ص ٨١ ، باريس سنة ١٨٩٥) . أفليس فى هذا شاهد على رغبتها فى أن تدفن إلى جوار أخيها فى مقبرة للأسرة واحدة ؟

لكن رينان يقول إنه تردد فى انتزاعها من تلك الجبال الجميلة التى قضت فيها لحظات عذبة ، ومن بين هؤلاء القوم الكرام الذين أحبتهم ، ليضعها فى المدافن الفرنسية الحزينة التى كانت تثير فى نفسها الفزع . « وليس من شك فى أنى أريد أن تكون إلى جوار رفاتى ذات

يوم ، لكن من ذا الذى يدرى بأى أرض يموت ! فلتنتظرنى إذاً تحت نخيل عمشيت ، على تربة الأسرار القديمة ، قرب ببلوس المقدسة » . (« أختى هنريت » ، ص ٩١ – ص ٩٢) .

ولقد صدق رينان فى هذه النبوءة كما حدثتنى أنت فى رسالتك إلىّ عن مقبرة مونمارتر . فلو أنه أتى بأخته من عمشيت إلى وطنه الأول ، ترييه فى بريتانى ، ورقد جثمانها فى تلك البقعة الموحشة القائمة « على شاطىء بحر مظلم تعلوه الصخور ، وتضربه الأنواء . لايكاد القوم يعرفون فيه الشمس ، أزهاره هى الطحالب البحرية والأشنة والأصداف الملونة التى ترقد فى أعماق الخلجان المتوحدة . فيها الغيوم تبدو عديمة الألوان ، والسرور نفسه فيها حزين شيئاً » كما قال رينان نفسه فى « صلاته على الأكروبول » (« ذكريات الطفولة والشباب » ، ص ٤٩ ، باريس سنة ١٩٤٧) ، نقول : لو أقام قبراً للأسرة فى ترييه ونقل رفاتها إليه فهل يكون قد حقق وصيتها ؟ كلا ! لأن وصيتها أن يرقد كلاهما الواحد إلى جوار الآخر ، وهو لم يكن يعلم بأى أرض يموت ، وها هو ذا يرقد فى مقبرة مونمارتر فى قبر مهمل لم ينقش حتى اسمه عليه ! فنعم ما فعل بتركه أخته ينعم بجثمانها الطاهر بلدُنا الحبيب لبنان فتزيده طهارة على طهارة .

وعلينا نحن أن نحقق هذه الوصية . فما رأيك فى أن نعمل معاً فنهيب بأصدقاء رينان ومريديه فى أنحاء المعمورة لننقل رفاته إلى عمشيت فى لبنان ونرقده هو وأخته فى ضريح رائع نقيمه لهما فى تراب لبناننا العزيز ؟ أمنية تلك من أعذب أمانىّ ، وسأبذل كل ماوسعنى فى سبيل

تحقيقها ، ولن تهدأ لى نفسى حتى أتمها ، فهى أقل ما يجب علىّ فعله ذكرى لهاتين الروحين العاليتين اللتين نحمل لهما كل إعجاب وحب وإجلال .

فى ضريح آل طوبيا إذاً يرقد جثمان هنريت تحت ظلال سنديانة باسقة ما رأيتها حتى تذكرت تلك المناقشة الغريبة التى أثيرت حول ما أسموه باسم « نخيل عمشيت » ، أثارها موريس بارس Barès بعد « التحقيق » الذى قام به « فى بلاد المشرق » إذ قال فيه مشيراً إلى قول رينان : « فلتنتظرنى إذن تحت نخيل عمشيت » ، « أيها الكاذب ! ليس فى عمشيت نخيل » ، وتوالى الرحالة كُلٌّ يدلى برأيه فى دعوى رينان وتكذيب بارس ، ومن آخرهم ادوار هريو فى كتابه « معابد الشرق » الذى حمل على بارس ودهش كيف لم ير النخيل فى عمشيت ، مؤيداً صحة قول رينان .

والحق عندى أن كلا من رينان وبارس على صواب ، لأن مقصدهما مختلف . فرينان لا يقصد من انتظارها له تحت نخيل عمشيت ، أن على قبرها نخيلا ترقد هى تحته ، إذ الحق أنه لا يوجد نخيل يشرف على القبر نفسه الآن ، وكل ما يوجد سنديانة باسقة عتيقة ، أما النخيل فيبعد قليلا عن القبر (بمقدار ثلاثة أو أربعة أمتار) . وإنما يقصد نخيل عمشيت عامة ، وهى كما قلنا بلد عامر بالنخيل ، والبلد الوحيد فى لبنان الشهير بالنخيل منذ العصور القديمة . ولكن بارس فهم أن النخيل الذى يشير إليه رينان يظلل القبر نفسه ، فمن هنا أنكر وجوده وله الحق فى هذا الإنكار . والغريب أنّ الذين عنوا بهذه المناقشة

وأدلوا برأيهم فيها لم ينتبهوا إلى هذا الفارق بين مقصد رينان ومقصد بارس ، فاندفعوا يفصلون فى الخصومة وهم لايدرون وجهها الصحيح ، فالتاث عليهم الأمر . لهذا ارتسمت على شفتى ابتسامة عريضة حينما شاهدت الضريح وتذكرت المناقشة الحامية الوطيس ، وفهمت أنها مناقشة زائفة تقوم على سوء فهم من جانب الفريقين : فريق المؤيدين لدعوى رينان ، وفريق المكذبين الذى يتزعمه بارس. وعلت ابتسامتى فلاحظها رفقتى ، وسألونى السر فيها فرويت لهم قصة تلك المناقشة الغريبة !

فهل ترى معى مرة أخرى قيمة اقتراحى نقل رفات رينان من موضعه الحقير المظلم الكئيب فى مقبرة مونمارتر إلى هذه البقعة الرائعة التى يرقد فيها جثمان حبيبته هنريت ، ليرقدا معاً فى ضريح نشيده فى عمشيت ونغرس حوله نخيلا يتفيئان ظله ؟ إنه دعاها كيما تنتظره « تحت نخيل عمشيت ، على تربة الأسرار القديمة ، قرب ببلوس المقدسة » ليواصلا ذلك الحوار الرائع الذى قطعه الموت . فلم يشأ إذن أن يرقد فى مقابر فرنسا الكئيبة وتحت سمائها الملبدة بالغيوم ، الحزينة السرور ، وإنما تمنى لو رقد إلى جوارها تحت شمس لبنان المشرقة ، وفى النور الباهر الفياض فى جبالنا العزيزة ، وبين المروج الناضرة الباسمة والنخيل والكروم الرائعة على تلك الربوة الفاتنة فى عمشيت .

— ١٤ —

إلى سلوى

أنغام الأحجار فى سنليس

فى سمعى ترن أنغام تتناجى بها أضواء الأصيل المشبوب حول كاتدرائية سنليس Senlis.

الظلال الراقدة بين ثنايا الحجر الحى يفيض منها سيال داكن إلى الظلال الجاثية عند أقدام الكستناء فى الميدان المهجور.

والرفيق القديم الحالم السارى إلى جوارى يجلى بلهفة عينيه الزرقاوين إلى هذا الأثر القوطى فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر.

آه ! هذه سمفونية من الألوان تعزف بها أوركسترا النحوت البارزة والأقواس والسهمان، تحت إمرة هذا المايسترو الحاذق، هذا البرج السامق النافذ فى اللانهاية، وسط الصمت الموحى الذى ينمو حولى دائماً كلما كنت فى حضرة رائعة فنية من روائع النحت أو المعمار.

أجل! هى سمفونية من الألوان والأضواء والظلال، وإن كان لحنها القاصد leitmotiv من اللون الكابى، ذلك الذى يعلو الحجر العتيق.

عيونى حائرة بين هذه النبرات تستمع إليها فى خشوع طالما استشعرته أمام هذه المعابد، وإن خلت روحى من كل إيمان بما ترمز إليه، لأنها من السعة بحيث تقوى على استيعاب كل تجربة عبر

عنها صاحبها بإخلاص ، استيعابها كلها بصدق ملؤه العطف الحار .

وهذا الوصيد الرائع ، ما هو ؟ — هو زفرة حارة تسرى فيها عذوبة ورقة وحنان وجلال .

أما العذوبة ففى وجوه أولئك الملائكة الذين جاءوا يبعثون العذراء من مرقدها .

ماتت البتول ووقف بين يدى جثمانها حواريون ، ثم جاء ملكان فصعدا بروحها إلى العرش ، وفى إثرهما صفوف من الملك أتوا يستخلصون بدنها الطاهر من القبر .

على وجوه الحواريين أجمعين مسحة من الحزن الساجى الرقيق .

وفى المساحة ذات القوس المنكسرة فى هذا الوصيد ترى الابن يتوج الأم ، وها هى ذى تجلس عن يمينه ، ناعمة بالحضرة الأبدية .

إن أروع الكاتدرائيات فى فرنسا كرست فى العصر الوسيط للعذراء : نوتردام فى باريس ، ونوتردام فى شارتر ، ونوتردام فى سنليس ، وغيرها وغيرها .

تأمل معى هذا الباب الغربى بكل إمعان . هذا القديس يوحنا ، الحوارى الحبيب ، ذو التدين المشبوب ، يجثو على ركبتيه عند قدمى العذراء ، ومجامر البخور يحملها نفر من الحواريين تنشر عبيرها فوق الجثمان المقدس ، وملكان أحاطت بهما هالتان رائعتان يحملان روح العذراء إلى السماء ، روحها على هيئة طفل صغير مدثر . والعذراء راقدة على فراشها الأخير المحمول على صفوف من الأقواس المنكسرة .

ذلك موت العذراء . أما بعثها بعد ثلاثة أيام فأشد روعة . الحواريون

ساهرون حول القبر . والمسيح تجلى فى اليوم الثالث يحف به موكب من الملائكة ورؤساء الملائكة ، فبعث فيها الحياة . وهرع الملائكة حولها : منهم من يضع التاج على رأسها ، ومنهم من يتهيأ لحملها إلى الفردوس ، ومنهم من يخلع عنها أكفانها ، أو يرفعها من أكتافها .

وجوه هؤلاء الملائكة كلها جميلة . وفيها روعة التعبير وسماحة الحركة وتوثب الحياة : منها الحالم المتأمل ، ومنها الحادب العاطف ، ومنها كذلك المشرق بنبل الرسالة التى يؤديها نحو العذراء ، ملكة الملائكة. هذه ليست تماثيل من الحجر ، بل من اللحم الحى ، قد أضفت عليها أثوابها الرقيقة حياة فوق حياة ، حتى ليخيل إلى المرء أنه أمام لوحة زيتية ، لا أمام نحت فى الحجر . ولهذا لمعت الأضواء فيها والظلال كالألوان البراقة الزاهية . وبودك ، وأنت تتأملينهم ، أن تشاركيهم فى هذه النعمة الكبرى . وكل هذا يكشف عن عرامة العواطف التى كانت تجيش فى نفس ذلك الفنان الصناع الذى أبدع تلك الوجوه الناضرة .

هذا وقد مضت عليها سبعة قرون ، فكيف كانت روعتها لما أن كانت هذه التماثيل فى شبابها لم تمتد إليها يد الزمان المدمرة ؟!

ودّع الباب خطوات إلى الوراء لتشاهد البرج بسهمه فى كمال جلاله ، وأقصد البرج الجنوبى الذى يعلو من فوقه ذلك السهم الجبار الصارخ من أعماق الأرض فى وجه السماء .

أقيم هذا السهم فى الربع الثانى من القرن الثامن عشر على ارتفاع من الأرض يبلغ ثمانية وسبعين متراً ونصفاً ، على هيئة طابقين ، الأول قفص مثمن ضخم ، ولكنه منطلق رشيق بفضل تلك الأعمدة الهيفاء

التى تقوم على جوانبه ، والطابق الثانى هرمى ذو ثمانية أسطح ، وشى بزركشة وفيرة من رقائق الحجر .

هذا السهم صرخة ، كما قلنا ، صرخة حادة تعزف بها كمان العشق الإلهى المتقد الوجدان .

هنا عيد الرشاقة والانطلاق فى موكب الأناقة والدلال . هذه التقاسيم والقويسات والأعصاب البارزة والعروق الأنيقة كلها تعبر عن غنج ودلال فى وجه هذه الغادة الهيفاء ، الفارعة القوام ، التى تدعى كاتدرائية سنليس : دلال من فرط الفتنة وسط إقليم الفالوا ، تلك الجنة التى يجرى من تحتها نهر النونت Nonette. ولكنه دلال يشوبه الحياء فى وجه هذا النور الباهر الذى يغمر الكاتدرائية الآن فى هذا اليوم الضحيان ، فترى وردية الواجهة ترف ألوانها فى تهاويل جنية باركت حولها أصفى الأضواء.

النجاءَ ، النجاء من هذا النور الباهر ! فالجواهر الشفافة وحدها هى التى تقوى على المكث فيه ، وما أنا منها فى شيء . الآن فهمت لماذا جزع الرهبان والقسيسون فى نوتردام دى باريس ، ونوتردام دى شارتر ، فملأوا كورس هاتين الكاتدرائيتين بالمنحوت التى أشاعت بعضاً من الظلمة فى هذه الفراغات البلورية الشفافة التى تدعى الكاتدرائيات القوطية . من قبل كنت ألومهم ، واليوم وقد شاهدت كاتدرائية سنليس صرت أجد لهم متسعاً من العذر ، فمن ذا الذى تطاوعه نفسه على البقاء طويلا فى هذا البلور الرفاف؟! نعم ، لقد أراد الفنان القوطى الصافى أن يحملهم ما لا طاقة لهم به حينما رغب إليهم أن يتعبدوا فى أمثال تلك الروائع البلورية .

والروح التى أملت فكرة نحت الكورس نشداناً للواذ من فيض النور هى التى أملت كذلك فكرة وضع تمثال الديك فوق سن السُهمان. هى الروح الهلوع التى تفزع من صولة الخطوط . فهذا الديك القائم على سهم كاتدرائية سنليس هو تاج من العار والقبح يكلل هذا القوام السامق النفاذ . ومع هذا ، فكم أثار هذا الديك المسكين من مناقشات بين علماء الآثار لاتزال مشبوبة الأوار ! بودى أن أختطف هذا الديك حتى أستريح وأريح : أريح السهم من هذه الوصمة التى جللته بالقبح ، وأريح علماء الآثار مما هم فيه من اختصام ! الآن أستطيع أن أفهم جيداً تلك الأقصوصة التى ق رأتها لروائى ألمانى هو Herbert Fulenberg صاغها حول سرقة غلام خبيث للديك القائم فوق برج الكنيسة فى قريته . بودى لو كنت من أهل سنليس Senlis إذن لفعلت فعلة هذا الغلام الحاذق ، الذى ارتكب ما ارتكب عبثاً وشيطنة . آه! ليتنى عدت صبياً شيطاناً يلهو بين طرقات سنليس !

الظلمة والنور ، والظل والحرور ، كلها تنافح هذا الديك المغرور ، وتهدل بين خفايا المنظور ، من القصر المطمور حتى الميدان المهجور .

أشرفت فوق جدار داثر من هذا القصر الرومانى ، والعمال لايزالون بسبيل الحفر والتنقيب ، حتى أملأ عيونى النهمة من هذا السهم الذى ملك شعاب نفسى. وهنا تجلت النويقيسات clochetons التى توجت بها الزوايا والسطوح فى كلا الطابقين ، كأنها أثمن تيجان رصعت بسلاسل من اللؤلؤ المنضد الناصع ، دون أن تؤثر فى صفاء الخطوط المعمارية. ولكم كان لمثل هذا الوشى فى تلك الخطوط من صرعى !

وأنا خصم لدود لكل وشي في مسطحات المعمار ، لأن سر المعمار في خطوطه وما تستتبعه من أضواء وظلال متنوعة المقادير ، لا في الوشي الذي يعلوه أو يملأ فراغاته أو مسطحاته الجدارية . ولم يبدأ المعمار القوطي ، هذه المعجزة المسيحية — في مناظرة المعجزة اليونانية ، — لم يبدأ هذا المعمار يفقد جلال تأثيره وروعة سموه إلا يوم بدأ في التزيين والتحلية .

لكن هذا الزخرف الحجري الرشيق الذي يعلو الأسطوانتين القائمتين عند المدخل عن يمين وشمال ، ماذا ترى فيهما وما عليهما من زخرف ؟ تأنق لاغبار عليه إن نظر إليه في جزئياته ، لأنه زخرف أنيق يتبدى كالبنان الرخص اللدن لفتاة ناعمة في موجة العمر ، فيه جمال رحيم يخفف من الجلال الرهيب المتنفس حول البرج والسهم . وهل تقوى النفس على المكث طويلا في حضرة الجلال ؟ ! حنانيك إذن أيهـــا البرج الرهيب !

* * *

مضى الأصيل ، وانتشر عبير الليل في الأزقة اللزبة الناعسة ، ورف الهلال الرقيق فوق غاب الفالوا Valois وأغلق الكاهن كاتدرائيته ، ولكن البرج السامق ظل ساهراً يرعى بعيونه العديدة القرية العتيقة . فودعت ميدان الكاتدرائية الغربي واتخذت سبيلي في الدرب الضيق الطويل الذي يشق القرية طولا ، درب شاتل Châtel وامتداده شمالا وجنـــوباً . البيوت جللها القدم ومسّح الزمن بأركانها ؛ وحلا له أن يبني له فيها أوكاره . وعند تلاقي هذا الدرب بدرب التونلريه Tonnellerie التقيت بميدان صغير يعمل فيه البناؤون . أوه ! هذا ميدان أولادي لابروير

Aulas-de-La Bruyère الذى يثير ذكرى حادث بليـــون Billion ، هذا الساعاتى الذى كان عضواً فى جماعة البندقية Arquebuse ثم طرد منها لما نسب إليه من ربا فاحش . فذات يوم ، هو الأحد ١٣ ديسمبر سنة ١٧٨٩ ، أراد أن ينتقم لنفسه من هذه الجماعة أبشع انتقام ، وكان من عادتها أن تسير بمواكبها الزاهية وصفاراتها وطبولها فى الاحتفالات . فقام فى ذلك اليوم موكب من الجمعيات والنقابات ، بدأ سيره من البلدية متجهاً إلى الكاتدرائية ماراً بدرب شاتل . فلم يكد الموكب يمر من تحت منزل بليون المطل على ميدان أولا دى لابروييرحتى أمطر بليونُ المارين من أعضاء جمعيته السابقة وابلاً من الرصاص بعد أن تحصن فى بيته ونصب أمام مدخله المتاريس ، وتساقط الشباب صرعى رصاصه الواحد تلو الآخر ، إلى أن استطاع أولا دى لابروييرو بعض رفاقه أن يقتحموا المنزل . وهنا ، وقد أحس بليون بالخطر الداهم ، أشعل النار فى برميل من البارود ، فحدث انفجار منقطع النظير أطار الألواح الزجاجية فى المدينة ، وأصاب سقف الكاتدرائية منه تلف . علىّ وعلى أعدائى ! هكذا قال فى نفسه ، وراح هو الآخر صريعاً بعد أن خلف خمسة وعشرين من القتلى وواحداً وأربعين جريحاً . ووجد القوم جثته بين الأنقاض ، فصلبوها على جذع شجرة ، وعرضوها خمسة عشر يوماً ، وألقوا الملح مكان بيته المتداعى . لكن ماذا يجدى الصلب والتمثيل به ؟ ! وهل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ ! لقد شفى غله منهم وانتقم لنفسه أبشع انتقام . ومن يدرى ! لعله ذهب لملاقاة ربه قرير العين مستريح الضمير !

هذا حادث جلل لاتزال ذكراه الرهيبة تتمثل فى خيالات أهل سنليس Senlis ، وإن لم يكن وحده الجدير بالذكر ، بل هناك ما هو أجل أمراً وأخطر أثراً فى حياة فرنسا كلها . عُـد أدراجك قليلا معى حتى درب الجمهورية فى تقاطعه مع درب بلون Bellon ، تشاهد أمامك نزل فوترا Fautrat وقد وضعت عليه لوحة نقش عليها : « من هذا المنزل بدء المارشال فوش Foch ، وهو يعد للنصر ، كيما يفرض الهدنة فى ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨ » . فقد اتخذ منه فوش مركزاً لقيادته ، وعند هذه المدينة ، «سنليس» ، توقف الزحف المظفر للجيوش الألمـــانية فى بداية الحرب العالمية الأولى ، والنصب واللوحات تعمر المدينة لتذكرك بكل تلك الأحداث الجسام .

ويلوح أن المارشال فوش كان تقياً شديد الورع ، فكان يحضر القداس يومياً تقريباً راكعاً أمام تمثال العذراء القديم العريق . ولا تزال كاتدرائية سنليس ، بما فيها من لوحات منقوشة ، عامرة بذكريات تقوى هذا المارشال الماهر .

لكن دعنا من صخب هذه الأحداث ، فما أتيت سنليس إلا حاجاً لكعبة من كعبات الفن الرفيع ، ناشداً وحى الصمت بين مبانيها العتيقة ، وخلال طرقاتها الشائقة . أوه ! لماذا أشعر بحنين الذكرى وأنا أجوس خلال هذه القرية ؟ هكذا ساءلت نفسى النشوى بعبير القرية الوادعة فى ذلك المساء الساجى ، وسرعان ما وجدت الجواب فى الشبه القوى بينها وبين مرتع أحلامى الناضرة الأولى ، مدينة بيروجيا Perugia فى إيطاليا . كلتا المدينتين تمتاز بالقدم والعراقة و أصالة الفن والمرتفعات والمنخفضات

(وإن كانت هذه أبرز كثيراً فى بيروجيا منها فى سنليس) ؛ وكلتاهما توحى إليك بهذا السجوّ العميق الذى لايخلو من جانب صوفى : طرقاتهما صنعت من الشعر ، بما لها من سقوف حجرية ذات أقواس أنيقة كما يبدو خصوصاً فى شارع التّرىّ Rue de la Treille فى سنليس ، وفى كثير لايحصى من طرقات بيروجيا ، وهى طرقات تذكرنى خصوصاً بمدينة صيدا فى لبنانكم الحبيب ، يا سلوى ! نعم فى هذه الطرقات ذات الطابع من العصر الوسيط ، شِعر رائع ، لأنها تتلفع بأنعم الأحلام ، وتتكنفها ظلال موحية تغرى بالتأمل والصلاة ، وهل الشعر إلا حلم وتأملات وصلوات ؟ !

— ١٥ —

إلى سلوى

منازل رلكه فى باريس

« لك يا منازل فى القلوب منازل » !

نعم! ولأهل الفكر فى قلوب المعجبين منازل لا تقل فى تأثيرها روعة عن منازل الأحباب . وأى عجب فى هذا ! فالأمر أمر بواعث على التجارب الحية العميقة أيا كان موضوعها . وآية ذلك عندى ، يا سلوى ، أننى ماأدخل مدينة كانت بها منازل لأحد من شيوخى الروحيين هؤلاء إلا طفت بها فى خشوع رهيب يواكبه إحساس عامر بأنبل الذكريات ، وسعيت فى آثارهم أتلمس أنفاسهم الحارة يعبق بها كل ركن أووا إليه . ولا أكاد أستشعر فارقاً بين حجى إليها وبين تطوافى بمنازل غرامنا المشترك ، أيها الحبيب الناصع العينين! هكذا فعلت لما أن حججت إلى وادى الانجادين وجليت ببصرى الذاهل فى مشاهد نيتشه بين سلزماريا وسورلاى ، وهكذا أيضاً شعرت وأنا أصاعد إلى ربوة تربشن نشداناً للألحان المنبعثة من روح فجنر فى تلك الجنة الناعمة قرب لوتسرن . ومن هنا بدأت أفهم معانى الحج فى الدين .

وفى باريس منازل من له فى قلبى كل منزلة .

منازل ذلك الغريب التشيكى الذى كان خير من تغنى بباريس

لأنه كان أشد الناس رهبة منها وفزعا ! وفى الترهيب والرهبة كل معانى الإحساس الحى . هنا التقت الروح الجرمانية بعرامة نزعتها الصوفية الموغلة فى أتاويه الأسرار من وراء ضفاف المجهول ، مع روح المدنية اللاتينية بنصاعة إشراقها وتفتحها الزاهر على سطح الحياة . وفى هذا التعارض العنيف يقوم المعنى العميق فى تجربة رلكه **Rilke** الباريسية . ولا أحسب فى تاريخ الالتقاءات الروحية فى هذا الباب تجربة أبعد دلالة من تجربة هذه الروح الملائكية ذات العينين الزرقاوين والشعور المجدولة والنظرة الحالمة فى تردد بين آفاق الباطن ومرايا الكون . فكأين من أصحاب الفن والفكر من الجرمان تلبثوا بباريس وكانت لهم فيها مغامرات وحيوات ! لكنهم لم يستطيعوا أن يتعمقوا تجربتها كما فعل رلكه . فالشاعر هينريش هينه **Heinrich Heine** كان فتى مستأصلا بحكم تاريخ الشعب « المختار » الذى ينتسب إليه ، فكان فى وسعه أن يهاجر إلى أى مكان دون أن يشعر بذلك التوتر الناشىء من التعارض الخصب بين روحه وروح المكان . والموسيقى رتشترد فجنر **Wagner** كان من العصبيـــة الموحدة لروحه الجرمانية بحيث لم تقو روحه على تمثل عصبية أخرى ، لهذا غُلـّقت نوافذ روحه دون أى تأثر وانفعال .

أما شاعرنا رلكه فقد كان جرمانياً صادقاً فى جرمانيته ، لكنه كان فى الوقت نفسه ذا تفتح لمـــا عداها فلا جناح عليه أن يتأثر غيرها . كيف لا وهو ينتسب إلى تلك المدينة العالمية «فينا» وإلى تلك الامبراطورية المتكونة من أخلاط متباعدة من العناصر والشعوب واللغات ! بيد أن هذا

كله إنما يعمل على السماح له بمتح نوافذه على الآفاق المعارضة دون أن يستحيل إليها : محاكاة أو إفناءاً . ومن هنا تنصب قنوات الخارج فى هذا الباطن الزاخر بالممكنات فتغذيه ولا تفنيه أو تؤذيه ، أو عن رسالته الأصيلة تنحيه ولها تنسيه .

لهذا كان التعارض فى نفسية رلكه خصباً إلى أبعد حد ، لأنه ظل محتفظاً بذلك التوتر الحى الذى يسمح وحده بتوليد مركب طريف يستمر فى حركة أبداً ، بينما طغيان جانب على آخر يؤدى إلى الاستئثار ، وفى الاستئثار قتل للتوتر . والمتتبع لتطور هذه الدراما النفسية يشهد منها عجباً .

* * *

باريس فى أواخر آب سنة ١٩٠٢ والصيف فى وداع ينشر القيظ الداكن بين ثنايا المطر الغزير ، ومحطة الشمال تستقبل هذا الوافد بجرح خديه عدم الاكتراث وهموم المسافرين ومخاوف التوقع المترجح بين الإعجاب والإرهاب . والفتى من أهل العلم ، قد جاء حاجاً إلى منازل رودان Rodin الذى يحمل له كل إعجاب ويريد أن يعقد به صلة حية تهيىء له أن يكتب عنه ما كلف به من دراسة له . فليغدُ إلى حى العلم ، إلى الحى اللاتينى ، وليمسّح بركنه الأقدس إلى جوار السوربون . فنزل فى فندق أوربا Hôtel de l'Europe شارع توليبيه Tollier رقم ١١ ، بالطابق الثالث أو الرابع (لايدرى ، لأنه يخشى أن يحسبها ، كما قال بعبارة خجول فى رسالته الأولى إلى زوجه كلارا) .

قمة البانثيون الشامخة تحدب على الخالدين الراقدين في كهوفها ، وقبة السوربون في شارع سانجاك Jacques ترف خضراء ناصعة كأنها تاج من الزمرد ، أو كأنها بالأحرى عمامة شيخ من نسل الرسول ، عليها وقار ومهابة (ولست أدرى لماذا تذكرنى ، ياسلوى ، بتلك العمامة الضخمة الموضوعة على رأس قبر الشيخ محيي الدين بن عربي في ضريحه بحى محيي الدين بدمشق . وبهذه المناسبة أغريك بزيارة هذا الضريح الذى كان له فى نفسى أبلغ الأثر لما أن زرته لأول مرة ، وكان ذلك بعد أن تعارفنا وتلاقينا للمرة الأولى فى بلدك الحبيب. ومن يدرى ! لعلى قصدت من هذه الزيارة أن تكون وسيلة لأتخذ من ذلك الشيخ الجليل العاشق « ترجماناً لأشواقى » إليك بعد تلك اللقيا القصيرة ! ولعلى كذلك شئت أن نتخذ منه ولياً شفيعاً لغرامنا الطاهر المشبوب . ولاعجب فما أقرب الشبه بين حالنا نحن وبين حاله هو ومعشوقته التى تغنى بها فى ديوانه « ترجمان الأشواق» ! على أنى أطلت هنا الاستطراد ، وكل ما أرجوه منك أن تبادرى إلى زيارة ضريح شفيعنا هذا وتلتمسى منه البركة لعشقنا ، وما أحسبه باخلا عليك بها ، أيتها العذراء الطهور !) وهناك غير بعيد ناحية الغرب أشجار حديقة اللكسمبور وقد بدأ الخريف يداعب أوراقها فيكسوها صفرة شاحبة فى النهار الضحيان . كلتا القبتين والحديقة ثالوث مقدس فى هذا الحى العتيق .

ولكن الفتى لايكاد يعى شيئاً مما يرى . فما عتّم أن نفر بعنف . هنا شعر بشقاوة الطلاب المساكين الذين يكدحون بين الجدران الكالحة لتلك الغرف الزرية فى هذه الفنادق ، وبهذا راح يصرخ قائلا : « آه !

ما أفظع الليالى فى فنادق الطلاب الصغيرة هذه ! » فنحن اليوم نرتاع من بشاعة هذه الغرف الضيقة التى تتنفس رائحة شاذة لا أستطيع وصفها ، والتى لايدرى المرء لها مدخلا من مخرج ، ولا يعرف أين يضع رأسه : فموضع رأسه هو موضع قدمه وكتبه ومأكله وملبسه ومطهى طعامه ! فما بالك بتلك الغرف أيام رلكه ، حيث لم يكن ثم غير مصابيح تتنفس غيوماً من الدخان الغازى القاتل ، وحيث لا مياه جارية ولاوسيلة من وسائل الراحة !

على أن دواعى النفور الخارجية لاتكاد تقارن بدواعيه الباطنة التى يشعر المرء من جرائها بذلك الجزع الكونى الذى يحسه وهو لأول مرة فى التقاء مع روح مدينة معارضة . وليس هذا الجزع من نوع جزع المدن العالمية الذى يستولى على كل من يدخلها أول ما يدخل إذا كان خصوصاً من أهل الريف . فرلكه قد حَيَّ من قبل فى مدينة لا تقل فى عالميتها عن باريس ، ألا وهى مدينة « فينا » : ولهذا فيجب أن نسقط هذا العامل فى حالتنا هذه ، ونقتصر على عامل التعارض بين الروح الجرمانية التى يمثلها رلكه والروح اللاتينية التى تتجسد فى باريس . استمع إليه يحدثك عن مشاعره وهو لما يمض عليه غير خمسين يوماً ، وقد انتقل من ذلك الفندق الوضيع فى شارع توليبيه رقم ١١ إلى فندق آخر فى شارع الآبيه دلبيه رقم ٣ Rue de l'Abbé De l'Epée ، هو فندق نيفير Nevers ولا يزال قائماً عند ملتقى ذلك الشارع بشارع كلود برنار فى الحى اللاتينى ، تعلوه سمرة كابية تجلل طبقاته السبع . ولئن كان لايزال يعدُّ فى الحى، حى الطلاب ،

فهو على درجة من الترف ، بل والأناقة . دخلته ذات مساء فسألت بوابته عن تاريخ بنائه فلم أظفر منها إلا بقولها إنه قديم يتجاوز قطعاً ما قبل هذا القرن، وإن كثيراً من الناس ليسألونها عنه طمعاً في استجلاء مقام رلكه به. قال رلكه في رسالة إلى ارتور هو لتشر Arthur Holitscher

« أو تدرى كيف أن باريس غريبة عنى معادية لنفسى إلى غير نهاية ! هنالك مدن كبرى هى نفسها شقية حزينة لأنها كبيرة . وعبثا تحاول أن تتسع ، فان حنيناً ضئيلا لا يلبث أن يطويها على نفسها ، وضجيجها لا يخفى النداء الباطن الذى يردد فى غير انقطاع : إن المدينة الكبيرة أمر مناف للطبيعة . تلك حال بطرسبرج . لكن لباريس شأناً آخر . فباريس عابثة « مزينة بالمرايا » ، راضية عن نفسها إلى غير نهاية ، سعيدة بألوان عظمتها وحقارتها حتى لاتستطيع أن تميز هى بين كلتيهما . تجوس خلال طرقاتها كائنات حية ، دون أن تستطيع أن تفصل بين بعضهم وبعض . فى الأيام الأولى كنت ألقى مستشفيات فى كل مكان : فمن خلف الأشجار فى كل الميادين العامة تقوم تلك الأبنية الرتيبة ذوات البوابات الضخمة والأبواب الجانبية المنشقة فى الأسوار العالية المحيطة بها . وفى الواجهات تعرض تمثيلات لأخبث الأمراض ، والصحف تروى بطريقة مغرية جرائم رهيبة ، لاعبة بتلك اللغة التى تقبل كل شىء والتى كأن كلماتها هى الاحساسات نفسها . نعم ، كل شىء (هنا) لعب ينعكس فى ألوان أخرى من اللعب . آه ! كم كنت أشد على يدى وأصك أسنانى حينما أشاهد الأشياء النادرة التى كنت أجدها متباينة ! ولم أستشعر يوماً هذا المقدار الذى أستشعره

الآن من الحنين إلى روسيا » (رسالة فى ١٧ — ١٠ — ١٩٠٢).

فى هذا الوصف الفاتن أصدق تعبير عن مشاعر رلكه آنذاك أمام باريس . فهو يراها عابثة نرجسية النزعة ، كأنها فتاة لعوب معجبة بنفسها ، وجهها دائماً فى مرآتها ، فيها من الغرور والخيلاء ما يزوّر لها كل ما فيها على أنه النموذج الأعلى والأمثل فى كل شىء مهما يكن عظيما أو حقيراً . بل لا معنى للحقارة والعظمة بالنسبة إليها : فهى تزعم أن كل ما فيها عظيم ، وما على المعايير إلا أن تؤخذ منها . ووصف رلكه هذا لا يزال صادقاً على باريس اليوم ، بالرغم مما اعتراها من خطوب . فهذه الخيلاء الفواحة تتوسمها فى كل نبرة وكل حركة تصدر من أهليها ، وتسمعها تطلق لسانها المتنفج المتباهى إلى درجة تثير الابتسام العريض ، خصوصاً عند الطبقة المتوسطة .

وإحساس رلكه بمعنى الموت يطوف بأرجاء باريس كان أشد الاحساس امتلاكا لنفسه ، حتى إنه يكاد فى بعض المواضع لا يصف باريس أو لا يجد لها طابعاً مميزاً إلا فى طابع الموت الذى ينيخ بكلاكله على ما فيها . ولقد عبر عن هذا الإحساس أبلغ تعبير ، خصوصاً فى الصفحات الأولى من رائعته « صحائف مالتى لوردز برجه » ، فقال فى أول استهلاله : «أهنا إذن يأتى الناس ليحيون ؟ يخيل إلىّ بالأحرى أن هاهنا يموت المرء. خرجت . شاهدت مستشفيات . ورأيت رجلا يترنح ويخر لوجهه » . . . وهكذا يستمر فى وصفه لشبح الموت وهو يجبهه فى كل مكان حتى لتفيض صفحات الكتاب كله بذكر الموت ، إلى حد أنه يمكن أن يوصف بأنه خير سفر تغنى بالموت : جزعاً منه

وإجلالا له . فلكلٍّ موته الخاص ، وإن رلكه ليصيح فى ديوانه «الفقر والموت» راجياً من الله أن يمنح كل إنسان موته الخاص . ولكم يريعنا فى «صحائف مالتى لوردز برجه» بتلك الأنواع من الموت : موت الرجال الذين يحملون الموت فى داخل نفوسهم سجيناً بها ، وموت النسوة الهرمات القزمات الدميمات اللواتى يستقبلن الموت على نحو فيه احتشام ونبل ومن حولهن الأسرة كلها أهلا وحشما وحيواناً منزلياً ، وموت الأطفال الذين يموتون وفقاً لما كانوا عليه وما كانوا سيصيرون إليه ، ثم خصوصاً موت النسوة الحبليات اللواتى ترقد أكفهن على بطونهن الكبيرة التى تحمل ثمرتين : طفلا وموتاً .

هنالك استشعر رلكه الحنين إلى روسيا . لأن هذه الصور القاتمة الرهيبة التى تتراءى أمامه فى باريس تغزوه بشعور الاستسلام الصوفى المذعن للمصير ، وهو ما يتمثل فى الروح الروسية بكل قوة . فكان عن هذا نداء الدم السلافى فى روح رلكه ، وهو الذى كان نصف سلافى فى تكوينه ومجلى آفاقه الروحية .

وزادت الأيام توكيداً لمعنى الرهبة الذى أشاعته باريس فى نفسه . فما يلقاه من ألوان الجمال فيها «على الرغم من خلوده المشرق ، لا يكفى لشفاء الآلام التى تصيبنا بها قسوة الطرقات واختلاطها ، والوجه المصطنع للحدائق والأحياء والأشياء . إن باريس تفرض على حاستى القلقة ألواناً من القلق لا يبلغ مداها التعبير ، حتى ليخيل إلى المرء أنها ضالة ، تندفع كأنها كوكب انحرف عن فلكه نحو صدمة رهيبة . ولا بد أن تكون المدن التى يتحدث عنها الكتاب المقدس قد كانت من هذا النوع ،

تلك المدن التي كان يصاعد من ورائها غضب الله ليبطش بها ويفنيها »
(من رسالة إلى اوتو مودرزون Otto Modersohn في يوم ٣١ ديسمبر سنة ١٩٠٢) .

لكن كان ثمت نور يلمع خلال هذا الضباب الرهيب الذى استشعره رلكه فى باريس ، نور أعانه خلال مقامه الأول هذا الذى استمر من ٢٨ آب سنة ١٩٠٢ إلى نهاية حزيران سنة ١٩٠٣ .

ذلك النور هو نور الفن المشرق من فوق الرابية المطلة على وادى فليرى ، نور رودان Rodin فى معبده بميدون الذى حدثتك عنه فى رسالة سابقة .

أجل ، إن بالفن الخلاص ، حتى من جزع المدن الكبرى !

- ١٦ -

إلى سلوى

رلكه، شاعر الفقر والموت ،

فى باريس

كان وتراً مرهف الإحساس ، قرعته أنامل الليل الغليظة فراح يعوى ، لكن عواءه عواء الطير الجريح .

أما الوتر فروحه الشاعرة ، روحه العذراء التى تلمست الحياة بين أسراب الأحلام المجنحة بأكاليل الورد ، الرفافة فى سبحات الفجر ، المخضلة بالأنداء الصافية للوجدان الأسيان . فما مس شيئاً ، مهما يكن ثقيلا كثيفاً ، إلا استحال شعراً .

أما تلك الأنامل الغليظة ، أنامل « تلك الليلة الكبرى » ، كما نعتها ، فأنامل المدينة العظمى الممتدة بمخالبها الحادة تنشبها فى لحم النضارة الأولية ، وإن طلتها وزينتها كالفاجرة الرهيبة ، مدينة باريس وقد هوى فى أعماق هاويتها كالشهاب الساقط .

هب يصرخ من تلك الأعماق ، يشكوها إلى رب الفقراء والمساكين الذين تسحقهم تلك المدن الكبرى ، فكان من شكواه تلك المزامير التى دعاها : « سفر الفقر والموت » .

كان عرقاً من المعدن الصافى دفيناً وحيداً فى أحضان الجبال ،

وكان مهجوراً فى هاوية لا نهاية لها ولا قرار ، شريداً فى ليل عميق نفرت منه الآفاق . فاستشعر كأن كل ما هناك يحتوشه ، يحاصره ، ثم يستحيل حجراً .

وخزته شائعة الألم وهو الغريب الضال فى فم هذا التنين الهائل الذى يسمونه المدينة الكبرى ، وخزه فطلب المزيد ، لأن الألم الأعمق هو المحرر الوحيد لهذه الحساسة المشبوبة .

أزعجته « تلك الليلة الكبرى » ، فلتزد من إزعاجه ، لتثقل عليه ، بل لتسحقه ، ولتضغط بكل يدها الثقيلة الوحشية على نفسه اللطيفة البريئة ، حتى يفنى فيها صارخاً من أعماق الهاوية .

اصطدم بقساوتها أينما حل ، واستشعر الجزع حيثما سار ، الجزع الكونى المنتشر عن أنفاس المدن الهائلة .

هذه المدن ، من ذا الذى يقدر على وصف ما فيها من حماقة وما لها من رهبة ؟ بربك أيتها العاصفة الكبرى ، هبى واذريها واجعليها هشيما ينساق أمامك كالتراب .

« ألا ليتنى كنت الساهر على كل آفاقك . . دع نظرتى ،جسوراً شاملة ، تشمل مدى البحار . هيىء لى أن أتابع مسار الأنهار ، حتى أستطيع أن أسمع ، من وراء ضوضاء شطئانها ، صوت الليل الصامت يرتفع . خذ بقيادى خلال سهولك التى تقصف فيها الأرياح حيث تقبُرُ أديرةٌ خشنة أحياءً لم يحيوا ، تقبرها بين أسوارها التى تشبه الأكفان .

« لأن المدن الكبرى ، يا إلهى ، رجيمة ، وفى حضنها يفرخ الفزع من الحرائق ، وليس لها أن ترجو غفراناً ، وأجلها محدود .

« فى هذه المدن يشقى بالحياة أناس ساخطون ، يموتون ولا يدرون لمــاذا تعذبوا ، ولم ير واحد منهم إلا تلك التقطيبة البائسة التى حلت فى أعماق الليالى المجهولة التسمية محل الابتسامة السعيدة لشعب ملىء بالإيمان . إنهم هائمون على وجوههم ، امتهنهم المجهود الذى يبذلونه فى خدمة أمور خالية من كل معنى ، يخدمونها فى غير حماسة ، وثيابهم تخلولق يوماً بعد يوم ، وأياديهم الجميلة تهرم فى وقت بالغ التبكير . تزحمهم السابلة وتمر عابرة من غير اكتراث ، وإن كانوا مترددين ضعفاء . وليس غير الكلاب الهيابة التى لا مأوى لها هى التى تتبعهم لحظة فى صمت .

« إنهم يسلمون إلى جلادين عديدين ، وضربة كل ساعة تؤلمهم . إنهم يتسكعون ، وحدهم ، حول المستشفيات ، منتظرين أن يسمح لهم بالدخول جازعين مهمومين » .

أولئك المنبوذون ، الذين تخلت عنهم الحياة ، أولئك الفقراء المحلودون بسياط الحرمان ، أولئك الغرباء النفوس ، فيهم يقبع الموت ، « لا الموت الذى مسهم صوته المعجز إبان طفولتهم ، وإنما الموت الصغير كما يفهم هناك » ، الموت المعلق فى أعماقهم شبيهاً بثمرة فجة ، عفصة ، خضراء ، لن تنضج أبداً . هذا الموت الرهيب هو موتهم ، هذا الموت بالجملة الذى يصيب أولئك بلا تفريق وبطريقة آلية كأنه مصنع واحد .

أما الموت الآخر ، « الموت الكبير » ، فهو تلك الثمرة الكامنة فى مركز الكل « ولسنا نحن غير اللحاء ، غير الأوراق التى تغطيها ، هو الموت الخاص بكل إنسان ، الموت الذى يتشكل وفقاً لجوهره » .

« إلهى ! هب كُلاً منا موته الخاص، هبه الموت المتولد من حياته الخاصة، التى عرف فيها الحب والشقاء . » لأن كُلاً منا إنما يحيا لينمى ذلك الموت الخاص ، يتعهده بالسقيا والرعاية حتى يزهر ثم يثمر ثم ينضج . فمن أجله تتفتح براعم العذارى ، ويحلم الأطفال بأن يصبحوا رجالا كباراً، ومن أجله يعمل المراهقون: يعملون من النسوة مواضع لسرهم ، سر جزعهم الذى لايستطيع أن يتلقاه منهم أحد غيرهن . . وفى هذه الثمرة يمكن أن تنفذ كل حرارة القلوب وبريق الأفكار الرفاف.

لكن هذا الموت ، ويا حسرتاه ! لايظفر به أحد، فقبل أن تنضج هذه الثمار تتنزل ملائكة الموت كأسراب من الطيور وتتخطف كل هذه الثمار وهى لاتزال فجة خضراء .

« إلهى ! نحن أشقى من الدواب الشقية ، فهذه تكمل موتها الخاص حتى وهى عمياء . . . أواه ! هبنا القدرة والعلم حتى نضفر حياتنا كالعريش ويأتى الربيع حواليها فى وقت مبكر . لأن مايجعل الموت غريبا رهيبا هو أنه ليس النهاية اللائقة بنا ، وإنما تلك الأخرى ، تلك التى تنقض علينا قبل أن يصبح موتنا الخاص ناضجاً فينا ».

نهاية تلك مبكرة ، تجعل موتنا بمثابة إجهاض ، فلا نلد على فراش الحشرجة إلا مسخاً ، مسخاً ميتاً ، مسخاً لموتنا الحق ، لذا يخرج الجنين يلتوى بعضه على بعض كالحلزون ، يستر جفنيه بيديه وكأن شبحاً رهيباً يتهدده ، وعلى جبين هذا المسخ الوليد ترتسم علائم الجزع من كل ما أصابه من عذاب .

وهكذا ننتهى جميعاً « مثلنا مثل فتيات ممزقات البطون ، يمتن

وهن يلدن » . تلكم هى اللعنة التى حلت بإنسان المدينة الكبرى .
أفما لنا من خلاص ؟

لا خلاص عند شاعرنا رلكه إلا بالضراعة والإنابة إلى الله حتى يخلق إنساناً ولياً عظيما يهبه الله ليلا لا نهاية لعمقه ، يوغل فيه إلى أبعد مما أوغل حتى الآن ، ليلاً تتفتح فيه كل البراعم ، وينتشر العطر الفاغم . وها هو ذا يدعو الله إلى خلق ذلك الإنسان ومنحه فى النهاية تمام النضوج ، وجعله من السعة بحيث لايكاد الكون كله يكفى ليكون له رداء ، والسماح له بأن يكون وحيداً كالنجم حتى لاتفجأه أية نظرة فى الساعة التى يتغير فيها وجهه . وليجعل زمان طفولته يبعث من جديد حياً فى قلبه ، وليفتح له دنيا العجائب ، عجائب سنيه الأولى العامرة بالأحلام . ليدعه يسهر حتى الساعة التى يلد فيها موته الخاص ، موته الحق ، مليئا بالاصداء كالروضة الغناء ، أو الرحالة العائد من سفر بعيد :

« إلهنا ! دلنا على حقيقة الإنسان :
الإنسان الذى يحمل فى نفسه موته الخاص ،
اهدنا الصراط الذى يقتاد إليه
ونجنا من الأيدى الموزعة مهلاكه »

لكن ، لمـــاذا كل هذا السخط على المدن الكبرى ؟

« لأن المدن الكبرى عارية من كل حق وصدق
تزيف الليل وتفسد النهار .
تحطم أمل الطفل ، بل وحياة الدواب .
فى صمتها كذب وفى ضوضائها خداع ،

ولا شيء يربطها بعد بالحركة الشاملة
التى تدور إلى الأبد حول ذلك المركز الذى هو أنت.
والأرياح الممزقة عند ثنايا الدروب
تشتت ضجيجها الضخم وتمزقه همسات من الكراهية والحقد
فطوبى للأرياح التى تتسلل لِواذاً إلى البساتين.
لأن البساتين هيئت من أجل الملوك
الذين يلهون فيها زمناً ،
يلهون بغادات يحتضنّ الأزهار
على الصوت الساحر لضحكاتهن.
لقد كن يقظة هذه الحدائق اللاغبة
كن يغدنّ هامسات كزفرات النسيم فى الخمائل ، وكان لوسواس
حرير ثيابهن ، ثياب الصباح ، صوت على مخارف الحصى يحاكى
خرير الجدول
أما الآن ، فالبساتين تبكى ذكراهن ؛
إنها ترتدى أصباغاً زاهية حينما تأتى رباع أخرى
وتحترق ببطء على لهب الخريف
خلال أغصانها المتعانقة
كأنها الأربسك المصنوع من حديد الأسوار ،
وفى غور البساتين يتبدى قصر
مغمور فى الرؤية الباطنة
لأبهائه العامرة بصور الأجداد الثقيلة !

قصر لايعبأ بشيء ، ولا يذكر شيئاً من حفلات الماضى ،
فيظل صامتاً صابراً كالضيف » .

وطالمـا حلم رلكه بأمثال هذه القصور الضالة فى أعماق الغابات أو الشريدة الوحيدة على قنن الجبال ، حتى عاش فيها وتحققت أحلامه : أولا فى قصر دوينو Duino حيث دعته صاحبته أميرة تورن وتاكسيس Prinzessin von Thurn und Taxis إلى ذلك القصر العتيق المشرف على بحر الأدرياتى قرب فينيسيا ، فنعم فيه بجلال الوحشة وروعة الصمت الموحى الذى ينمو فى ظلاله سنى الأحلام ، ثم فى قصر ميزو Muzot فى إقليم الفاليس Wallis بجنوب سويسرة حيث قضى ذلك المتوحد الشارد البقية الأخيرة من عمره القصير . أما القصور التى يراها فى المدن الكبرى الآن فتدعو إلى الحسرة اللهيفة :

« فهى تتباهى مختالة كالطواويس ذوات الريش المتفاخر ، لكن لها صوتاً أجش رهيباً . آه ! الأغنياء كثير ، وكبرياؤهم ضخمة » .

فمما نفر رلكه من المدن الكبرى أشد التنفير أولئك الأغنياء العمالقة من كبار رجال الأعمال الذين يتبذخون ويستيطلون عُجباً بما هم فيه من ثراء فاحش ، يكفى الإنسان أن يحس بمقداره حتى يشعر بأن فيه التحدى والرغبة فى المنازلة المستعلية . ورلكه الفقير الذى كان يحيا ، آنذاك ، حياة الطلاب الفقراء ، كيف لايستشعر صولة هذا الثراء الجبار الذى يصفعه أينما وجّه بصره فى تلك المدن الكبرى ! نعم فى الريف غنى ، وفى القرية ثراء من نوع آخر . إنه الغنى الحق ، لأنه ينطوى على معنى البذل الشامل والعطف المنتظم لكل ما حواليه . أغنياء المدن

طغاة جبابرة لا يشعرون بأية صلة تربطهم بالوسط الذى يحيون فيه ، بل هم فضوليون عليه ، طفيليون مستأصلون ، كل ما فعلوه أن امتصوا دماء الآخرين واكتنزوها فى أبدانهم الكالحة . أما أغنياء الريف فالثراء ينبثق منهم وكأنه ينبثق من باطنهم ثم يفيض على الآخرين ، إنه انتشار وامتداد يحتضن الغير ويسرى فى عروق الآخرين ، مثله مثل الشجرة الضخمة تمتد أغصانها وترسل الظل الوريف يحتمى به اللاجئون إليها من لهب القيظ ، قيظ الفقر .

أغنياء المدن غناهم من الخارج ، يأتى لينصب فى مركز نفوسهم المليئة بالأثرة . أما أغنياء الريف فغناهم من الذات ، يخرج عنها باذلا ما لديه فائضاً به على الغير فى إيثار مجانى كريم . وأغنياء الريف هم الأغنياء حقاً ، ولهذا يصرخ رلكه قائلا :

« لكن (أولئك) الأغنياء ليسوا أغنياء . . إنهم ليسوا كأولئك الرعاة ، رعاة تلك الشعوب الرحالة التى تمر خلال السهول الخضر الناصعة ومن خلفها أسراب مختلطة من قطعانها مثلها مثل السحب التى تمر فى سماء الصباح .

فان ضربوا خيامهم للمبيت فى المساء
هنالك تبزغ الروح الشاردة للسهول
وتتساوق الإبل من بعيد
كأنها سلاسل من جبال
إنهم (أى أولئك الأغنياء ، أغنياء المدن)
ليسوا كشيوخ القبائل فى الصحراء

ممن يرقدون فى الليل على بسط خلقة

لكنهم يصنعون حلياً من الياقوت اللامع فى الأمشاط الفضية الخاصة بأفراسهم الأثيرة . — إنهم ليسوا كأولئك الأمراء شم الأنوف الذين كانوا يرون فى الذهب شيئاً تافهاً لا إغراء فيه ويقضون كل يوم من عمرهم فى نشوة

بالعنبر واللوز والصندل

— إنهم ليسوا كأرباب السفن

فى المرافئ التجارية القديمة

ممن كانوا يحيطون أنفسهم بروائع الفن العالى

وينجحون ، بفضل الاصرار

والخلد طوال محياهم ،

فى أن يجعلوا من أهوائهم رائعة أشد جمالا — إنهم لايشبهون أولئك الأمجاد القدماء الذين كانوا ينامون على خفقات خدودهم البيض مدثرين بالدثار الذهبى ، شعار مدينتهم

كأنهم الأوراق فى البراعم » .

تلك ألوان من الأغنياء الحقيقيين الذين كان غناهم نتيجة ضرورية لنبالة أصولهم وطهارة معدنهم ، وفيهم نرى تغنى رلكه بالنماذج الإنسانية العليا فى العهود العتيقة وفى العصور الوسطى ذات النبالة ، وهو إذن لا يكره الغنى لأنه غنى ، بل يكره الغنى لأنه ليس غنياً حقاً : لذا يمجد الأغنياء حقاً :

« فأولئك كانوا أغنياء عندهم تدوم الحياة بغير نهاية ، تدوم إنسانية حبلى بالمعانى » .

أما أغنياء اليوم ، أغنياء الصناعة والتجارة ، فأولئك أولياء الشيطان ولهـذا :

« فان زمان الأغنياء قد ولى

ولن يدعو امرؤ بعدُ عودتهم » .

لهذا فان كل ما يتمناه الشاعر من الله هو :

« . . أن يجعل الفقراء يظلون فقراء »

بيد أنهم ليسوا فقراء بالمعنى الوضيع :

« فقراء ! كلا ليسوا فقراء ، فما هم إلا محرومون من الخيرات الرئيسية . مسلمون للصدفة ، لا حول لهم ولا إرادة . ختم على قلوبهم بخاتم قلق لا يبلغ مداه التعبير ، مجردون من كل شيء ، حتى من معنى الفقر . تراب المدن يثور لتدنيس وجوههم ، وكل الأقذار تتعلق متشبثة بهم .

وسيغرقون متناثرين كالاشلاء

إنهم يخيفون كالمصابين بالطاعون ،

لكن لو شعرت الدنيا بثقل العذاب ، لحملت الفقراء على جبينها كأنهم إكليل من الورد

لأن للفقراء صفاء الجوهر

وبراءة الدابة العمياء ساعة أن تولد ، وفى بساطتهم المليئة بك (يا إلهى !) لا يرجون إلا أن يظلوا فقراء كما هم فى الحقيقة . .

لأن الفقر نور عظيم فى أعماق الفؤاد . »

— ١٨ —

إلى سلوى

الله الفقير عند رلكه

فى الشعر العالى تتناوح أنسام الأوتار قِبَلَ الوجد المتقد بقبس من جنبات القدس ، أو الشهوة الغارقة فى حمأ مسنون يرسب فى قاع الحياة ، لكنها فى كلا الاتجاهين إنما تعبر عن قشعريرة الذات الخالقة فى تجاوبها النابض بدم الوجود .

فالشعر العالى يفتح على صوفية إلهية ، لكنها صوفية تأليه الأنا الفنان وهو ينطق بكلمة « كن ! » ليبدع ما تركه الفنان الأول ، أو ليجدد شباب ما أبدع من قبل ثم سحب الزمان عليه طلاءه الباهت ، أو ليخلع على الحاضر التافه جلال القدم العتيق العريق .

تراه يتغنى باله الناس ، بلغة الناس ، فتكون من أمره فى التباس ، ويدفعك الوسواس ، إلى تلمس نوايا هذا الماكر الخناس ، المتحدث بلسان الإحساس ، فلا تلبث أن تعود خائباً ترتدّ عنه مبهور الأنفاس . فصاحبنا رلكه ، كم قد تقطعت دون اكتناه أسرار شعره أعناق الشراح !

أناب إلى الله فى ابتهالات تخترق نبراتها حجب الأحدية لتنعم من وراء الرسوم بعين الجمع ، وناجاه بأناشيد تصاعد أنفاسها الحارة

لتذيب نقاب الحضرة الحديدى ، ناشداً إياها فى مشاهد الحس الصارخ فى كل مكان وزمان : أنا أنت !

فالله هو المستقبل المبسوط على طريق الزمان الأبدى
« وهو الفجر الكبير البازغ من سهول السرمدية
وهو صيحة الديك بعد ليل الزمان »
« أنت الندى ، وصلاة الصبح ، بل أنت غادة
أنت الرحالة ، والموت ، بل أنت أمٌّ —
أنت الصورة المتغيرة أبداً
الصورة التى تنبثق وحيدة عن المصير ،
وما لنا أن نمجدها ولا أن نشكوها ،
إذْ لم يصفك أحد ، أيتها الغابة الموحشة —
أنت الأس والجوهر لكل الأشياء ،
الأسُّ الذى يكتم كلمة سره الأخيرة ،
والذى يتبدى للآخرين شيئاً آخر على الدوام :
يتبدى للسفينة براً وللفُلك ساحلا » .

هذا الإلـه هو إلـه الفقراء والمساكين من ذوى الإيمان الساذج المستقيم الذين لايسألون ، فان « أولئك الذين يسألون لايعنيك أمرهم كثيراً » ؛ أما هؤلاء البسطاء الذين يحملون أعباء الحياة فى رضا وتسليم كريم « فانك ترعاهم بحنان ». ذلك أن « الذين يبحثون عنك يمتحنونك، والذين يجدونك يقيدونك بأغلال الصورة والحركة » .

ولهذا فان رلكه يريد أن يفهم الله كما تفهمه الأرض : ينضج

وبنضجه ينضج ملكوت الرب . فلا يطاب آية أو معجزة عابثة تبرهن عليه وتحتج له . لهذا يهيب به ألا يصنع معجزة لاقناعه ، لأنه ليس فى حاجة إلى أمثال هذه الآيات التى من شأن المتفيقهين الثرثارين . وفى هذا ليس هو ببعيد عن مذهب أولئك الذين جعلوا شعارهم كلمة ترتليان Tertullian : « أومن لأنه غير معقول » .

ذلك أن الباحثين عن الأدلة المتعلقين بالآيات يتهمون وجود الله ، ويثيرون الشكوك لطمسه . إنهم يطلبون من الجبال أن تدمى كيما يؤمنوا به ، لكنه يحنى وجهه ، لأنه لا يريد أن يرى أولئك الخالعين عذار الحياء .

أما هو فيودّ أن يكون مثل ناطور الكرم له كوخ منه يحرس ، وفيه يسهر ، فهو كوخ بين يدى الرب ، فيه تقطن بضعة الألوهية التى يمثلها ومنه يسهر على الدنيا . بل هو ليل ليله ، لأنه فناء فى الفناء الذى هو الله .

وهنا نجد شبهاً عجيباً بين رلكه وبين الصوفية المسلمين فى تصورهم جميعاً لله على أنه الفقر الكامل . فقد قيل فى كتب التصوف الإسلامى « إذا تم الفقر فهو الله[1] » . ورلكه فى « سفر الفقر والموت » إنما يمجد الله بوصفه الفقير المعدم المحروم من كل شىء حتى ليقول عنه فى عبارات تبدو غير مألوفة :

---

(١) ضياء الدين الكمشخانلى : « جامع الأصول فى الأولياء » ، ص ٣٥١ القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م .

« أنت الفقير المحروم من كل شيء ، أنت الحجر الدائب الدوران
دون أن يجد الراحة ،
أنت الأبرص الكريه الطلعة الذى
تنبو عن منظره الأحداق
والذى يحوم حول المدن حاملا شخشاخة .
مثلك مثل الريح لا مستقر لك ولا مكان
وجمالك لا يكاد يستر عُريك
والثوب الذى يلبسه اليتيم أيام الأعمال أروع مما تلبس
لأنه ، على الأقل ، ملكه .
أنت فقير افتقار طفل إلى الميلاد
طفل تخجل أمه أن تكون أماً
وتضغط على بطنها إلى حد يخشى معه أن تخنق
الحياة الأخرى التى تحملها فى داخلها وترتعد فى رحمها ؛
أنت فقير فقر مطر الربيع ،
فقر الوسمى المتساقط بهدوء على سقوف المدينة ،
وفقر الأمنية الوحيدة التى يتمناها سجين
وهو فى أعماق مطمورته وقد قطع بينه وبين العالم إلى أبد الدهر ؛
أنت فقير فقر المرضى الذين يتقلبون
طوال الليل على فرشهم ولا يخلون من اهناء ،
أنت كالأزهار بين القضبان

الحزينة فى الرياح المختلطة للأسفار
وكاليد التى ترتفع إلى العيون لتستر عبرات بالغة الأحزان .
ما الطيور المتنفضة ، إذا قورنت بك ؟
ما الكلب الجائع ، لو وزن بك ؟
وكم تساوى ، قبلك ، أحزان الدواب المهجورة من الجميع فى أسرها .
الأحزان الطويلة الصامتة !
وأمامك وأمام شقائك ،
ماذا يكون جميع الفقراء فى ملاجىء الليل ؟
إنهم ليسوا إلا حصى متواضعاً ،
ولكنهم مع ذلك يقدمون بعضاً من الخبز
كحجر الطحن فى طاحون . .
أما أنت ! فأنت الفقير حقاً ، المجرد من كل شىء ،
أنت السائل المحروم الذى يستر وجهه ،
أنت نور الفقر العظيم
الذى يتبدى الذهب باهتاً لو قورن به ،
أنت فى المنفى ، لا وطن لك
ولا مكان ها هنا يعدُّ مكانك
قامتك تسحقنا ، فأنت كبير علينا
أنت تنبح فى الرياح ،
أنت كالقيثارة التى تحطمها
كل يد تمس أوتارها » .

تلك صور ونعوت يخلعها رلكه على الألوهية فى جرأة منقطعة النظير تذكرنا بشطحات الصوفية المسلمين وبخاصة بكلمات الحلاج[1]. بيد أنها أبرع فى التصوير وأمس رحماً بالشعر الخالص، فى غير تدلل ولا ادعاء عريض من نوع ماهو مشاهد فى تلك الشطحات. وقد يخيل إلى الناظر العابر أن فيها تجديفاً واضحاً، لكن المتأمل المتعمق يستطيع أن يستشف منها خير تعبير عن معانى الله فى نفوس الناس المؤمنين به حقاً. فصاحبنا رلكه شاعر يريد أن يتلمس معانى الله فى نفوس المؤمنين الحقيقيين، وليس رجل لاهوت. ولهذا حرصنا على أن نتقدم بين يدى هذه المقاطع الشعرية من «سفر الفقر والموت» بمقاطع أخرى من أسفار كتابه المدعو «سفر الأوقات» الذى يتكون من «سفر الفقر والموت» هذا، ومن «سفر الحياة الديرانية»، و «سفر الحج» — وهذان الأخيران قد ألفهما بين سنة ١٨٩٩ وسنة ١٩٠١، أما السفر الذى نحن بصدد تحليله فقد ألفه فى الفترة من ١٣ إلى ٢٠ أبريل (نيسان) سنة ١٩٠١ فى مدينة فياردجيو Viareggio المشهورة على ساحل البحر فى إيطاليا.

لهذا لسنا نرى جناحاً على رلكه أن يلجأ إلى تلك الصور التى قد تبدو شاذة فى نظر أوساط الناس، إذا سلمنا بأن الله هو المعنى الكامن وراء المشاهد والرسوم، وأنه الاحساس الذى يستشعر المعانى العميقة

---

(١) راجعى كتابنا: «شطحات الصوفية»، الجزء الأول، القاهرة سنة ١٩٤٩

لمظاهر الوجود ، وأنه الأمانى التى تطوف بنفوس من يحسون به وتمتلىء أفئدتهم بحضرته . فهنا عملية تصوير من نوع تلك التى يعبر عنها بمبدأ المعرفة المشهور عند أفلاطون وبعض أسلافه من اليونان وهو المبدأ القائل بأن «الشبيه يدرك الشبيه» . فاذا كان الله هو الشعور الذى يعمر قلوب المؤمنين ، وإذا كان الإيمان الحق هو إيمان المحرومين والأشقياء والمعذبين من كل الأنواع ، فالله الحق هو ذلك المتمثل فى مشاعر هؤلاء ، ولن يتمثل لهم إلا على أنه من أشباههم . أفنعجب بعد هذا إذا رأينا رلكه يخلع عليه تلك النعوت ؟!

لكنه تفسير لو أقررنا به لباعدنا بين أهداف الصوفية المسلمين فى قولهم : « إذا تم الفقر فهو الله » ، وبين أهداف رلكه فى هذه الأوصاف . لأن هؤلاء الصوفية إنما يقصدون بالفقر هنا التجرد من كل رسوم الذاتية ، والطمس فى عين الجمع الأحدية بالكلية ، فيستحيل الفقير إلى الألوهية نفسها بوصفها العدم الصافى الأصيل ، أعنى المجرد المطلق من كل تعين ، أو اللامحدود العارى عن كل حد ، لأن فى الحد سلباً وقيداً وتوقفاً .

أما الفقر عند رلكه حينما يطلقه على الله ، فيقصد به الشعور بالفقر عند المحرومين ، والاحساس بالشقاء لدى البائسين ، وفى هذا الاحساس وذلك الشعور مصدر إدراكهم للألوهية .

لكننا نرى عند أحد شراح رلكه المحدثين ، وهو فرنر جنتر Werner Gunther فى كتابه « ملكوت الباطن ، شعر رينر ماريا رلكه » Weltinnenraum: Die Dichtung R. M. Rilkes ، تفسيراً

آخر لله عند رلكه بوصفه الفقر الكامل . فهويقول إن رلكه يقصدمن هذا القول أن يرمز إلى الفنان الخالق لآثاره الفنية ، كما أنه فى كل أحاديثه عن الله إنما يريد أن يتخذ منه رموزاً تدل كلها على الفنان نفسه وهو بسبيل الخلق الفنى . ذلك أن الفنان شبيه بالله فى أنه خالق ينمو عمله أبداً ، ولا يمكن أن يتم أبداً ، إنما هو فى نضوج مستمر ، ونمو يسير فى منحناه المتوثب بين مد وجزر . وهو يحنو على عمله الفنى حنو الرحمن الرحيم على الخليقة .

وهذا تفسير لايخلو من وجاهة كما أشرت إلى مدلول هذا فى مستهل هذه الرسالة ، إذ الشعر العالى يعبر دائماً عن ذات الفنان مهما اتخذ من الخارج موضوعات للعمل الفنى والصور وطرائق الأداء .

لكن هذا التفسير يظل قاصراً عن إدراك المرمى العالى لشعر رلكه . فدون أن نذهب إلى ما يوحى به حديث جبريل مارسل فى بحثه عن « رلكه ، شاهد الروحى[1] » من إمكان تفسير الله عند رلكه بالمعنى الدينى المألوف — وإن لم يصرح مرسل بهذا بوضوح ، فعبارته فى هذا الموضع مائعة تماماً لانكاد نستبين منها رأياً بارزاً — ، فان الأصح أن نفسر الله كما يفهمه رلكه هنا بما ذهبنا إليه منذ قليل وهو أنه الشعور العام الغامض الذى يملأ نفوس المؤمنين الصادقين ، وهم الفقراء والمحرومون والبائسون . وتبعاً لهذا فان تمجيده لهم هو فى الوقت نفسه تمجيد لله ، وتمجيد الله هو تمجيد الفقراء سواء بسواء .

---

(١) نشره فى كتابه : «الانسان الراحل»، ص ٣١٨ ، باريس سنة ١٩٤٤
G. Marcel: Homo Viator

وهذا التمجيد يتخذ صورة « مشاركة » ، بالمعنى الديني لهذا اللفظ communion في المسيحية ، حتى إنه لينتهي إلى نوع من وحدة الوجود المألوفة لدى الشعراء ذوي المنزع الصوفي . فهو في «سفر الحج» يعطينا هذا المعنى على نحو يذكرنا بأشباهه لدى جيته وبيرن وشلي والحلاج وجلال الدين الرومي ، وذلك حين يقول :

« إلهي ! بودي لو كنت حشداً من الحجيج
يسعى إليك في موكب يمشي على رسله
كيما يصبح بضعة عظمى منك :
يا من أنت بستان ذو مخارف عامرة بالحياة .
فان سرت كما أسير ، وحيداً فريداً ،
فمن ذا الذي يلاحظ ذلك ؟ ومن ذا الذي سيراني أسعى إليك » ؟

فهو هنا يصور نفسه نسيما يسري في مناحي الخليقة في سفر صوفي إلى حضرة الحق ، حاملا على أجنحته الوردية أولئك المعذبين في الدنيا ، الذين استطاعوا وحدهم أن يستشعروا الله حقاً ، ذلك أنهم هم مشاهد الألوهية على الأرض .

— ١٨ —

إلى سلوى

صلاة على قبر شاتوبريان

من أعماق باريس الصاخبة صرخت إليك أيها الشارد المتوحد !

طويت صفاء الوادى بروابيه المكللة بالتفاح والأعناب ، وهرعت إلى البحر الصاخب بصخوره ومتاريسه يهزنى الشوق إلى الفناء فى المجهول والاستغراق فى طوايا الصمت الرهيب .

ساحلت شاطئ الزمرد بخضرته الصوفية الساحرة ، وقدمت إليك بنفسى المثقلة بأعباء ما ألقاه فى دنيا الناس .

قلبى الهزيل حملته على كاهلى ودلفت إليك فى إعياء ، كأنى أم تحمل وليدها وقد أعياها ما فيه من أدواء لتقدمه إلى شفاعة العذراء .

ودخلت مدينتك ، سان مالو ، وقد دمر أرجاءها بركان المريخ ، فألفيتها تئن أنين الأبطال وقد صرعهم المصير الجبار .

أهذا هو الثغر الذى أفزع قرصان البحار قروناً تلو قرون ، وصمد لجبابرة المحيط أشم العرنين ، وجاب أبناؤه الصيد فى اليم المجهول فاكتشفوا كندا ونشروا ألويتهم الجريئة فى بقاع لم تطأها أقدام بنى الإنسان ؟ !

المظهر سليم ، والمخبر خرب . فهل هذا وطن تلك الأرواح العالية التى سمت بالروح فى معراج السورة الصوفية الجامحة ، أرواح

لامنيه Lamennais وأضرابك أيها النفس المتقد بنار العشق الحزين ؟ !

أين صليل الناقوس فى بيته ذى السهم المنطلق فى أجواز اللامكان ، وقد تداعى البيت بحريق المتبربرين ؟ هذا الناقوس الذى طالما محدته ، أى رينيه René الحزين ، لأنه الناقوس الذى أعلن قدومك إلى الدنيا ، وتجاوب مع أول دقة من دقات قلبك ، وأذاع فى الإقليم المحيط السرور المقدس الذى غمر أباك ، والآلام والمباهج التى عانتها من أتت بك إلى الوجود ، « فى الأحلام السحرية التى يغرقنا فيها صليل ناقوس الوطن نجد كل شىء : الدين ، والأسرة ، والوطن ، والمهد ، واللحد ، والماضى ، والمستقبل » .

يد المريخ المدمرة قد امتدت إلى الثغر البسام فلطمته بقبضة جبّارة أطاحت بأضراسه وأجرت دمه المقدس فى المحيط المترمل ، وقد فقد عِرْسه البطل الذى طالما دوخ الأبطال .

وكما دفنت أباك فلم يحفل به الغداة إنسان ، فارتعت من هول الإهمال وعدم الاكتراث ، كذلك دفنت الحرب خير ما فى وطنك الشامخ ، فلم أشهد فى العابرين والعابرات والقاطنين والقاطنات غير علائم الانصراف والهزء وعدم الاكتراث .

سرت فى الإفريز الطويل المؤدى إلى قبرك الشارد ، وساءلت الغادين والغاديات : ألا تبكون معى على قلعة البحر المكلومة ؟ — فانصرفوا عنى قائلين : ما لهذا المجنون يرطن رطانة لانعيها .

توقعت أن أشهد مواكب محللة بالسواد ، فلم ألق غير مواكب

العراة والعاريات يجللها التفاهة والبلادة ولا يرتسم في جباهها إلا قسمات الانحلال .

وانتظرت أن أجد نفوساً محطمة من الأحزان تمر على الحصون الجريحة فتذرف على جرانيتها الكابي مر العبرات ، فما راعني إلا زرافات من العابثين بالأمواج والرمال يلعبون ويضجون ويمرحون في استخفاف وخلو من الهم .

ألفيتني وحيداً بين هذه الجموع الحاشدة ، فشعرت أني قد انقلبت ريثيه آخر ، وهرولت متبرماً ساخطاً أسعى إلى الصخرة الكبرى الجاثمة في الجونة قبالة البحر المحيط تبكي وحدها مأساة سان مالو .

صعدت في الصخرة سالكاً درباً لزباً خشناً يتلوى بين الأعشاب والحصى ، وبقايا الاستحكامات الألمـانية المنسوفة تشهد بالمعركة الرهيبة التي جرت هنا فيما بين ٦ و ١٤ آب (أغسطس) سنة ١٩٤٤ بين الحامية الألمانية المستبسلة في الدفاع وبين الجيش الأمريكي المغير ، وكنت أشعر إبان التصعيد كأني أصعد في جبل الزيتون ، إلى أن انتهيت عند الطرف المطل على اليم ، إلى قبرك المتواضع وفي تواضعه كل كبرياء ، البسيط وفي بساطته كل روعة وجلال .

وقفت على قبرك خاشعاً جازعاً ، تجثو عند حجرك الأسمر القاسي أفكاري وخواطري وهي تنساب في مجاري الأحزان ، وتلتئم في إنابة المتبتل الظمآن إلى كأس العدم ، وتنحى طبقات كثيفة من الصدأ الذي ران على جوهره الأصيل ، جوهري أنا ابن الأحزان .

الموج يقرع الصخر قرع الدُّفّ الحزين ، والعشب الشاحب

يستقبل النور كالمسلول المستضحى ولات حين شفاء ، والتراب الباهت يبسم ابتسامة الميت ، ورأسى حاسر تجلله ظلة من الخطايا . فأين أنت منى الآن يا شاتوبريان ؟ !

« قوة الطبيعة وضعف الإنسان ! إن العود من العشب كثيراً مايخترق أصلب المرمر الذى تصنع منه هذه القبور التى لا يستطيع الموتى ، مهما تكن قدرتهم ، أن يرفعوها أبداً ! » .

صدقت النبوءة لنفسك ، أيها المقبور العزيز ! فهذه أعواد الأشنة تتخلل أحجار قبرك المصنوع من الجرانيت القاسى ، وأنت تحتها راقد لاتملك أن تقتلع عوداً من تلك الأعواد الهشة !

« قوة الطبيعة وضعف الإنسان ! » نعم ، أمام قبرك عشت معنى هذه الكلمة الرائعة ، واعتصمت بالتسليم العاجز ، وطامنت من تمردى وكبريائى ، وطويت نفسى على عدمى الأصيل .

أيها القبر الشريد الوحيد !

ألهمنى معنى الخشوع ، فطالما جدفت وتمردت .

أفهمنى صولة الكون ، فكم دفعنى الغرور إلى مصاولته .

دلنى على التوبة ، فقد احترقت نفسى بلهيب الذنوب .

اسكب فى فمى شهد الموت ، بعد أن أفعمته الحياة بالحنظل .

— ١٩ —

إلى سلوى

الهيكل المقدس

غادة ، خليقة بالعبادة ، هذه الكاتدرائية . لهى عذراء ! أى نعيم ، بل أية سكينة يستشعرها الفنان فى أرجائها ! كلما دخل عليها المحراب وجدها عامرة بالجمال ، وفى كل مرة يرنو إليها تزداد فى عينيه روعة .

أى انسجام مأنوس بينها وبين النفس !

لا اضطراب ها هنا ولا عناء ، ولا انتفاخ ولا غلواء ، بل للأناقة العليا كامل السلطان .

وهذا السهم الذهبى ، إلى أى هدف فى السماء ينطلق ؟ وأية سورة فى هذه الانتفاضة التى يرفع بها المعمار إلى أعلى عليين !

* * *

السماء موشاة بنثار من السحائب كأنها سبائخ القطن الوردى ، ونسائم الصباح الضاحى تتهادى عبر السين من جبل سانت جنفياف . والواهمون من طلاب العدالة يتدافعون فى قلق لهيف على أبواب « قصر العدل » . ومن « الباب الضيق » عن يسار المقبل أمام واجهة القصر دلفت إلى الفناء عسانى أظفر بالنجاة فيه ، فوجدتنى فى حرم هذا

« الهيكل المقدس » Sainte-Chapelle فى تمام جلاله كأنه ثريا رائعة من البلور النبيل .

بناء أنيق غائر قليلا عن مستوى الفناء ، وله طابقان متمايزان فوقهما سقف هرمى ، تبرز مفاصله بقوة فى دعائم طولية Contre-forts تضفى عليه ما يشبه حجر المرجان ، وكل زوج منها تعلوه قوس فوقها أخرى مثلثة قوطية .

والكل يتصاعد فى وثبة واحدة ينهض بها السهم الرائع ، هذا السهم الذى أعيد بناؤه الشامخ المتصاعد ثلاثة وثلاثين متراً فوق السقف ، أعاده المعمار لسوس Lassus فى القرن الماضى مستوحياً صورة محفورة قديمة ؛ ولكنه لايزال يحتفظ بطابعه القوطى العريق . وقد صنع من خشب الأرز — الأرز الحبيب إلى قلبينا ، يا ابنة الأرز — ثم كسى بالرصاص وزين بالدمى التى تصور الملائكة وهم يحملون أدوات عذاب المسيح ، ومعهم الحواريون .

ودخلت الكنيسة فألفيتنى فى جو رهيب : ظلمة مثيرة تتخللها الأسرار وترتق فى أرجائها الأشباح ، وزرقة خارقة يناظرها لون ذهبى براق ، وكلاهما يملأ الفراغ بالتهاويل التى لم تكن النفوس فى العصر الوسيط تستريح إلا إليها . ويتخلل المكان صفان من الأعمدة التى ترتكز عليها عضلات القباب . وعلى الجدران تستقر أقواس ثلاثية الفصوص . وللأعمدة تيجان تزدان بأوراق شوكة اليهود . وفى رصفة الأرض أحجار قبور من القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ترقد تحتها عظام الحراس والكهان . والسقف ذو المراوح المثلثة يفض صحائفه المرقشة بأزهار الزنابق ، رمز الملكية فى فرنسا .

نعم ! هذه الكابلة السفلية تبدو كأنها مروحة أسبانية رائعة فاخرة زاهية الألوان تنشرها غانية سمراءاشبيلية رف عليها الحلى الذهبي وبرزت فى تمام جلوتها . ولكم تمنيت أن أسجد فى محراب هذه الكابلة وأتعبد هذه السمراء الأشبيلية ، كما تعبدت لداتها من بنات حواء فى أسبانيا ! لكن كيف التعبد والزائرون والزائرات يزحمون بالأكتاف ، والدليل يستحث بصوته الجهورى ونكاته الثقيلة لإخلاء المكان لأفواج القادمين !

فصعدت — متبرماً — السلم اللولبى الضيق الذى يعلو إلى الكابلة العليا .

آه ! أى جو عجيب يفيض بالنور فى هذا المكان الساحر ! وما هذه الجوقة من الألوان التى توزعت الآلات اللونية والضوئية واندفعت تعزف أروع سمفونية من الألوان والأضواء شاهدتها عيناى؟! أين طلاب التهاويل الخارقة فى الجنان التى وعد المتقون ليدخلوا الجنة التى حلموا بها ، يدخلوها وهم فى الدنيا ؟ !

أيتها الشمس المتألقة ، تلاعبى بالألواح الزجاجية ، فهذا عيد النور !

أيتها الزرقة العميقة ، ضميني فى تلافيف موجاتك الكابية ، فنفسى ترتاح إلى العدم العميق !

أيتها الحمرة الوالهة ، أشعلى الشرارة المقدسة واحضأى جمرة العشق تتقدْ فى قلبى المغمور بالظلمة !

نفسى تفر منى ، ودموعى تنعقد لؤلؤاً منثوراً فى بحر الخيال الذهبى ، ورفيقتى الزرقاء العينين ، المحمرة الوجنتين ، الذهبية الشعر

الحفال المسترسل إلى خصرها تحدجنى بنظرات الغيرة الناعمة .

هذه الكابلة العليا لا جدران حقيقية فيها : بل نوافذ عالية متوالية تشغل مساحة قدرها ٦١٥ متر مربع ، تتركب من زجاج ، والزجاج من قطع صغيرة من الزجاج الملون المقتطع حسب النماذج والمتصل بصفائح من الرصاص الغليظ ، وكلها تمثل مناظر محاطة بأنواط مشدودة فى مسلح من الحديد متنوع الأشكال : مربعات ، ودوائر ، ومعينات ، وأشكال بيضاوية ، وذوات فصوص ثلاثية وأخرى رباعية . والأساس اللونى فيها جميعاً هو الأزرق ، أما الموضوعات فقد تعاورتها ثلاثة ألوان بسيطة : الأزرق ، والأحمر ، والأصفر ، ثم خمسة ألوان مركبة : اثنان بنفسجيان ، واثنان أخضران ، والأبيض المخضر .

أجل ! فى نوافذ المساجد نشاهد هذه الألوان ، ولكن شتان مابين هذين الفنين ! إن بينهما ما بين الثرى والثريا ، حقاً لا مجازاً . فأين القطع الغليظة التافهة من الزجاج الملون فى نوافذ المساجد ، من هذه القطع الدقيقة التى أبدع فى تركيبها كل إبداع فأخرجت رائعة فنية كأنها لوحة رسام صناع ! ليست العبرة بالمواد ، بل بالتركيب ، وكل كلام لايتركب إلا من أحرف الهجاء : لكن بالأحرف نفسها يتركب أعلى كلام وأسقط كلام . وهذا هو الأمر هنا فى الفارق بين الألواح الزجاجية فى المساجد الإسلامية كلها لا أستثنى منها مسجداً واحداً ، وبين الألواح الزجاجية فى هذه الكاتدرائيات القوطية المسيحية ! خصوصاً فى كنيستنا هذه وفى شارتر ، وفى نوتردام دى بارى ، وفى كاتدرائية بورج Bourges : الأولى كلام يكتبه أطفال جهلة عابثون ،

والثانية كلام رائع عال لا يكتبه إلا أعقل العقلاء وأحكم الحاكمين .

نعم ! هذه الألواح الزجاجية كلام الله فى الزجاج .

فليت شعرى ماذا كان سيكون جمال هذه الألواح الزجاجية فى السانت شابيل هذه لو كانت الألواح القديمة بقيت سليمة لم تمتد إليها يد الأحداث المدمرة ! لقد عبثت بها الأيام ، فلم يبق فى القرن التاسع عشر حين أعيد صنعها غير ٧٢٠ موضوع من بين ١١٣٤ موضوع كانت فى النوافذ الأصلية ، وتبدلت مواضع بعضها . لهذا نهض سسون Susson واشتينهيل Steinheil بعبء إعادتها وردها إلى مواضعها الأولى بعد إصلاح ما فقد منها .

ثم رحضت الدهشة عن عيونى وتأملت معمارها : حزم من الأعمدة السامقة المرهفة تتواثب دفعة واحدة إلى القباب فى ارتفاع يبلغ اثنين وعشرين متراً ، ومع هذا فما أعجب الموازين فيها ! لايزال التوازن محتفظاً بكل رسوخه وجلاله بالرغم من هذه الوثبة الرائعة فى أجواز الفضاء ! وفوق هذه الحزم تتجلى القباب المزدانة بالأزهار الذهبية والنجوم فى أرضية زرقاء . ويستند إلى الأعمدة تماثيل ضخمة للحواريين تنهض على قوائم مفلطحة consoles ذات نحوت ورقية ،ويجللها سقائف مخروطية ذات طبقات من النحوت .

ثم رحت أتأمل موضوعات الألواح الزجاجية — وكلها منتزعة من حوادث دينية : فالنافذة الرئيسية فى المحراب رسمت عليها مناظر أهم حدث فى الحياة الدينية المسيحية : عذاب المسيح ، وقيامته ، وتجلياته . وفى النوافذ المجاورة مباشرة تتوالى مناظر من : حياة العذراء ،

وطفولة يسوع ، وسيرة يوحنا الانجيلى ويحيى بن زكريا . وفى نوافذ المحراب الأخرى مناظر خاصة بالأنبياء الأربعة الكبار فى «العهد القديم» : أشعياء ، وشجرة نسب يسا ، ودانيال ، وحزقيال ، وأرميا . وفى نوافذ فُلْك nef الكنيسة تتوالى مشاهد من « العهد القديم » : من ناحية الشمال (ناحية قصر العدالة) : سيرة آدم وحواء ، ونوح ، ويعقوب ، وموسى ، ويوشع ، وشمشون ، ومن ناحية الجنوب (ناحية جسر سان ميشيل) : سيرة طوبيا ، ويوديت ، وأيوب ، وأستير ، وصمويل ، وداود ، وسليمان . وفى أول نافذة فى المجرى ناحية الجنوب مشاهد تروى نقل ذخائر عذاب المسيح واستقبال القديس لويس لها .

ذلك أن الدافع الذى دفع لويس التاسع ، هذا القديس التقى ، إلى الأمر بتشييد هذه الرائعة هو مناسبة ممتازة ، هى أن كثيراً من الذخائر الباقية من الأدوات التى استخدمت فى تعذيب المسيح على يد اليهود كان — فيما يزعمون — باقياً محفوظاً عند امبراطور القسطنطينية : تاج الشوك ، وقطعة من الصليب الأصلى ، والرمح الذى ضرب به ، والاسفنج الذى شرب منه الحنظل ، والمسامير التى سمر جسمه بها ، وغيرها من أدوات عذاب المسيح . وكان إمبراطور القسطنطينية فى ذلك العهد قد اقترض مبلغاً ضخماً من رجال فينيسيا ، ورهن فى مقابله بعض هذه النفائس « المقدسة » . فلما جاء إلى فرنسا سنة ١٢٣٩ تفاهم معه القديس لويس ملك فرنسا ليقوم هو بدفع دينه ، وفى مقابل هذا يقتنى هذه النفائس المقدسة .

وذهب راهبان من الدومنيكان لاستلام تاج الشوك الموجود فى القسطنطينية . فخرج للقاء هذا التاج الملك لويس وأمه بلانش القشتالية وإخوته وجمع من الأمراء ورجال الدين ، فانتظروه فى قرية فيلنيف لرشفك Villeneuve - l'Archevêque بالقرب من صانص Sens . وبعد تسعة أيام دخل هذا الموكب الحافل مدينة باريس ، وكان لويس التاسع يسير فى الموكب حافى القدمين حاملا بنفسه تاج الشوك . فيالها من سذاجة مقدسة ! أما قطعة الصليب الأصلى فقد جىء بها من الشام من لدن فرسان المعبد ، ووصلت باريس فى سنة ١٢٤١

ماذا يفعل الملك الورع بهذه النفائس التى لاتصاب لها قيمة فى عيون هذا العاهل العامر القلب بالتقوى؟ لابد لها من معبد جدير بها . فأمر بانشاء هذا المعبد فى سنة ١٢٤٣ وتم بناؤه فى خمس سنوات ، ففى ٢٥ نيسان(ابريل) سنة ١٢٤٨ دشن إيد دى شاتورو Eudes de Châteauroux ، المندوب البابوى ، الكابلة العليا ، بينما قام بروييه Berruyer ، أسقف بورج ، بتدشين الكابلة السفلى . ومنذ ذلك التاريخ والكابلتان تقام فيهما الصلوات : فى العليا يحضر الملك وأسرته وحاشيته القداس الذى يحتفل به فى روعة وبساطة معاً ، وفى السفلى يحضر الخدم والأتباع وكذلك الجمهور .

لكن هذا المعبد ، برغم قداسته وحراسة نفائسه المقدسة ، قد تعاورته أحداث رهيبة لم يحمه منها شىء ! فأصيب السهم فى عهد شارل السادس وأعيد بناؤه ، كما أعيد مرة أخرى فى عهد شارل السابع .

وفى عهد شارل الثامن وقعت أضرار أدت إلى إعادة الوردية الكبرى والأجزاء العليا من الواجهة . وفى ٢٦ تموز (يوليه) سنة ١٦٣٠ شب حريق فى السقوف فاحترقت القوائم كلها وتداعى السهم ، وانصهر الرصاص فتدفق كالسيل فى داخل الكابلة .

ثم كانت الثورة الفرنسية فأصابها ما أصاب لداتها : خربت ثم سلبت منها نفائسها فى سنة ١٧٩٠ وجردت من تماثيلها . وهنالك أصبحت ملكاً للأمة وأعلن عن بيعها . وفكر القوم حيناً فى هدمها ، ثم عدلوا عن الفكرة ، واشتراها من جعلها مخزناً للدقيق . ثم أصبحت الكابلة العليا خزانة للمحفوظات القضائية ، وربتت لتفى بهذا الغرض ، أعنى لتصنيف أضابير القضايا ، فوضعت أدراج وقماطر دعت إلى هدم الألواح الزجاجية على طول مترين .

ولكن المعبد الشهيد سرعان ما وجد منقذيه ، بعد أن تقلص ظل شيطان الدمار المجرم الذى أطاح بعقول رجال الثورة الفرنسية . فبدأ القوم فى إعادة تشييدها وعمارتها فى سنة ١٨٣٧ ، حتى استعادت قديمها الرائع بفضل ديبان Duban ولسوس Lassus ، وبفضل ذلك المخلص الأكبر لآثار العصر الوسيط ، أعنى فيوله لوديك Viollet-le-Duc وبوزفلفلد Boeswillwald

تلك قصة دامية تكرر وقوعها لأروع آثار المعمار القوطى فى فرنسا ، وغير فرنسا ، وإن كانت فى فرنسا أظهر منها فى غيرها من البلدان . وتلك آفة هذا المعمار الرفيع : فالمعمار القوطى يدفع ثمن جرأته فى تحدى الثقل ورشاقته الهائلة وانطلاقه الطائش الرائع ، يدفع ثمن هذا كله تلك الكوارث الدامية التى عكرت صفو الأحساس العذبة التى استشعرتها فى هذه الرائعة الكبرى ، فخرجت من هذا المعبد ، السانت شابيل ، تظللنى غمامة من الهموم .

— ٢٠ —

إلى سلوى

في طريق راسين إلى دير بور رويال

ستغضبين اليوم لما أرويه، لأن براءة الإيمان الساذج يشق عليها أن ترى الأيدى التى فرض فيها الخير ملطخة بدماء الشر والتدمير. وكم كنت أزعم لك أن هذه الطائفة المتدثرة بالمسوح السود، والتى تمسك بمخنق وطنك العزيز فتغتال أرواح الناشئة، وتبث فى بدن الأمة جراثيم العلل المستعصية منذ أن وطأت أقدامها جبلك الأشم قبيل منتصف القرن الماضى، حتى أضحت قلعتها الرهيبة الجاثمة فى قلب بيروت مستودع أسلحة الدمار ومنبت غير الأبرار — أقول: كم كنت أزعم لك أن هذه الطائفة هى شر طائفة أخرجت للناس: تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف، وتبث الأحقاد، وتتغذى بقوت النفوس البريئة لتنقلب عليها الغداة وحوشاً كاسرة.

وكنت، وأنت المطعمة بجرثومة تنشئتهم، تثورين علىّ وتتهمينى بالغلو، شأنى فى كل شىء فيما يحسب الناس. وكنت أنا أتلقى غضبتك فى الدفاع عنهم بابتسامة الواثق من إنابتك إلى الصواب، حينما تبرأين من آثار تلك الجرثومة التى أشهد لهم بالبراعة فى إنفاذها فى نفوس النشأ البريئة. وكان الأمر بينى وبينك سجالا فى الظاهر، لأن الحوار كان يدور حول أمور دقيقة يدق عن وجدانك الجامح إدراكها.

أما اليوم فسأدع الأحجار نفسها تتكلم ، بل تصرخ كما تقول العبارة اللاتينية : lapides ipsi clamabunt

كانت الشمس رأد الضحى ، والضفادع تنق فى جدول الإيفت، والزنابير تطن بين الكروم المترامية على سفوح الروابى . وكانت الخمائل الظليلة تلطف حرارة القيظ وأنا أسلك سبيلى صعداً من قرية شفريز الناعمة فى حضن الوادى حتى قصر المادلين الذى أنبأتك نبأه من قبل .

حتى إذا ما بلغته وطوفت بأرجائه وصعدت برجه متأملا الوادى الرائع ، وقفت عند الصوة الأولى التى يبدأ بها سبيل راسين . وكنت قد عقدت العزم على سلوك هذه السبيل الفاتنة التى كان الشاعر الكلاسيكى العظيم ، جان راسين Jean Racine ، يسلكها ، لما أن كان تلميذاً لدى رهبان بورروبال ، حينما يقدم لزيارة ابن عمه نقولا فيتار Nicolas Vitard المشرف على إقطاع دوق لوين Duc de Luynes. كما كان يسلكها كذلك سنة ١٦٦١ لما أن كان يسكن قصر المادلين Madeleine حين كان يذهب لزيارة جدته وخالته الراهبتين فى دير بورروبال .

بدأت السير وأنا أردد الأبيات الأربعة التى عبر بها راسين عن أثر هذه المنطقة فى نفسه ، ونقشها القوم على تلك الصوة الأولى القائمة عند قصر المـــادلين :

« أى سرور يملأ جوانحى فوق هذه الجبال
التى تصاعد حتى السموات
فتكلل باكليل أنيق
هذه المروج الجميلة » .

وكنت أتواثب فرحاً بهذا العيد الحافل بعناصر الطبيعة ، دون أن أعلم أية مرارة تنتظرنى عند نهاية الطريق . أقتطف الغصون الناتئة على طول الطريق ، وأتلاعب بالحصى ورفيقتى التى تصحبنى ، وأبادلها البسمات والنظرات الناعمات الموحيات حين يشعر كلانا أو أحدنا بالإعياء ، وأستهديها كفيها الرقيقتين لنتعاون على السير ، أستهديهما متظاهراً بالتعب ابتغاء أن ألمس فى الواقع أناملها الرخصة — ولا تثريب علىّ فى الاعتراف بهذه الأمور كلها لك أنت أيتها الحبيبة ، فما رسائلى هـــذه إلا اعتراف بالخطـايا والكبائر التى ارتكبتها أنا وتوقعتها أنت ، والاعتراف الكامل آية الإخلاص الكامل وعربون الحب الكامل وشرط التوبة المرجاة — أليس على هذا اتفقنا أيتها الروح الملائكية ؟ نعم عليه تعاهدنا . لأننا طلقنا النفاق ، وتركنا لغيرنا من الناس أن يتعاملوا بهذا النقد الزائف الرائج وحده فى دنيا الناس .

وكان الصمت الماكر يتخلل فراهاتنا الشيطانية بين الحين والحين ، ولا يقطعه إلا أصوات الأرانب الجبلية وهى تعدو مسرعة بين النبت الأشب ، فتنبه فينا نزوة المطاردة ، لايردنا عنها إلا البطاقات التى نقرأها بين الفينة والفينة معلقة على الأشجار معلنة أن : الصيد حرام ! chasse gardée ، وكان الدلال الرقيق يحمل صاحبتى على أن تشير بسبابتها ، حين أحتوشها إلى حبالتى ، إلى تلك البطاقات وتقرأ ضاحكة بثغرها الوردى اللؤلؤى : الصيد حرام ! chasse gardée وكم لازمنى سوء الطالع مراراً عدة ، فما هممت باقتناص الفريسة حتى

برزت أمامى تلك البطاقة اللعينة ، ولولا ارتفاعها وهى معلقة فى الشجرة لالتقطتها ودستها تحت أقدامى ! وكان تعاقب الصدف القاتلة لنشوتى يزيدها غبطة بانتصارها وينمى حرارة الشوق المتأجج فى قلبى الولهان . فما كان أتعس حظى !

ثم انثنينا قليلا عن طريق راسين لنتناول غداءنا فى قرية سان لانبير Saint-Lambert فاخترنا مطعماً ممتازاً على الطريق العام ، هو مطعم « الترحاب » Hôtel Bon Accueil ، فطعمنا هنيئاً تحت أعنابه وتينه فى الشرفة المطلة على قارعة الطريق . وما أخذنا قسطنا من الراحة حتى عدنا نستأنف السير فى طريق راسين : نلتزم نهر الرودون Le Rhodon ونجوس خلال رابية المولريه Mollerais ، والغابات السامقة تثير فى النفس أسراراً رقيقة يوحى بها الحور والصفصاف . ولكنها خلت من تلك «القطعان الشاردة» التى أوحت إلى راسين قصائده الوصفية وهو فى ميعة الصبا : « المنظر جملةً » ، « المروج » ، « صراع الثيران » . . . .

كنت إذن مرحاً طروباً أداعب رفيقتى مسلوبين بنشوة المناظر الرائعة التى افتنت فى إظهار روعتها عصر ذلك اليوم الضحيان ، ولم أكن أعلم أية مأساة دامية تنتظرنى عند غايتى التى سعيت إليها .

ثم بلغت باب الدير ، فياويلى مما رأيت !

تلفت يمنة ويسرة أساءل المكان عن الدير الذى أتيت ورفيقتى حاجين إليه ، فلم أحظ بجواب ، اللهم إلا حفيف الأوراق فى مخارف

الحور والسرو والبندق . ثم لمحت جوسقاً صغيراً وجدت عليه لافتة تقول : من هنا يؤخذ الدليل : الدليل الكتابى والدليل الحى . فانتظرت حتى أتى بعد أن فرغ من دلالة جماعة سبقتنا . — واقتادنا الدليل .

كم كانت نبراته موثرة يكاد يخنقها البكاء المحتجز وهو يروى لنا القصة الدامية ! وكم كنا نغالب عيوننا العبرات وهى تنحدر قسراً عنا !

راح الدليل يقول :

هذا الدير الذى لاترون منه أثراً باقياً غير هذه الحجارة الضئيلة المتناثرة وذلك البرج الخاص بالحمام ، هذا الدير عريق يعود بأصوله الأولى إلى مستهل القرن الثالث عشر ، أقيم فى هذه الأرض التى كانت تسمى باللاتينية Porregius ومنها جاءت الكلمة Port-Réal أو Port-Royal (: الباب الملكى) التى أطلقت عليه منذ ذلك العهد . ومرت به الأحداث طوال أربعة قرون ، إلى أن أصبحت رئيسة الدير فيه فتاة فى الحادية عشرة وذلك فى سنة ١٦٠٣ . لكن تشاء العناية أن تلهم هذه الغادة رسالة إصلاح الدير التى بدأت العمل فيها سنة ١٦٠٨ . وهذه الفتاة ، بل الطفلة ، هى الأم انجليكا أرنو Angélique Arnauld التى جابهت كل العقبات واندفعت فى طريق الإصلاح بشجاعة وتقوى جعلتاها تضم رعية ضخمة من العذارى القانتات : فبعد أن كان عددهن فى الدير سنة ١٦٠٢ اثنتى عشرة فتاة غارقات فى الجهل والإثم ، يهديهن رهبان جهال أشرار فساق ، استطاعت الأم انجليكا أن تجمع فى الدير أكثر من مائة عذراء جعلت نسكها وتقواها لله وحده ، يقتادهن فى حياة التقوى نفر ممتاز مثل سان سيران Saint-Cyran

وسانجلان Singlin والشيخ دى ساسى Maître de Sacy ، ثم خصوصاً أنتوان أرنو Antoine Arnauld وهو شقيق الأم أنجليكا . وسرعان ماذاعت شهرة هذا الدير الذى كان مؤلفاً من الراهبات فحسب ، مما شجع الرهبان على الخلوة بجوارهن ، فجاء الرعيل الأول من الرهبان المتوحدين فى سنة ١٦٣٧ ، وأنشئت فى سنة ١٦٤٣ المدارس التى عرفت بالمدارس الصغرى Petites écoles .

وانتشر أريج التقوى من الدير المتوحد ، وأقبل المؤمنون من شتى البقاع لينعموا ببركة السماع إلى القداسات التى يحتفل بها فى كنيسته الضخمة ، ويستشعروا مس التقوى والورع فى الأناشيد الدينية المؤثرة التى برع فى إنشادها هذا الحشد الممتاز من الأصوات النسوية الناعمة الحلوة . وأقبل المؤمنون كذلك على كتب التقوى التى ألفها شيوخ بور رويال فى لغة جميلة وبنبرات تفيض ورعاً ووجداً ، أين منها تلك المتون الجافة التى كتبها اليسوعيون فى لغة غثة وبروح غليظة تثير كل نفور !

هنالك أذّن إبليس الطريقة اليسوعية — وما أكثر ما فيها من الأبالسة المتظاهرين بوداعة الحملان — بالحرب الشعواء التى لا رحمة فيها ولا اعتبار للوسيلة ، شأنهم دائماً فى كل معاركهم مع الخصوم — أليسوا هم الذين جعلوا شعارهم : الغاية تبرر الوسيلة ، وغايتهم الوحيدة احتكار الدين والدنيا لأنفسهم هم وحدهم ، والاستبداد الغاشم بالنفوس البريئة التى يقدر لها سوء طالعها أن تقع لهم فريسة . إنهم لايسمحون أبداً لأحد بالحياة إلى جوارهم ، فالويل كل الويل لمن تسول له نفسه

أن يسعى فى الخير والهداية والتقوى والنور بين قوم يربض اليسوعيون بين ظهرانيهم ! وهم واثقون من الظفر بالنجاح مقدماً فى حروبهم هذه لأنهم يتذرعون بوسائل الإثم والبغى والإفك فى صراعهم مع الأطهار والأبرياء والأخيار الأبرار. ومتى انتصرت الفضيلة على الرذيلة بوسائل الفضيلة !

فأقسم اليسوعيون ليثيرن الدنيا ويقلبوها على رؤوس هؤلاء المساكين من أصحاب بور رويال الذين سولت لهم أنفسهم العمل لهداية الناس سواء السبيل . ولكن اليسوعيين قوم ماكرون خرّاجون ولاجون يبدأون اغتيالهم بدس السم ، شأن الجبناء والنساء . فراحوا يقلبون صفحات الكتب النفيسة التى ألفها أصحاب بور رويال عساهم أن يجدوا فيها تعلات يستندون إليها فى مؤامراتهم التى كانوا بسبيل تدبيرها . وظنوا أنهم قد وجدوا ، سنة ١٦٤٣ ، ضالتهم الضالة فى كتاب أنتوان أرنو عن « وفرة التناول » **La Fréquente communion** ، وراحوا يصيحون بالويل والثبور ليجدوا فيه عبارات يمكن أن تكون موضوع إدانة . ومكروا مكرهم ثم رفعوا الأمر إلى البابا فى روما ، فلم يجد فى الكتاب بعد فحصه ما يمكن أن يكون موضوع ملام . فضاعت مؤامرات اليسوعيين هذه المرة، ولم تُجدْ حتى فى وضع اسم الكتاب من بين الكتب التى لا يوصى بقراءتها .

ولكن اليسوعيين ، الذين لا يعرفون للحياء معنى ، ولا للهزيمة الفاضحة مدلولا رادعاً يردهم عن أحلامهم الطائشة ، أجمعوا أمرهم طوال عشر سنوات يمكرون ويدبرون المكائد ، منتظرين الفرصة

السانحة التي يضربون فيها ضربتهم القاضية ، وانتظروا إلى أن سنحت هذه الفرصة فى سنة ١٦٥٣ . فى ذلك الحين كتب أسقف فلمنكى يدعى جنسنيوس Jansénius كتاباً ضخماً باللاتينية وسمه باسم «الأوغسطينى» Augustinus ، فيه هاجم الضلالات التى وقع فيها مولينا Molina اليسوعى الأسبانى الخطير ، مستنداً فى حجاجه ضد مولينا إلى أقوال القديس أوغسطين . فهاجم اليسوعيون كتاب جنسنيوس هذا . لكن انبرى للدفاع عنه أنتوان أرنو ، فاهتبل اليسوعيون هذه الفرصة ليستخدموا سلاحهم الفتاك : سلاح الإفك والدسيسة والتقول على الناس بما لم يقولوه ومحاولة إرغامهم على الاعتراف بأنهم قالوا ما لم يقولوه !

هنالك قام يسوعى هرم ، هو نقولا كورنيه Nicolas Cornet فاخترع خمسة أقوال ضالة ، هى التى عرفت من بعد بالأقوال الخمسة لجنسنيوس المزعوم ، وهى من جنسنيوس براء ، إنما هى أقوال صنعها ذلك اليسوعى الماكر مستعيناً بألفاظ ورد بعضها فى كتاب جنسنيوس ، ولكن العبارات نفسها لم تردفيه ولا معناها . ورفعوا الأمر إلى روما ، بوصفها أقوالا وضعها جنسنيوس نفسه ، فحكمت روما عليها بالضلالة منسوبة إلى جنسنيوس . وبحيلة من حيلهم البارعة أرادوا أن يفرضوا على الناس أن جنسنيوس قالها فعلا فى كتابه ذاك . فاستعانوا بالبابا وبيلاط لويس الرابع عشر ليفرضوا بالقوة والجبروت أنها موجودة فعلا فى ذلك الكتاب . وكان غرضهم من هذا كله أن يتخذوا هذه الإدانة وسيلة لإدانة أرنو وأصحابه ممن دافعوا عن هذا الكتاب . وكان لهم ما أرادوا .

قال لهم أصحاب بور رويال : هذه الأقوال الخمسة نحن ننكرها ، لأنها بدع وهرطقة ، لكننا لانعترف بأنها موجودة فى كتاب جنسنيوس ، بل نجد فيه أضدادها . فأين هى فى هذا الكتاب إن كنتم صادقين ؟

واليسوعيون لايجيبون بل يرددون فى لهجة الآمر المتغطرس : اعترفوا بأنها موجودة فعلا فى الكتاب .

وعبثا يرد عليهم أصحاب بور رويال : بينوها لنا ، ونحن نقول معكم إنهـا فيه .

ولم يستطع اليسوعيون طبعاً أن يبينوها فى كتاب جنسنيوس . ولكن ماقيمة صرخة الحقيقة أمام سيف السلطان الغاشم ! وما قيمة صراخ البرىء طالباً العدل فى ساحة الذئاب الضارية ، ساحة قصر لويس الرابع عشر الذى سيطر عليه اليسوعى الشيطان الأب لاشيز P. de la Chaise متلقى اعترافات لويس الرابع عشر — وأى اعترافات تضج بأفحش الخطايا وأكبر الكبائر ! — وماحيها من لوح ذنوبه ! !

أفلح اليسوعيون فى مؤامرتهم الغادرة القادرة القائمة على الإفك ، فانهالوا على فرائسهم البريئة يكيلون لها التهم الكاذبة : اتهموا أصحاب بور رويال — وقد أطلقوا عليهم اسم الجنسنيين **Jansénistes** فأصبح علماً على كل ملحد فاسق — بأنهم عقدوا العزم على هدم المسيحية ليستبدلوا بها نوعاً عجيباً من التأليه ، وأنهم ينكرون الطقوس الدينية وبخاصة طقس تناول القربان المقدس ، وأنهم لايحترمون العذراء المقدسة ، وأنهم متمردون على كل سلطة لايريدون إطاعة ولى الأمر : البابا والملك — وفى هذه التهمة الأخيرة يبدو خبثهم الوضيع : فهم

يرمون من ورائها إلى تأليب السلطتين الروحية والدنيوية على هؤلاء الأبرياء . والسلطات الغاشمة تتملق الأثرياء البغاة الأشرار وتُجْهز على الضعفاء الأبرياء الأطهار . فكان طبيعياً أن تنحاز البابوية والملكية إلى صف اليسوعية — أليسوا جميعاً أحلاف الشيطان ؟ !

وألح اليسوعيون فى طرق باب الملك المستبد مزورين له هذه الحملان الوديعة ، أصحاب بور رويال ، بأنها وحوش كاسرة تريد أن تنقض على عرشه وأن تقضى على حياته ! ! والملوك الطغاة سماعون للإفك ، تطيش أحلامهم — إن كانت لأمثالهم أحلام رزينة — إن سمعوا كلمة : المؤامرة على حياتهم أو عرشهم ، فيبطشون فى غير تعقل ولا تمييز بين الصدق والكذب . وقد استعان اليسوعيون فى دسائسهم هذه بعناصر نسوية فى القصر كسبوها لقضيتهم الباطلة. وأى شىء لا يبلغ إليه بنات حواء لدى أمثال لويس الرابع عشر !

وشر البلايا أن البابا ألكسندر السابع أرسل صيغةً فرض على راهبات دير بور رويال أن يوقعوها ، فيها أن تلك الأقوال الخمسة موجودة فعلا فى كتاب « الأوغسطينى » لجنسنيوس . فرفضن لأنهن لم يجدنها فى الكتاب . فاتهمن بالعصيان لأن الطاعة العمياء تقضى عليهن بأنه : « إذا قال لهن الأسقف إن الدرجات البيض فى هذا المذبح سود فيجب أن يؤمنّ بصحة دعواه » . وهذا قول قد قاله فعلا أحد كبار رجال الكهنوت فى باريس للأخت بريكيه Briquet فأجابته بكل شجاعة وحكمة : « لكن هذا الاعتقاد لا يغير من لونها ! »

وهنا ملحة لطيفة تروى فى هذا المقام ، هى أن سائلا سأل طاهياً

يعمل عند جماعة اشتهرت بأنها جنسينية : ماهى البدعة الجنسينية؟ — فأجاب الطاهى : افرض أن إنساناً طلب إليك أن تقسم أن فى جيب جارك خمس بيضات لم ترها فى جيبه — فهل تقسم على هذا ؟

— كلا !

— تلك إذن هى البدعة الجنسينية !

وفى هذه الملحة البارعة خلاصة القضية كلها .

أفلح الزبانية إذن فى مكائدهم . فأغلقت المدارس الصغرى التى نشئ فيها كبار الأدباء والعلماء من أمثال راسين وبوالو وبسكال سنة ١٦٥٦ ؛ وألقى بالرهبان والمتلقين للاعتراف فى غيابة سجن الباستيل الرهيب ؛ ومن نجا فقد لاذ بالفرار أو اختفى فى مكان سحيق . ونفيت الراهبات وسجن اللواتى منهن رفضت التوقيع على صحة الأقوال الخمسة : إذ أسرن فى الدير حتى سنة ١٦٦٩ . ولما أن تولى كليمانس التاسع كرسى البابوية أراد أن يوفق ، فوعد اليسوعيون بأن يعيشوا فى سلام وتفاهم مع خصومهم . لكن متى كان لليسوعى عهد أو ذمة؟! لم تكد دوقة لونجفيل Duchesse de Longueville تلفظ أنفاسها الأخيرة — وكانت حامية الدير — حتى نقض اليسوعيون عهدهم واستأنفوا حربهم الآثمة حتى ظفروا ببغيتهم التى طالما دبروا من أجلها . إذ استصدروا من البابا كليمانس الحادى عشر فى سنة ١٧٠٩ بمعاونة لويس الرابع عشر أمراً بابوياً بالغاء الدير . فأرسل الملك — « الملك الشمس » كما يزعمون ! ولو أنصفوا لسموه : الملك الظلام — جحفلا من الشرطة يبلغ ثلاثمائة من المسلحين الأشداء على رأسهم مأمور الشرطة فوابيه دارجنسون

Voyer d'Argenson وقبضوا بالقوة على ثمانين راهبة ، وأعملوا السلب والتخريب فى الدير البائس .

وأراد اليسوعيون أن يختصوا أنفسهم بالغنيمة فيستولوا على دير بوررويال القائم فى ربض سان جاك ، ليقيموا فيه معهداً لتفريخ أفاعيهم . فاهتاج أصحاب معهد سان سلبيس – ذلك الذى حدثتك عنه فى مطلع رسائلى ، أى سلواى العزيزة – لهذا المنافس الخطير الجديد ، فاستعانوا بالعصا السحرية ، المرأة ، وهى هذه المرة مدام دى مانتنون خليلة لويس الرابع عشر المفضلة آنذاك . فأفلحوا فى منع اليسوعيين من إجراء تلك المقايضة التى كانوا يبغون منها أن يدعوا – موقتاً طبعاً انتظاراً لضربة أخرى – لراهبات بور رويال فى باريس دير بور رويال فى خارج باريس وهو ديرنا الذى نتحدث عنه ! انتصر إذن أصحاب سان سلبيس على اليسوعيين لأنهم استخدموا نفس السلاح الذى يستخدمه هؤلاء الأخيرون ! ! فهل من عجب بعد فى هذا الانتصار ؟ ! وكانت نتيجة هذا الانتصار – المزدوج فى الواقع لكلا الفريقين – أن أمر الملك بهدم دير بور رويال دى شان – ديرنا هذا – هدماً تاماً . وسرعان ما انهالت المعاول هدماً فى كنيسته الكبرى والمنازل المحيطة وعدتها ثلاثون منزلا ، وسويت كلها بالتراب وجرى من فوقها المحراث . فلم يبق من هذه العمائر العتيقة كلها شىء .

أستغفر الله ! بل بقى شىء واحد هو برج الحمام الذى كان يسع خمساً وعشرين ألف حمامة ؛ بقى لأن كرش لويس الرابع عشر ضج وثار وطالب بالابقاء عليه ، فأبقى عليه الملك «الشمس» ، لأنه كان

لايكفيه ستة أزواج من الحمام فى وجبة الإفطار ! فهنيئاً مريئاً لهذا المبطان الكلبِ الضرس !

* * *

تلك يا سادة قصة هذا الدير الدامية ـ هكذا قال الدليل والعبرات تنهمر فى غير انقطاع من عيون السامعين . ثم صاح :

كفكفوا عبراتكم قليلا يا اخوانى فقد نسينا أننا نريد الزيارة ولم نأت لمجرد البكاء ، فتعالوا معى نستْعِدْ فى خيالنا تصميم الأبنية الأصيلة من هذا الطريق .

فتبعناه فى مخرف من الأشجار الباسقة ، ثم صاح ولسان حاله يقول مع أبى العلاء :

خفف الوطء ! ماأظن أديم الأ رض إلا من هذه الأجساد

ولم يصدق هذا البيت فى مكان قدر صدقه فى هذه البقعة .

وأشار الدليل إلى أحجار متناثرة هى بقايا أحجار المقابر التى كانت فى هذا الموضع ، لأنه كانت تقوم إلى جوار الكنيسة مقبرة فسيحة تضم أمواتاً أعزاء منهم راسين وبسكال فى ذلك الحين ، لم تدعهم يد اليسوعيين المدمرة يرقدون فى راحةٍ مرقدهم الأخير ، بل قلبت الأرض برفاتهم . فالذين وجدوا أسراً باقية تعنى بهم ، مثل راسين وآل أرنو وأميرة كونتى ودوقة لونجفيل ، نقلت بقاياهم إلى كنيسة مانى ليسار Magny-Lessart أو إلى باريس أو بلزو Palaiseau ؛ أما البائسون فقد تحطمت عظامهم وتناثرت أشلاؤهم وأعملت الكلاب أنيابها فى ما رقّ من بقاياهم . وما تكدس بعد هذا كله أرسل محملا فى السلال

على ظهور الخيل والعربات ، ورمى به فى قبر مشترك فى مقبرة سان لانبير . فويل للأحياء من الأموات !

حتى هذه النفس الحالمة الرقيقة الصافية الورعة ، نفس جان راسين ، التى أرادت أن ترقد رقدتها الأخيرة عند أقدام الراهب الوقور هامون Hamon ، قد أزعجوها فى مرقدها ، فاضطرت أسرته بالأمر أن تخرج رفاته من قبره ، وفى الثانى من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٧١١ نقلت بقاياه إلى كنيسة سانت اتين دى مون Saint-Etienne-du-Mont على جبل سانت جنفياف وراء البانثيون فى باريس . وكم لقى الشاعر العذب من مهانة فى قبره ! فانتزعوا الحجر الذى غطى القبر ، وعليه كانت مرثية بوالو الرقيقة ، ومحوا اسم الشاعر بالحديد . فيالقساوة قلوب أولئك الأشرار !

صنع الله للزبانية اليسوعيين ! وهل كان فى تاريخ المسيحية كلها شاعر مؤمن مثل راسين : عمقاً فى الإيمان ، وطلاوة فى العبارة ، وعذوبة فى الموسيقى ، وإخلاصاً فى العاطفة الدينية المشبوبة ! فياللجحود ويا للكفران ! ومع هذا تراهم لا يحجمون عن تدريس آثاره الرائعة لتلاميذهم وتمثيل مسرحياته فى مسارحهم الهزيلة الزائفة . فيا لوقاحة وجوههم الكالحة ! نعم ! ألا إن كل تدريس لآثار هذا الشاعر العظيم فى معاهد اليسوعيين لهو تدنيس فاجر لذكراه المقدسة .

ثارت ثائرتى ، وتحدرت مدامعى فى غير انقطاع ، فانسلخت عن ذلك الموكب الجنائزى الذى يقوده ذلك الدليل الذى استطاع ببراعته الهائلة أن يستدر العبرات من مآقى الزائرين الذين اندفعوا بعد كل

عبارة يصبون أبشع اللعنات على رؤوس هذه الجماعة الرجيمة ، جماعة اليسوعيين .

انسلخت عن هذه المناحة ، ورحت وحدى أستند إلى شجرة البندق التى تسمى باسم شجرة بندق بسكال Le Noyer dit de Pascal مستغرقاً فى تلك الخواطر الأليمة التى سدت علىّ شعاب تفكيرى وحواسى فلم أكد أتبين شيئاً مما حوالىّ .

ومرت لحظات على قصرها كانت فى نفسى أطول من الأعوام ، لم ينتزعنى من إغمائها إلا الأنامل الرقيقة ، أنامل رفيقتى ، وهى تهزنى قائلة : آن موعد العود إلى باريس ، فآخر حافلة تمر من هذا المكان إلى فرساى فى السادسة . واقتادتنى إلى هيكل صغير بمثابة متحف يضم آثاراً عزيزة متصلة بتاريخ الدير الحزين وبنائه وشئونه : أختام الدير ، وختم الأم انجليكا وبسكال ، وكتب صغيرة دينية ، ورسالة لويس الثالث عشر إلى البابا بتاريخ ١٦–٧–١٦٢٩ خاصة بالأم انجليكا أرنو ، وتصميمات للدير ، وعدة رسائل ، ثم لوحة بها صورة بسكال أهدتها الملكة مارية إميليا فى ١١–٢–١٨٣٩ إلى سلفى Silvy الذى اهتم بالدير فى القرن الماضى وكان مالكه ، وبفضل معونته استطاع دوق لوين أن يجرى حفائره فى سنة ١٨٤٤ ، تلك الحفائر التى ندين لها ببعض من الآثار الباقية المتناثرة اليوم فى هذا المتحف وفى أرض الدير ، خصوصاً ما يتصل بالتصميم الأصلى للكنيسة . ثم قناع جنازى لبسكال من الجبس ، وتماثيل نصفية لانتوان أرنو وراسين وبسكال ، وصورة لراسين ولعدد من الراهبات والرهبان الذين

أشعلوا الشعلة المقدسة فى هذه البقعة الطاهرة . ولكن الهموم التى سدت علىَّ شعاب الخيال حالت بينى وبين التأمل الساجى لهذه الأسماء النبيلة التى تثير فى النفس أعلى الذكريات . فغادرت هذا الهيكل — المتحف oratoire-musée وأنا أترحم على أولئك الشهداء الأبرار ، وإن كان أمرى معهم أمر البحترى مع إيوان كسرى :

ذاك عندى وليست الدار دارى   باقتراب منها، ولا الجنس جنسى

أما صاحبتى فقد مضت إلى الموضع الذى كان يسمى باسم «الخلوة» ، ويقوم على حاشية خميلة جميلة عند شاطئ جدول ينبع من « المستنقع » Etang ، حيث كانت الراهبات يجتمعن ويغزلن ، ويستغرقن فى أحلامهن الساجية ، ويتحلقن حول صليب خشبى يقوم على نشز من الأرض ، ليتأملن فى المعانى التى يثيرها المصلب فى نفوسهن الورعة ، حتى يكون جوهن عامراً بالذكرى الصافية والتسبيح . مضت صاحبتى إلى هذا المرضع وصلت طويلا لأرواح هؤلاء الشهداء الذين صرعهم بغى اليسوعيين .

ثم استقللنا الحافلة من الطريق العام متجهين شطر فرساى ، وأنا أردد فى داخل نفسى تلك الأبيات الرائعة التى وردت على لسان أتاليا Athalie فى نهاية حلمها ، فكان أصدق نبوءة تنبأ بها ابن دير بور رويال البار جان راسين :

« لكنى لم أجد غير حشد رهيب
من العظام واللحوم المعروقة الموطوءة فى الوحل ،
وإرباً ملأى بالدماء ، وأشلاء مروعة
تتقاتل عليها كلاب ضارية » .

وهكذا أحال اليسوعيون الوادى المريع إلى وادٍ للدموع ، شأنهم دائماً أينما حلوا .

فهل تطلبين منى بعد هذا دليلا على دعواى قبلهم ، يا سلواى ؟

أعود فأقول : الأحجار نفسها تصرخ من ظلمهم : Lapides ipsi clamabunt !

— ٢١ —

إلى سلوى

فى مهد غـــــرام لامرتين :

تلحين عليَّ فى أن أصف لك مزارات لامرتين ومجالى غرامه الطاهر فى قلب إقليم السافوا الرائع الجمال ، وأسألك عما يستهويك فيها فتلوذين بالدلال اللعوب الذى طبعت عليه زاعمة أنك أحببت هذا الشاعر لأن قلبه عامر بالإيمان ، متقد بالحنان ، فهو أقرب ما يكون إلى قلبك المشبوب بكليهما ، ولأنه زار جبلك الحبيب ، لبنان ، وتغنى بأرزه وأودائه ، وطوف فى أرجائه ، ووصف أحواله وصفاً دقيقاً لا يقتصر على ما رأى بل تنبأ فيه بما سيقع ، وكان صادق النبوة شأن المؤمنين المخلصين . وتقولين إنك قرأت « الرحلة إلى الشرق » التى خطها بقلم مرهف نفاذ وبريشة بارعة الألوان ، لما أن أهديتها إليك فى مجلد فاخر يوم عيد ميلادك — المجهول أبداً ؛ أليس كذلك ؟ — الذى ساءك منى أننى لم أشارك فيه ، رغم رجائك ، بل وإلحافك فى الرجاء ، ولم يجد معك ما ألقيته بين يديك من معاذير وما أقسمت به من مغلظ الأيمان ، ولكن متى تنفع الحجج مع الغوانى ؟ !

بجدك هذا ، أو تتدللين ؟ أفليس من بين هذه الدوافع أن أحيا وإياك فى كل مزار من هذه المزارات ، لأنك ، وأنت فى ريّق الصبا الريان ، تحسبين نفسك ألفيرا — أى جوليا شارل — ، وتحسبيننى رفائيل — أى لامرتين الفتى العاشق فى سن العشرين ؟

ولا أخفيك ما فى هذا من تملق لغرورى الزائف ، فقد ودعت العشرين وشارفت الثلاثين ، أى ودعت الغرام الطاهر الموحد ، واندفعت رغماً منى فى أتاويه الجسد أصب فى كأس الخيبة المبكرة دماء الحواس اللاهثة . فماذا يجدينى هذا الوهم الذى تريدين أن تزوريه علىّ ؟!

أما أنت فشابة دائماً مهما تقدمت بك السن ، فما بالك وأنت دون العشرين ؟ ! لك إذن أن تخيلى إلى نفسك أنك إلفيرا ، أما أنا فأستحلفك بما تؤمنين به ألا تتوهمينى رفائيل ، واويلى منك ويا ويلى عليك منى إن خال على كلينا هذا التوهم !

ماذنبى وقد ثكلت غرامى فى مطلع شبابى ، فتلفتُ أتحسس سبيلى بين ومضات الألوان والأجساد ، فما تذوقت فى كل مرة غير طعم الرماد ؟ !

ثم تخيلت فيك ملك الخلاص ، ولكن أفعى الخطيئة كانت قد نفثت سمومها القتالة فى جميع خلاياى ، ولات منها شفاء ! ولكم غالبت نفسى واستأنست فى إرادتى صدق العزم على التماس النجاة بكل كفارة مهما غلا ثمنها ، لكن متى أفلح صدق العزم فى علاج الداء العياء ؟ ! إنى امرؤ مقضى عليه بالدمار ، شأنى شأن المسلول الذى طعنته ذات الرئة فى مقتله ، وما أتنفس إلا لأنسج خيوط أكفانى ، ويوم أن يكتمل نسجها تكون نهايتى المحتومة .

أنت رقيقة القلب ، سخية الحنان ، وهذا هو ما يبقى على حبك لهذا المخلوق التعس الذى تعلمين مصيره عن يقين . ولكن نبالة ضميرك تكتمنى ما تشعرين ، إشفاقاً علىّ ، أو إمعاناً فى البراءة المقدسة التى لاتعدم الآمال ولا تحيا إلا بالرجاء .

وذلك سر ترددى الطويل فى القيام بتلك الزيارة ، ولكن إلى متى أستطيع معك الاستيناء والتسويف ، ولك عندى ما تعلمين ؟

فباسمك إذن أحج إلى مزارات لامرتين وجوليا شارل .

مضت بنا السيارة الصغيرة تشق الطرقات الأهلية الرائعة بعد أن ودعنا باريس من « باب إيطاليا » والشمس اللافحة فى أوائل أيلول (سبتمبر) تنهش الظلال البريئة تحت أشجار القسطل وتنبث بين الأيك الكثيف فى غابة فونتنبلو فتراقص الظلال والأنوار كعفاريت الحقول ، والديار المترامية فى الريف الضحيان تتثاءب لاهثة من هذا القيظ اللافح ، حتى إذا ما انحدرت الشمس إلى الأفق تغتسل فى مائه الأزرق المتورد ، كانت كاتدرائية صانص Sens تتبدى فى فرحة المغيب حورية شقراء تسبح فى اليم الكابى ، بينما الجنادب تستقبل المساء بترانيم رتيبة هى الأساس fonds الموسيقى للنغمات البلورية التى ترددها نواقيس الكاتدرائية والكنائس المجاورة . وارتفعت فى السهول المنبسطة ألسنة الدخان من مداخن المنازل الزاهية تعلن سلام البيت وعودة القطيع . وكنا قد رسمنا أمرنا على أن نقضى الهزيع الأخير من الليل فى مدينة شالون Chalons التى تقع فى منتصف الطريق . ودخلنا هذه المدينة فى الساعة الحادية عشرة مساء وطوفنا بها طويلا بحثاً عن نزل نأخذ قسطنا من النوم فيه . والمدينة من تلك الأماكن التى طاف بها طائف الدمار فى الحرب الأخيرة فضربها بجناحه وأثخن فيها ، حتى كان ثلثها بيوتاً موقتة لاتصلح للسكنى ، إنما للمأوى فحسب . وما تركنا نزلا أو شبه نزل — وأكثرها أشباه فنادق اصطنعت

فى التو لإيواء السائحين العديدين ، خصوصاً من الانجليز ، الذين ينزلون بهذه المدينة للمبيت فى منتصف طريقهم من باريس إلى الشاطئ الأزرق . ما تركنا نزلا رفيعاً أو خشن المهاد إلا طرقنا أبوابه متوسلين مستجدين مناماً أيا كان وبأى ثمن شاءه جشع القوم ، وما أبشع جشع الفرنسيين فى أمثال هذه الظروف ! ولكن بدون جدوى ! وكانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل فعزمنا على قضاء الليل فى السيارة سائرين . ولكن صاحبى — وكان هو الذى يسوق السيارة — قد بلغ به الجهد مبلغه ، وهو امرؤ مع ذلك حاد الطبع ملتهب الحساسة ، وإن كان نبيل النفس سخى الشعور كريم الخصال . وما كان فى وسعى إلا الاذعان لأمره ، فهو وحده الذى يعرف قيادة السيارة ، وهو صاحبها ، فمن أنا حتى يحق لى فى هذا أن أشير ! ومضينا من شالون حتى ماكون Mâcon ؛ ولحسن الحظ وقع نظرنا على لافتة مضيئة تعلن أن هاهنا : فندقاً ؛ وسرعان ما عدل بنا صاحبى إلى مدخله ، فوجدنا فى ظلمة الليل المرصع بالنجوم قصراً فخماً ، فارتبنا فى الأمر . ولكنه تقدم بشجاعته المعهودة أو اندفاعه المتوثب وطرق الباب ، فاستقبلنا خادم زنجى ، وسألناه : هل من غرفة خالية ؟ فأجاب : نعم ! وقدم إلينا جدولا بالغرف الخالية ، فكان منها ما بلغ ثمن المبيت فيه فى الليلة الواحدة سبعة آلاف فرنك ، ومنه ما لايتجاوز المائتى فرنك : أما الغرف الأولى فغرف النبيلات والنبلاء من أصحاب هذا القصر : أخنى عليهم الدهر ، فأقامت بقيـة منهم فى جنـــاح منفرد ، وأجروا القسم الأكبر من هذا القصر العظيم لإحدى الشركات الفرنسية

الكبرى التى تتولى إدارة فنادق القصور أو القصور الفنادق ، بعد أن أصاب الفقر مُقتل هذه الأسر النبيلة العريقة ، فراحت تؤجر قصورها حتى تضمن عيش الكفاف ، وإن كانت لاتحيا فى الحاضر إلا بأبدانها ، وحياتها الحقة إنما هى فى ذلك الماضى العريق السحيق الذى باركت من حوله أنبل الأحلام !

نظر إلى صاحبى وقال : أية غرف تختار ؟ وكان الليل قد أوشك على الانجلاء بصبح ، وكنا نتمنى أن يكون الإصباح أمثل من الليل المرهق ، فآثرنا الغرف الصغيرة — التى كانت مخصصة فى الماضى للخدم والحراس ! — فاستأجرنا غرفتين منها . ولفرط خجلنا كنا نتحدث بالعربية ، فما عتم الخادم الزنجى أن سألنا : هل أنتما من لبنان ؟ قلنا : ومن أدراك ؟ قال : لغتكما العربية . قلنا : وهل تعرفها وتعرف لبنان ؟ قال : إنى سنغالى وكنت جندياً فى الجيش الفرنسى المعسكر فى الرياق فى أوائل هذه الحرب ولبثت فى لبنان عاماً أو يزيد .

على أننا عزينا أنفسنا بأننا سنأتى إلى هذا القصر الفندق مرة أخرى ونقيم فيه ملاوة من الدهر فى غرفة ممتازة . مصحوبين بمن نهوى . وما كنت أفكر إلا فيك ، أيتها الحبيبة البعيدة ، وما كنت أتمنى آنذاك أمراً أعز من أن نقضى فى الغرفة الفخمة الكبرى فى هذا القصر المنيف دهراً حافلا بمعسول الأمانى ومشبوب الأحساس .

فمتى يتحقق هذا الحلم الجميل ؟ !

وأفقنا فى الصباح الباكر والشمس تنشر السرور على هذه المروج الرائعة ، ونهر السون Saône يجرى فى جلال ، والعصافير تسقسق

فى الأشجار الباسقة المنتشرة فى الحديقة والمخارف المحيطة بالقصر ، وألفينا النزلاء منتشرين فى الطنف الرائع المطل على البستان يتناولون طعام الإفطار ، والمقاعد الزاهية الألوان والمظلات الحمراء والصفراء تمد ظلالها الساكنة على وجوه حسان لم تزدها متاعب الطريق ومناورات الهوى إلا فتنة على فتنة . فكنا نتأملهن ورفقاءهن والحسد يمزق أفئدتنا — وإن تظاهر صاحبى بعدم الاكتراث ، معللا النفس بما ينتظره — فيما يخيل إليه ، ويا له من واهم مسكين ! — على الشاطىء الأزرق فى كان Cannes ونيس Nice من غانيات لَوَّحت بشراتهن الناصعة شمس الشاطىء الأزرق وأمواجه الحارقة الزرقة .

وما ارتفع الضحى حتى بلغنا ماكون Mâcon التى تبعد ستة كيلومترات عن هذا القصر الفندق مستأنفين رحلتنا . وهنا بدأ الحج ، الحج إلى منازل لامرتين . فتركت صاحبى يعنى بأمر السيارة وما تحتاج إليه لمواصلة السفر ، ووقفت أمام تمثال لامرتين المطل على نهر السون ورحت أفتش فى ذاكرتى عن صحائفه ، استعداداً لمناسك الحج الأكبر فى مدينة إكس لى بان وبحيرة البورجيه ومنازل غرام رفائيل وإلفير .

* * *

أرانى امتحنت صبرك . فلأدع المناظر الرائعة التى حفل بها إقليم السافوا ، جنة الله على الأرض . لأدع بحيرة ننتوا Nantua الناعمة المستقرة فى أعلى الجبل يحيط بها إطار لازوردى غارق فى الأحلام ، بينما الغوانى العاريات يسبحن فى أمواهها الصافية البلورية ، ويتلاعبن بكرات

القلوب ومجامع الأحساس . أوه ! كم أود أن أقضى عمرى شريداً وحيداً – لأنى يائس من الظفر بك ، أيها المَلَك العالى ! – على ضفاف هذه البحيرة الوادعة ! ولأدع أنسى Annecy وبحيرتها الفسيحة وشطئانها العامرة بمواكب الأجساد العارية والحبور الرخيص فى جو كالح يخلقه المتحذلقون من المصطافين أينما حلوا ، فيثير فى نفسى الاشمئزاز والنفور ، لأنى أرتطم دائماً بشاطئ تفاهتهم الصخرى القاسى ، ولا أتوسم فى مباهجهم وملاعبهم إلا الضحولة والفراغ ، خصوصاً إن كانوا من الأمريكيين أو الانجليز ومن يقلدونهم من الأوروبيين المنحلين – حتى إن أنسى Annecy ببحيرتها الرائعة قد انقبضت منها نفسى ، منذ أن رأت هذه القطعان المستحمة الصاخبة .

أدع هذه المفاتن كلها لأن قلم الناثر لابد أن يخلى مكانه ها هنا لوحى الشاعر : فالمناظر كلها ألوان وموسيقى ، والشاعر هو وحده الذى يجمع بين فن الألوان وفن الألحان ، وعما قليل أقرأ عليك بعض ما أوحت إلىّ به من قصائد .

* * *

بلغنا مدينة إكس – لى – بان Aix-Les-Bains والظهيرة تسلم أنفاسها الحارة للعصر الرقيق ، وكان طريقها الطويل يعج بروادها الطالبين للاستشفاء فى ظاهر الأمر ، الوافدين للعبث الآثم والزهو الثقيل فى حقيقته . وصاحبى من هذا النفر الأخير ، فافترقنا على أن نلتقى فى المساء .

* * *

بماذا أبدأ مناسك حجى إلى منازل غرام لامرتين ؟ لأبدأ بالبداية ، بمنزل الدكتور بريبه Perrier الذى فيه التقى لامرتين فى سنة ١٨١٦ بالغانية الحالمة جوليا شارل .

كان ألفونس دى لامارتين فتى فى السابعة والعشرين ، ترك الخدمة فى الحرس الخاص بالملك لويس الثامن عشر ، وعاد إلى وطنه ميى Milly (فى إقليم السون واللوار) وصار عمدة هذه القرية . وكان مصاباً بذات الكبد إصابة خفيفة فأوصاه الدكتور بسكال بالعلاج فى مدينة إكس لى بان. وكانت هذه المدينة قد ذاع صيتها منذ العهد الرومانى لفوائد مياهها الكبريتية ، وكانت فى العهد الامبراطورى ، عهد نابليون ، كعبة الطالبين للعلاج والمتعة المترفة ، فكان يؤمها أبناء الطبقة العليا من أميرات ونبيلات وأمراء ونبلاء وقواد عظام ، يستريحون فيها من عناء المراسم والتقاليد المصطنعة وألوان التزمت والوقار التى تفرضها الحياة العالية فى المجتمع الراقى .

وقد أوصى الطبيب مريضه الفتى أن يقطن فى نزل الدكتور بيير فرنسوا بريبه Pierre-François Perrier ، وكان شيخاً ذرف على السبعين تشرق فى وجهه الدقيق ابتسامات ماكرة يستقبل بها الوافدين . درس الجراحة فى جامعة تورينو ، ولحق بالجيش جراحاً ، ثم استقر به المقام فى مدينة إكس لى بان سنة ١٧٩٠ . وبعد اثنتى عشرة سنة عين مفتشاً مساعداً للمياه المعدنية فى المدينة ، وفى سنة ١٨٠٨ استأجر هذه المياه ليديرها مقابل ألف وأربعمائة فرنك . ولكنه لم يربح من هذه العملية ، ففتح نزلا فى بيت قديم يدعى بيت مارتينل Martinel يقع عند نهاية المدينة مطلا على ميدان المياه ، وكان يتألف من ثلاثة

أجنحة كل منها من طابق واحد ، وفناء مربع وجناحين فرعيين . وكانت تحيط بهذا البناء الثلاثى شرفة طويلة تفتح عليها الغرف ، وترتبط بالتربة بسلمين صغيرين .

وطرق الفتى الباب فتلقاه الشيخ بابتسامته الدائمة ، مشيداً بهذا النزل الذى يسوده الهدوء ، فلم يكن فيه آنذاك غير آنستين من إقليم المورين Maurienne وقسيس من توسكانيا وتاجر من تورنوس Tournus واقتاده الخادم إلى غرفته ، فالتقى فى طريقه إليها بسيدة شابة متدثرة بشال من الصوف ، فارعة القوام . حياها الفتى فأجابته بانغاضة خفيفة ، فسأل الخادم عن أمرها فأجابه بأنها : سيدة تقطن النزل ولكن لا يحس بوجودها أحد ، لأنها لا تأكل على مائدة الضيافة ، بل فى غرفتها المجاورة لغرفتك يا سيدى ؛ وهى من باريس ، وقرينة المسيو شارل الشهير ، أول من صعد فى الهواء . فالمسيو شارل فزيائى شهير صنع كرة نفخ فيها من الهيدروجين واعتلاها وصعد بها فى الهواء . فكانت هذه التجربة العلمية الأولى فى عالم الطيران مصدر الشهرة لهذا الفزيائى الذى أصبح عضواً فى المجمع الفرنسى ، بعد أن ألهب الخيال الشعبى بتجاريبه السحرية فى علم الفزياء حتى تغنى بها المغنون الجوالون فى الأسواق . والناس يروون أنه حدث ، أثناء الهجوم الشعبى الهائل فى ١٠ آب (أغسطس) إبان الثورة الفرنسية على قصر اللوفر ، أن كان هذا العالم ، شارل ، يعمل هادئاً فى مكتبه فى رواق أبولون ، أحد أروقة اللوفر . فلما دخل عليه فريق من المهاجمين قال لهم بلهجة هادئة لم تمسسها ضجة المهاجمين : هذه الضجة علامَ ؟ أولا ترونى منهمكاً فى عملى ؟!

أما جوليا فكانت امرأة ذرفت على الثلاثين . ولدت فى باريس من أبوين مهجنين ، وسرعان ما ماتت أمها ، فاستولى الهم على أبيها وقد أفزعته الأحداث السياسية الضخام التى هزت كيان فرنسا فى عهد الثورة ، فأودع ابنته البائسة أمانة عند أخته هى وابن عمها ، فعاش ثلاثتهم فى بيت كوانى Coigny الواقع عند ملتقى شارع سان نيكيز Saint-Nicaise وشارع الأورتى Orties ، وعاشت حيناً فى هذا البيت الذى ضربته الثورة الفرنسية بجناحها الرهيب ، إلى أن انتقلت إلى ضيعة فى التورين Touraine تسمى جرن سان مرتان بقرية سان باترن Saint-Paterne حيث أقام خالها ، ميشيل لوى دى برجيه Michel Louis de Bargey الذى صار عضواً فى الجمعية التشريعية ، وكان واسع الثقافة فى الفلسفة والأدب ، وكان لهذا يستقبل المشهورين من أهل العلم والثقافة فى قرية سان باترن .

ومن بين هؤلاء كان شارل الفزيائى ذو الشهرة الواسعة يتردد على تلك القرية ، ويشاهد فى بيت ميشيل لوى دى برجيه ابنة أخته النحيلة الرقيقة جوليا بوشو دى هيريت Julie Bouchaud des Hérettes صاحبتنا . وكان فى سن الستين ، شغوفاً بالآداب ، حى الضمير ، يهوى الشباب . وكان يرى جوليا يعلو وجهها شحوب العلة فيسأل عنها خالها : كيف حال فتاتنا العليلة ؟ كيف حال عزيزتنا المريضة ؟ واستهوته الفتاة العليلة ففكر فى البناء بها ، بالرغم من الفارق الهائل فى السن بين كليهما ، إذ كان يكبرها بأكثر من خمسة وثلاثين عاماً ! لكن لا عليه إن قلد الماريشال دى ريشليو الذى كان شيخاً فى الثمانين

فلم يمنعه هذا من أن يتزوج من فتاة فى الثلاثين ،وأن يحيا معها سعيداً ، أو قلد برناردان دى سان بيير ، صاحب « بول وفرجينى » ، الشيخ العجوز الذى بنى بالآنسة دى بلبور Mlle de Pellepore التى لم تبلغ بعد السادسة عشرة .

وطلب الشيخ شارل يد هذه الطفلة العليلة فوافق الخال ورفض الوالد وانضمت الفتاة إلى خالها فانتصرا ، واحتفل بزفاف الطفلة الرقيقة إلى الفزيائى شارل الذى كان يمكن أن يكون أباها ، وأبا أبيها .

وعاشت الفتاة مع زوجها الشيخ : تشيع المرح فى هذا البيت العجيب ، وتستقبل أصدقاء قرينها ، وتحاول أن تعوض فى صحبتهم ما فقدته باقترانها بالشيخ من معانى الشباب والعواطف . لكن أنى لهـــا بالصبر طويلا على هذا الوضع الغريب! نعم! سترضى بقفصها الذهبى حيناً ، ولكنها لن تلبث حتى تفضل الحرية مع الحرمان على هذا الحبس بما فيه من راحة وأمان . والويل كل الويل لمن ينساق وراء الوهم من أولئك الشيوخ الغاصبين الذين يحسبون أن الفريسة ستظل ملك يمينهم أبدا ! ليوقنوا بأنهم لن يستطيعوا الاغتصاب طويلا . وإذا كان الصبر الكظيم قد أطال فى إبقاء مخالبهم فى لحم الفريسة ، فما هو إلا انتظاراً للفرج القريب عن طريق الموت ، هذا المخلص الأكبر . ولولا الرجاء فى الموت القريب لأفلتت الفريسة منذ اللحظة الأولى . فلْيُزِل أولئك الشيوخ المغرورون الغشاوة عن عيونهم فى الوقت المناسب ، وليعالجوا الموقف بما يتطلبه من إغضاء وتسامح ، قبل أن تقع الطامة الكبرى المحتومة ، ولات ساعة مندم!

وكان السيد شارل شيخاً بارعاً أزال الغشاوة عن نفسه ، واستعد لما ليس منه بد ، حتى أفصح لها عن رأيه الجرىء الصريح ، فقال : سأحب من توثرينه بالحب . وكانت هذه رخصة الحرية الغالية منحها الزوج الحكيم لقلب زوجته الأسيرة .

لكن أصدقاء الشيخ الذين يترددون على نديه وتستقبلهم زوجه الفتاة قد كانوا فى سن الشيخ أو قريب منه ، وهى تهفو إلى الشباب شأن كل امرأة فى ميعة الصبا ، فلم يعلق قلبها بهوى أحد منهم ، وإن كانت لاتبخل على المتصابين منهم بالبسمات الرقاق واللفتات الناعمة ، — إلى أن واتت الفرصة التى ستتفتح فيها زهرة قلبها المنطوية فى برعم حياتها الحبيسة .

ذلك أن الفتاة العليلة ظلت عليلة أبدا . فلما عرضت نفسها على الدكتور ألان Alin أشار عليها بالاستشفاء أولاً فى جنيف ، ثم فى إكس لى بان . وما أن انتهت من مقامها فى جنيف لدى بعض أصدقاء زوجها ، حتى ارتحلت إلى إكس لى بان فى أواخر أيلول (سبتمبر) سنة ١٨١٦ ، فنزلت فى نزل (بنسيون) الدكتور بريبه ، فى غرفة فسيحة سيكون من حظ الفتى القادم ، ألفونس دى لامرتين ، أن يقطن فى الغرفة المجاورة لها .

وأقام الفتى الرقيق الحالم ، ألفونس دى لامرتين ، يومين لايغادر فيهما النزل إلا ليتجول جولة قصيرة على شاطئ البحيرة ، بحيرة لوبورجيه Le Bourget ، وفى طريق المياه حيث تتوالى وفود المستشفين فى الأصائل الشاحبة فى ذلك الخريف من سنة ١٨١٦ . والفتى متوثب مشبوب الحساسة ، متقد العواطف ، فمن أين له الرضا بهذه الحياة

الرتيبة المملة التي يحياها المرضى وأشباههم فى مدن المياه المعدنية ؟ ! وهل يسليه أن يشاهد بقايا الحمامات الرومانية فى هذه المدينة ، أو بعض التماثيل المحطمة التي اقتنى الدكتور بريبه بعضاً منها ليزين بها حديقته ؟! ثم النزلاء الذين يحيا وإياهم فى جو مقبض ثقيل، يسوده الطابع الأسرى الممل ، ويتنفس فيه الشحوب والجمود والشيخوخة ، من ذا الذى يستطيع منهم أن يجذب انتباه هذه النفس المتوقدة ؟ !

لهذا أفكر الفتى فى أن يقطع هذا الرتوب الثقيل الشبيه بالموت البطىء برحلة يقوم بها فى بحيرة لوبورجيه ، وكم سمع من أنبائها المثيرة للاستطلاع ! فاستأجر زورقاً كبيراً يجدف فيه ملاحون أشداء ، ليزور قصر شاتيون القائم على صخرة تعلوها أشجار السنديان فى الجيب الشمالى من البحيرة ، وكان القصر المتهدم يملكه أحد أصدقاء والد لامرتين . وفى يوم ٨ اكتوبر أبحر بزورقه ورجاله . وكان القدر قد هيأ له أمراً عظيما .

ذلك أن مدام شارل ، نزيلة الغرفة المجاورة لغرفته ، قد شعرت هى الأخرى بالضيق وبالرغبة فى الهواء الواسع والأفق البعيد ، فنصحها الدكتور بريبه ، صاحب النزل ، بالقيام بنزهة صغيرة فى البحيرة ، وسرعان ما استهوت الفكرة السيدة جوليا ، فاندفعت تستأجر فى اليوم نفسه زورقاً ، فلم تجد إلا طوفاً منبسطاً ، يسوقه ملاح واحد . وبالرغم من مخاطر هذا النوع من الزوارق ، فإن عزم جوليا كان أقوى من كل خطر ، فأبحرت فيه باسم الله مجراها ومرساها .

ثم هبت الريح بعد أن خاضت فى اللجة ، فتمايل الطوف ،

واشتدت الريح حتى كاد أن ينقلب ، والبرد يلفح الغانية العليلة المتدثرة بشالها . وتجلى الخطر ، فحاول الملاح أن يساحل ، ولكن أين هو الآن من الشاطئ ! واستولى الفزع على جوليا . وهنا لمح الملاح زورقاً كبيراً يمخر عباب البحيرة عن قرب ، فصاح : النجدة ! وكان أن أجاب الزورق الكبير : لبيك ! لبيك ! وأقبل فى عزم باسل نحو الطوف المترنح ، وانتشل منه الراكبة التى كانت فى إغماء من الفزع والبرد وتوقع الخطر . وحملوها إلى لسان من الأرض يسمى هوتكونب Hautecombe فيه دير شريد يرقد فى تراب مقبرته آل سافويا ، البيت الملكى الشهير الذى حكم إيطاليا إلى سنة ١٩٤٦ . وكان إلى جوار هذا الدير المتداعى منزل أو كوخ وضيع هو بيت الصياد الذى تحدث عنه فى « رفائيل » . فنقلت إليه الفتاة ، وأوقد من حولها النار ، وأغفت إغفاءة طويلة استيقظت بعدها وهى تسند كفها على جبين — مَن ؟

جبين الفتى الحالم ، ألفونس لامرتين ، جارها فى منزل الدكتور برييه !

وكانت المفاجأة عجيبة ، ولكنها مقدرة فى لوح كليهما . وكان قلباهما يستشعران اللقاء فى ظروف خارقة . فمنذ اللحظة الأولى التى وقع بصر الفتى عليها وهو فى طريقه إلى غرفته حاملا حقائبه ، كانت أحلامه الهائجة تدفعه إلى أن يهتك القناع الذى تقنعت به هذه السيدة الغامضة المتدثرة بشالها فى احتجاز مثير . وكان الصباح دافئاً تتلألأ فيه شمس تشرين الأول (أكتوبر) الهادئة ، فتدفع النفوس العامرة إلى المناجاة بأسرار الغرام . وأحس كلاهما أن قلبه قد خلق لقلب

الآخر ، وأن المصير قد قدر هذا كله باحكام بالغ حتى يلتقى النصفان من جديد .

وأشار الفتى بأن يقضيا سحابة اليوم فى هذا المكان الساحر . فقضيا بعد الإفطار يزوران المقابر التى ضمت أزاهير بيت سافويا ، ويتأملان الأطلال العريقة الماثلة من دير هوتكونب . وما أروع الأطلال فى نفوس العاشقين ! فالحب ينبع من الحزن ، لأن الحب أسى على ما فات من شطر للنصفين المتكاملين ، ورجاء حار فى العـــود إلى التكامل من جديد . فلما أن تزودا من الحزن ، راحا يطلبان الرجاء عند نافورة متقطعة تقوم عند صخرة مجاورة للدير . وكان همس رقيق تسارَّ به هذان الحائران : همس فيه تلعثم الشعور الأول ، وفيه حرارة النبرة الناعمة الصادقة ، وفيه تفتح زهرة العشق النابت فى طوايا اللاشعور وضمير القدر البعيد الغور . وكان خرير الينبوع الصافى يشارك فى هذه الأنشودة السماوية التى تضارع « نشيد الأناشيد » ، بينما الغمام الأبيض الرقيق ينشر الظل العابر فيخفف من حرارة الوجد الناشىء الذى سرعان ما استحال إلى جمر متقد .

بثها الفتى أحزانه وهمومه : فتى غض الإهاب فى السابعةوالعشرين ، طرحته الحياة على شاطئها بعد أن نبذه اليم صريع الإعياء فى دنيا الأحياء المملة ، ترك الخدمة فى الحرس الملكى الخاص : بنفاقها وتزمتها وتفاهتها وتصنعها ، وأوى إلى الريف الضحيان يلتمس النور وفيض الشعور ، ولكن القلق لم يرحمه ، فأسلمه إلى الملال من جديد ، ودعته العلة إلى التماس الشفاء ثم التماس الاحساس الجديدة ، فلم يلق إلا التصنع

والهواء المريض فى هذه الحواء الثقيلة ، جواء مدن المياه المعدنية ، قاتلها الله ! لم يعرف قلبه الحب الصادق ، وإن كان قد تعلق ببعض الفتيات العابرات فى حياة أمثاله : إن فى ماكون أو فى بلدتى ميي Milly وسان سورلان Saint-Sorlin ، وإبان رحـــلاته فى ديجـــون وليون وباريس ، بل قد أفكر فى البناء بفتاة من الطبقة الوسطى فى ماكون وكاد أن يتم القران . ثم ماذا ؟ ثم غرام عنيف ، ولكنه عابر لم يتجاوز شهراً ، استشعره نحو تلك التى سيدعوها « جرتسيلا » Graziella وسينشد فيها أنشودة رائعة لا تقل روعة عن أنشودة « رفائيل » . ولكنه الآن قد ترك هوى ليلى وسعدى بمعزل ، ورام العود إلى مصحوب أول منزل ، أى إلى شطره الأصيل الذى فصل عنه يوم الخلق الأول .

وبثته هى أحزانها وهمومها : غانية فى نضج الأنوثة لم تعرف الحب الصادق ، بل أسرت فى زواج عجيب جمع بينها وبين شيخ يفن ذرف على السبعين ، حالمة مرهفة الشعور ، ألحت عليها العلة فى بدنها ، ولكن قلبها لايزال سليما ينبض بدم المشاعر الصافية ، وتعلوه نضرة الإحساس الأول ، ومتبرمة تطلب الجديد ، وتبغى إشعال المشكاة المعطلة فى قلبها البكر .

فهل خلق الحب إلا لمثل هذا القلبين ؟!

سلوى !

حسبى مارويت ، فأنت أدرى منى بباقى القصة ، ألست من عشاق لامرتين الأوفياء ؟ وكم من ليال قضيتها أنت فى قراءة صحائف كتاب غرامه هذا : « رفائيل » ! يا أخت إلفيرا ، وجوليا صاحبة سان

بريه Saint-Preux ، وشرلوت عشيقته فرتر Werther ، كم أمضيت الليالى البيض تزفرين زفراتهما الحارة على فراش الدموع !

فدعينى إذن أرتَـدْ منازل هذا الغرام الرهيب .

* * *

ـ بنسيون الدكتور بريه ؟ أوه ! لقد هدمته بلدية مدينة إكس ـ لى ـ بان ، أوه ! لقد هدمته فى سنة ١٩٣٢ لتخلى مكانه لمنشأة المياه الحارة الطبيعية التى تعيش من الاستشفاء بها هذه المدينة . لقد قدر لهذا البيت أن يبنى على الرواق الأجوف الذى كان يضم الحمامات الرومانية الغالِيّة gallo-romains القديمة ، فكأنه قد بنى على شفا جرف هار ، أو فى القليل على كنز أثرى ، فلابد من هدمه لاستخراج ما تحته . وعبثا حاول أصدقاء لامرتين فى السفوا أن يخلصوا الغرفة التى كان يسكن فيها لامرتين ، فقد دمرت مع غرفة جوليا والبيت كله . وكل ما استطاع هؤلاء إنقاذه هو أنقاضها : أخشاب ومدافئ ونوافذ وأثاث وحدايد .

وهكذا انتصرت المنفعة على العاطفة ، والمادة على الروح ، شأنها دائماً فى هذا العالم الحزين .

ولولا لوحة تذكارية عند موقع البيت المهدوم تذكر الوافدين بالشاعر وغرامه ، لمر هؤلاء الأجلاف من طالبى الاستشفاء بهذا المكان عابرين غير مكترثين !

بهذا أنبأنى من استنبأت ، فاهتزت نفسى من هول ما فأجأنى ، ولكنى رحت إلى «متحف لامرتين» الذى يضم رفات ذكرياته ، وأنا أردد فى الطريق إليه :

كلُّ بيتٍ للهدم: ما تبتنى الور قاءُ والسيدُ الرفيعُ العِماد

وهذا المتحف يقوم فى غرفة فسيحة من غرف متحف الدكتور فور Faure ، فيها نضدت مخلفات الشاعر : هذه هى المنضدة التى كان يكتب عليها : مستطيلة ذات درج ، عليها محبرة من الخزف الأزرق؛ وهذا هو السرير ذو الطراز الامبراطورى ، الذى كان يتقلب عليه فى لياليه البيض صريع القلق اللهيف والخواطر المتدفقة والأحلام العذبة؛ وهذه كراسى ، وهذه منضدة من البندق من طراز لويس الخامس عشر وكلها تنتسب إلى الغرفة التى كان يقطنها لامرتين فى بنسيون الدكتور بريبه ، وإلى جانب هذا الأثاث لوحات وصور شمسية وصور محفورة معظمها يمثل لامرتين ، ثم مدام لامرتين ، وجوليا ابنة لامرتين ، والفيرا ، وبنسيون الدكتور بريبه كما كان فى سنة ١٨١٦ ، ثم مراتع غرام الشاعر فى البحيرة وشواطئها : دير هوتكونب ، وشاتيون ، وكنيسة سان بوان الخ ، كذلك يضم المتحف صفحات بخط الشاعر ، لكن ليس منها شىء يتصل بالرسائل المتبادلة بين العاشقين .

لم أستشعر شيئاً غير الانقباض فى هذا المتحف ، الذى لا يغنى شيئاً . والمتاحف عندى مقابر الذكريات . فالفرار ، الفرار ، لأنى أتيت لأحياها . لهذا ماعتمت أن غادرت هذه المقبرة الثقيلة ، وانطلقت مسرعاً إلى البحيرة ألتمس فيها مذابح الذكرى الحية .

البحيرة شاسعة ، ومياهها كابية ، والضباب يرتسم فى الأفق البعيد على سفوح جبال الجورا ، وسن السنور Dent du Chat تبرز حادة كالحة ، وفى المدى يتراءى دير هوتكونب بسنديانه السامق

وأبراجه ومقابره ، وعلى الشاطئ المجاور لإكس صفوف من اليراع تحجب النظر القريب بين الحين والحين .

وقفت أمام البحيرة فغمرتني غيوم الهموم : فكل ما حولي مصبوغ باللون الرمادي الكابي : الأمواج والمياه في البحيرة ، والآفاق الفسيحة المنبسطة عند سفوح الجورا Jura ، مع أن الشمس ساطعة ، والصيف قائظ . وما إن أبصرت هذه الألوان ، حتى استطعت أن أفسر لنفسي لون الشعور الذي ينتابني دائماً حينما أقرأ « تأملات » لامرتين الأولى : فهذه القصائد كانت تبدو لي دائماً سمراء ، سمراء حقاً لا مجازاً ، وكنت لا أستطيع لهذا الشعور تعليلا حتى أتيت هذا المكان .

ثم ركبت الزورق إلى دير هوتكونب ، لأبدأ مناسك الحج إلى ديار الغرام ، فألفيت بيت الصياد الذي تلقى جوليا مغمى عليها قد دمر منذ عهد بعيد ، ولم يكن أمامي إلا أن أجوس خلال الغابات في الطرقات الضيقة بين السنديان العالي والشجيرات المنبثة في الدروب ، مستعيداً صور الفتى الحالم والسيدة العليلة وهما يتباثان أسرار نفوسهما الدفينة ، وقد يئست من الظفر بأي أثر إنساني لمراتع هذا الغرام . فالدير قد أعيد بناؤه منذ سنة ١٨٢٤ ، فضاعت معاني هذه الصحف الجميلة التي وصف فيها لامرتين أطلال الدير وأسواره العتيقة التي انبسط عليها اللبلاب ، والسقوف العالية المهدمة ، والأعمدة المتداعية ، والقباب المحطمة ، وفسائل المنثور المعلقة (« رفائيل » ، ف ١٤ ، ١٥) .

ثم مضيت إلى نبع الأعاجيب Fontaine des Merveilles الذي اختلطت نبراته بزفرات العاشقين المتناجيين غداة حادث الزورق ،

والذى تمنى لامرتين أن يختار المقام فيه إلى جوار جوليا لو . . . وأنا الذى أعشق الينابيع كما تعشقينها يابنت لبنان ، ياسليلة الغانيات اللواتى كن ينُحْنَ عند ينبوع «أفقا» فى أعياد أدونيس ، كم كنت أود أن تكونى معى هنا لأستريح إليك بلواعج سرى !

وقفت طويلا أمام الينبوع المتقطع أمزج عبراتى بأمواهه الصافية ، باكياً على حظ « رفائيل » الجديد الذى فرقت تكاليف الحياة وألسنة السوء بينه وبين جولياه .

وتنقلت بين الكهف الذى زعموه « مأوى إلفيرا » وبين الدير ومقابره التى يرقد فى ترابها أمراء بيت سافويا ، ونعيت حظى إذ أتجول وحدى فى هذه الربوع التى لم تخلق إلا لتجوال العاشقين . وكانت الشمس قد آذنت بمغيب ، فجلست على الصخور أتأمل جونة جريزينا Grésine فى منحناها البديع ، وأنا أحلم فى لقياك بهذا الفردوس المريع .

وعدت إلى الشاطىء المقابل مزوداً بأنبل الأحلام ، فصعدت رابية ترسرف Tresserve والشمس المطفلة يتهاوى شعاعها اللازوردى فى مرآة البحيرة السمراء . هنا منزل الوحى ومتريض العاشقين : فتحت أقدامى مخمل الطحالب الذى كان يجلس عليه العاشقان ويديران عجلة الأحزان فى ساعات التأمل (« رفائيل » ، ف ٣٧) ، وفى ظل ثلاث دوحات القسطل تدفق العرق الشعرى الذى تغذت به أنشودة « البحيرة » .

ولكن أشجار القسطل قد عصفت بها يد البلى والإنسان ، وبقى

مكانها نصب أقامه أصدقاء لامرتين فى السافوا تذكاراً لمنزل الوحى ، فى سنة ١٩٢٧ ، ونقشت عليه هذه العبارة : « فى هذا المكان، الذى كانت تظلله أشجار القسطل السامقة ، كتبت قصيدة البحيرة » فجلست وحدى عند قاعدة النصب وأنا أردد مع لامرتين :

« أيتها البحيرة ! لم يكد العام يتم دورته

حتى أتيت قرب الأمواج الحبيبة التى كانت ترجّى هى أن تراها مرة أخرى

أتيت وحدى وجلست على هذه الصخرة

التى رأيتها أنت تجلس عليها ! »

وإنى لأستحلفك بكل عزيز لديك ، أى سلواى الحبيبة ، أن تذهبى ، حينما تصلك رسالتى هذه ، إلى « صفا اليم » كما سميناها ، أو « الروشة » كما يسميها المتحذلقون من أهل بلادك ، أو « مغارة الحمام » كما يدعوها المتفرنسون من مواطنيك — وما أكثرهم ! — وتجلسى على الحصى على الشاطئ المواجه ، وتبكى بدموع الشوق مشاركة لى فيما أنا الآن فيه ، وحسرة على أمانينا الناعمة فى الليالى القمرية الرائعة التى قضيناها عند صفا اليم ، وتوكيداً لليمين المغلظة التى توسلتِ إلىّ أن أقسمها ، بصوتك المتهدج ودمعك المنهل ، وأنت ترددين مع إلفيرا : « أقسِمْ لى بأن تمزج ، فى ذاكرتك ، هذه السماء، وهذا الشاطئ ، وهذه البحيرة ، وهذه الجبال ، تمزجها بذكراى ، وأن تكون صورة هذه البقعة المقدسة غير مفصومة العرى أبداً عن صورتى أنا : ولتكن هذه الطبيعة فى عينيك ، وأنا فى قلبك ، كلتانا شيئاً واحداً ؛

. . . حتى إذا ماعدت ، بعد ملاوة من الزمان ، لرؤية هذه الطبيعة الحلوة الرائعة ، وللتجوال تحت ظلال هذه الأشجار ، والجلوس على شاطئ هذه الأمواج ، وإلقاء السمع إلى هذه النسمات وهـــذه الهمسات ، هنالك تراني من جديد وتسمع بي حاضرة حية عاشقة شأني وإياك هنا الآن ! » (« رفائيل » : ٣٩)

فهل تفعلين ؟ !

* * *

ودوى ناقوس المساء. فعدت إلى المدينة الصاخبة حافلا بالذكريات موفور الأحساس العذبة ، ويممت إلى المقهى الذى اتعدته وصاحبي للقيانا . وكان فى عزمه أن نرحل بعد العشاء لنكسب شطراً من الطريق ، فحاولت أن أثنيه عن عزمه متعللا بالتعب الذى استولى عليه من قيادة السيارة ومغرياً إياه بالصيد السمين فى هذا البلد الزاخر بالغوانى الوافدات للاستشفاء من علل تسمى الملل والرتوب ، الراغبات فى مغامرات مثيرة وإحساسات جديدة ، وصاحبي مجنون بهذا الضرب من الغوانى . ولم يفلح إغرائى إياه فى بادئ الأمر ، لأنه ، وقد عاد خاوى الوفاض ، كاد أن يفقد الأمل فى الظفر بما يرتجى ، فأشرت عليه بنوادى القمار التى يلذ فيها الصيد ، وإن اقتنص بأفدح الأثمان . وصاحبي قد كان له فى القمار باع طويل أيام أن كان يسبح فى بحر من الذهب الموروث ؛ أما اليوم فقد ضاع ماورث واستحار شبابه ، ولكن حنينه إلى أيام لهوه الماضية كان أقوى من كل إفلاس ، فما عليه إلا أن يلبس ثوب

السهرة البراق، وليدخل نادى البلدية — فأجر الدخول زهيد ! — مرفوع الرأس، متوثب السواعد ، منتفخ الجيوب (بأوراق الصحف والبطاقات البريدية ، طبعاً ، لا بالأوراق المصرفية !) ، وليدخل فى حلْبة القمار ، مشاهداً لا لاعباً ، متنقلا ، فى زهو الماضى وسراب ذهبه المتسلل إلى جيوب الآخرين فى العهد السعيد السحيق ، بين مناضد السكة الحديدية والدوارة (الروليت) والبكراه، ولا عليه إن صاح مع اللاعبين : بانكو ! بانكو !

كل هذا دار فى مخيلة صاحبى وأنا أغريه بسهرة عامرة يقضيها فى أوهام ماضيه ، فسلم — بعد نقاش عنيف صاح فيه مرات ومرات : هذا فراق ما بينى وبينك — بالأمر الواقع وهو أنى لن أغادر هذه المدينة فى هذا المساء ولا فى ضحوة النهار التالى . فقام عنى مغضباً — شأنه فى أغلب الأحيان فى هذه الرحلة ، — وافترقنا على أن يقضى سهرته فى نادى البلدية ، وأنا أقضيها فى المقاهى الموسيقية .

وفى صبيحة الغد اتفقنا على الرحيل بعد الظهيرة، فهرولت إلى شاطئ البحيرة ألتمس منازل وحى لامرتين التى لم أشاهدها بالأمس الدابر .

وأولها بوردو Bourdeau حيث مغارة لامرتين المشهورة . ومضيت بالزورق أخوض عباب اليم والصمت الموحى يصاحب إيقاع المجاذيف ، والهضبة الشاردة تتراءى أمام بصرى شماء جرداء يعلوها اللازورد البهيج ، وفى إثرها الدوح السامق يصاعد فى هزة النشوان . وألقيت مرساتى فى تربة اهتزت بالنبت العميم من أشواك وأعشاب برية ، ومضيت قدماً أشق طريقى اللزب بين الصخور والخمائل والأيك الكثيف

حتى بلغت المغارة، فوجدت كهفاً رهيباً قوى الملامح بارز التجاعيد كالشيخ القوى الهرم ، والأشجار العتيقة القاسية تقوم من فوقها وحواليها فتزيد من جلالة المنظر ورهبته . وانثنيت عنها إلى القصر العالى الذى كان صُفَّة الصيد لدوقات سافويا ، وهو يحلق عالياً فوق الصخرة ، ويشرف كالنسر الجارح على البحيرة وعلى منزل الوحى فى ترسيرف ، ويتطلع من طنفه العامر بالتين وشجرة الملاك angélique إلى وادى شانبرى Chambéry ومن ثم إلى جبال الألب المعممة بالثلوج.

وما أن فرغت من بوردو حتى وليت وجهى قبل سانت انوصان Saint-Innocent ، وهى شبه جزيرة كانت أيام الهوى مرجاً وحشياً يختلب الأبصار بعراقة نباته وصولة صخراته وفتنة شجراته ، أما اليوم فقد تناولتها يد الصناعة منذ أن أصبحت فى نصف القرن الماضى ملكاً خاصاً ، فأزالت الصناعة الإنسانية سحر الطبيعة الوحشية، ولعب التخطيط والتصفيف بالعراقة والصولة ، فأضحت بستاناً صناعياً خالياً من الشعر والسحر شأنه شأن البساتين الفرنسية كلها . فصحت مأخوذاً : أهذا هو مسرح اليمين المغلظة التى أقسمها العاشقان عشية الرحيل ؟ أهنا ترددت نبرات الوداع الأول والأخير ، والطيور شهود، والخمائل مستودع السر المكنون؟ أين هذا الحور المجزوز من أشجار الزان والزيزفون المتمردة الماردة ؟

وداعاً إذن أيتها الربوع الدارسة ، وسلام عليك أيتها الأطلال الماحلة ، وعزاءاً لك يا سلوى فى مناسك حجك العافية ! لكن استمدى العوض فى آثار صاحبك الخالدة ، فكل ما عليها فانٍ ، ويبقى وجه الفن الصادق ذو الجلال والدوام !

— ٢٢ —

من سلوى

على آثار لامرتين فى لبنان

لست أسعد منك حظاً فى اقتفاء آثار لامرتين فى هذا الجبل العزيز! آثاره التى تعنينى وتعنيك لأنها تنبض بالحياة وتنبئ عن معانى الروح الملائكية العالية التى كانت لهذا العبقرى المظلل بغمامة الأحزان ، أينما حل وحيثما سار ، ولعل مأساته فى لبنان لاتقل ترويعاً ورهبة عن مأساته التى بدأت فى إكس — لى — بان .

فهل يعنينى أن يكون قد أمضى أياماً عند أمير هو قاطع طريق لاوازع لديه ولاضمير ، قُلّبٌ حُوَّلٌ يتملق الطغيان ويبطش بالكرام ، ويسلك إلى أغراضه الوضيعة مسالك يندى لها جبين كل نبيل ، الغدر ديدنه ، والمبادئ الروحية بضاعته المزجاة يبتاع منها ويبيعها وفقاً للسعر المعروض فى الأسواق ؛ يغدر بعمه ، وعمه ولى نعمته ، ويرحب بالغازى لأنه فاتح يمشى فى موكب الظفر ، ثم يقلب له ظهر المجن فى نذالة لامثيل لها لأن قوى العالم قد تألبت على هذا الفاتح فاضطر أن يفئ إلى مكانه وإكليل الغار لايزال على هامته ؟ وهل هذا مما عسى أن يزهى به عشاق لامرتين الشاعر ؟ لقد دنس لامرتين صفحة جهاده فى سبيل الحرية والكرامة حينما صافح هذه اليد الغادرة . أو تقول إن لامرتين السياسى قد خيب الظنون الطيبة ، فالكلم الطيب من فيه

لم يحققه العمل الصالح من جوارحه ؟ أو ليس هو الذى قبل أن يكون ضابطاً فى الحرس الملكى الخاص بعد عودة الملكية فى فرنسا وما صحبها من رجعية وهدم للمثل العليا الإنسانية التى حمل لواءها أبناء فرنسا الأحرار إبان الثورة الفرنسية ؟ أليس هو الذى خان الأمانى الشعبية فى ثورة سنة ١٨٤٨ بعد أن عقد عليه الشعب كل الآمال ؟ ثم أليس هو – قبل هذا كله – الذى رسم خيوط الاستعمار الفرنسى لدولتى المشرق (سوريا ولبنان) قبل أن يتم بثمانين عاماً أو يزيد ، ووضع الخطة التى اتبعتها السياسة الفرنسية فى حوادث الجبل المتكررة ، وحوادث ستة الستين بخاصة ؟ فهل من عجب بعد هذا فى أن يصافح اليد الغادرة وينعم بالضيافة فى قصرها ؟

ولكنك على اتفاق معى فى نبذ لامرتين هذا واصطفاء لامرتين الآخر ، ولنقل للمنافقين الاستغلاليين مرة أخرى :

لكم لامرتينكم ، ولنا لامرتيننا !

لامرتيننا هو الذى تغنى « بألفيرا » و « بحيرة » البورجيه و « الوادى » و « المثل الأعلى » ، وناح على « الشاعر المحتضر » ، واحترق قلبه بغرام « جرتسيلا » ورسم بريشته الشعرية خليج نابلى وسورنته ، وعمر قلبه الوحى العالى وهو فى وادى حمانا وأمام خليج جونيه ؛

أما لامرتينهم فهو الذى كتب « تاريخ الجيرونديين » وخطب فى الجمعية التأسيسية بعد ثورة سنة ١٨٤٨ ، وهو الذى دعا فرنسا إلى فرض وصياتها وحمايتها على هذا الجبل ، « الأذل » إذن لا « الأشم » ، ولم يتورع عن دعوة بلاده إلى استغلال الطائفية المجرمة فى هذا الجبل

وفى جبل النصيرية لتمعن فى بطشها وتبث سمومها القتالة وتمزق وحدة هذا الجبل الحبيب .

لامرتيننا هو الذى فقد وحيدته جوليا ، الفتاة الرقيقة المبكرة النضوج التى صوحت فى ريعان طفولتها وهى فى سن الثانية عشرة ، فكان حظها البائس حظ سميتها جوليا شارل التى باسمها سميت ، وبعلتها — السل الرهيب — أودت ولحقت بالرفيق الأعلى ، وهو الذى صعد فى الجبل حتى كاد أن يبلغ الأرز الخالد ، أرز الرب ، ولكن حال بينه وبين بلوغه سوء الطريق المغطى بالثلوج ، وهو الذى وقف على مغانى لبنان الفاتنة فحى وإياها فى سورة من وحدة الوجود ، وقشعريرة الحياة الكلية ؛

أما لامرتينهم فهو النائب المحتفى به فى السفارات والقنصليات ، وهو وزير الخارجية الذى اكتوى بنار السياسة البغيضة ، وهو الأوربى الشامخ بأنفه السائح فى الأرض المقدسة وفى سوريا يحف به موكب ضخم من الخدم والأتباع ، والخيول العربية الجياد المطهمة الزاهية بسروجها ولجمها الفاخرة يعلو صهواتها هؤلاء الفرسان النبلاء ، كأنه أمير شرقى طاغية يزهى بموكبه بين رعاياه العبيد وهو يظن أنه سيخرق الأرض وسيبلغ الجبال طولا ؛

لامرتينهم هذا أحتقره بكل مشاعرى . أهو قادم لاستلهام الأرض المقدسة ومنزل الوحى قدوم العبد الخاشع الذى يرجو المغفرة فى البقعة المطهرة ، أم حسب نفسه ريشار قلب الأسد وجودفروا دى بويون يطأ بسنابك خيوله هذه الأرض المقدسة طمعاً فى حرب صليبية أخرى ؟ أفى أرض الآلام التى قدسها دم الفادى الأكبر ، وعلى مشارف

جبل الزيتون الذى شهد نفس المسيح مريضة حتى الموت ، وعلى طريق بيت لحم إلى القدس ، طريق الأشواك والصليب والخل والحنظل ، يختال هذا الدون كيخوته الجديد بجياده الزاهية وحاشيته الوافرة مدججاً بالسلاح ينثر الدنانير فى البذخ والأبهة والترف وإظهار الجبروت ؟

من يزُرْ الأرض المقدسة فليخلع نعليه، وليجثُ على قدميه، وليتوج رأسه باكليل الشوك، وليحمل صليبه على كتفيه، ولْيُدْمِ بسهم الخشوع والخضوع والتبتل جنبه وقدميه وراحتيه — وإلا فلعنة الله الكبرى عليه!

وحسبى هذا التقريع ، فأولى فضائلنا المغفرة ، والرجل الذى طالما افتخر بأنه نُشِّئَ فى حضن تقوى أمه خليق بالغفران .

* * *

لامرتين الذى يعنينا هو إذن لامرتين الذى فقد طفلته الوحيدة جوليا فى هذا الجبل الذى يصطفى لنفسه أنفس الأزهار فيميتها فى تربته لتحيا من جديد خير حياة قدرت لها، عملا بالآية الكريمة فى الانجيل: « حبة البُرّ التى تسقط على الأرض إن لم تمُتْ تبق وحدها ، أما إن ماتت فانها تثمر ثمراً عظيما » (يوحنا ١٢ : ٢٤) .

هكذا وقع لجوليا لامرتين ، هذه الزهرة اليانعة الرائعة ، وهكذا وقع لهنرييت رينان ، هذه النفس العالية الملهمة . ومن قبلهما فى القديم الأسطورى وقع للفتى أدونيس ، رب الجمال .

وأنت ، يا حبيبى ، إن كنت من أهل الحظوة وممن اصطفتهم الآلهة لإعزازهم ، فسيكون مصيرك مصير هذه الأرواح السامية ، فخذ حذرك من هذا الجبل الحبيب الرهيب ! !

سعيت فى مشارف بيروت من أعالى الأشرفية حتى شاطئ البحر ، بحثاً عن هذا المنزل الحماسي الذى كان يسكن فيه لامرتين ، ورحت أسائل الديار داراً داراً فلم أظفر منها بجواب ، مستعيناً بالوصف الشعرى الذى سطره لامرتين فى « رحلته فى الشرق » (جا ، ص١٦٣ تحت تاريخ ٨ أيلول سنة ١٨٣٢ . باريس ، سنة ١٨٤٥)، فقال إن المنزل كان مؤلفاً من خمسة دور تكون مسكناً واحداً وصل لامرتين بينها بسلالم من الخشب وبأروقة وفتحات . وهذا المنزل الحماسي على مسيرة عشر دقائق من المدينة (المدينة القديمة فى ذلك الحين) ، يبلغها المرء محتازاً دروباً تظللها شجيرات هائلة من التين الشوكى التى يتهدل منها التين الشوكى على رؤوس المـــارة . ثم يسير بمحاذاة بعض الأقواس القديمة وبرج مربع هائل ، شيده الأمير فخر الدين المعنى ، أمير الدروز والجبل ، وكان البرج فى تلك الأيام برج مراقبة لحراس إبراهيم باشا الكبير . ومن ثم يتسلل المرء بين جذوع التوت ، حتى يصل إلى مجموعة من المنازل المنخفضة المستترة بالأشجار وعلى جانبيها غابة من أشجار الليمون والبرتقال ، منازل غير منتظمة فى وسطها يرتفع منزل شبيه ببرج مربع هرمى . وعلى بضع مئات من الخطوات من يشاهد البحر متغلغلا فى الأرض ، ويبدو من منزل لامرتين شبيهاً ببحيرة جميلة ، داخلية ، أو بنهر واسع لايرى منه إلا شطر ، قد ألقت فيه بعض الزوارق العربية مراسيها ، وترجحت برخاوة على تموجاته الهادئة . فان وقف المرء على سطح منزل لامرتين ، تحولت هذه البحيرة الجميلة إلى خليج ضخم أحد جناحيه القصر الأندلسى الطراز فى بيروت

« ولعله السراى الصغيرة التى هدمها القوم فى هذا العام ، عام ١٩٥٠) والجناح الآخر يتألف من تلك الأسوار الهائلة الكابية التى تكونها سلسلة الجبال الممتدة ناحية طرابلس .

ذلك فى خطوطه العامة المجمل الذى رسم به لامرتين مقامه فى مشارف بيروت . والصورة جميلة ، ما فى ذلك ريب ، مطبوعة بالطابع الرومنتيكى الحالم الذى كان يستهوى لامرتين . وبقدر ما هى جميلة هى غير دقيقة ولا مفيدة فى تحديد موضعه بالدقة . فما بالك وهذا القسم من المدينة الذى يجاور الآن « دير الناصرة » ، أو « دير راهبات سيدة الناصرة » فى أعالى « الأشرفية » قد تعاورته معاول الهدم والتعمير ، فلم تدع فيه معالم يهتدى بها ! فضلا عن أن المنازل الخمسة التى كان يقطن فيها لامرتين كانت منازل صغيرة ١٠ أسرع أن تتداعى ، أو تزال لتحل محلها منازل أعلى بنياناً وأرسخ أساساً !

يئست إذن من الظفر بمنازل لامرتين . ولكن هذه الرابية التى تدعى محلة الأشرفية قد صارت كلها حبيبة إلى قلبى ، أوثرها بالزيارة كلما هزنى الشوق إلى منازل لامرتين ، أو هزنى الشوق إليك أنت أيها الحبيب العزيز الذى يحمل لهذه الرابية الرائعة فى قلبه وعقله أنبل الذكرى ؛ ولئن كانت قدم الإنسان « والعمران » المدمرة لكل طبيعى جميل تُغِذُّ السير فى هذه البقعة الطاهرة العامرة بالبساتين والأشجار الباسقة ، فسنبقى على حبها أبدا .

ويئست كذلك من الظفر بمكان شجرة الخروب التى ظللت لحد جوليا بعد وفاتها فى بيروت فى ٦ كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٨٣٢ وهى

لما تبلغ الحادية عشرة ربيعاً (إذ ولدت في ميي Milly في ٤ أيار – مايو سنة ١٨٢٢) ودفنها موقتاً في مكان قريب من منازله إلى أن حان نقلها في شهر أيار سنة ١٨٣٣ على الباخرة ألسست Alceste إلى فرنسا لترقد في سان – بوان Saint-Point كما كانت أمنيتها في لحظاتها الأخيرة .

فهل لنا أن نبتاع قطعة في رابية محلة الأشرفية نغرس فيها شجرة خروب ، يأتي عندها أصدقاء لامرتين في لبنان في ٦ كانون الأول من كل عام ، ويقفون من حولها خاشعين ، وخواطرهم في السماء تتبع ذلك الملك الكريم ؟

وفي انتظار تحقيق هذه الأمنية الأثيرة عندي – وعندك أيضاً فيما إخال – تراني أطوف ، في السادس من كانون الأول كل عام ، في أرجاء محلة الأشرفية ، ونفسي الحزينة تردد مع لامرتين مرثيته الأليمة :

« بستان الزيتون ، أو موت جوليا » :

« كنت منذ الرضاع رجل الآلام ،

ومن قلبي ، بدلا من الدم ، لايتدفق غير العبرات ،

بل بالأحرى سلبني الله نعمة الدموع

فجمّد العبرات في قلبي .

المرارة شهدي ، والحزن سروري ،

وغريزة الأخوة تجتذبني إلى كل نعش ،

وما من طريق يستوقفني إلا إن أبصرت فيه

طللا تهدم أو مناحة نائح

* * *

إن أبصرت المروج الخضر تروى بالغمام
والأودية المونقة تتفتح لعناق البحر ،
اجتزت عابراً، وأنا أقول لنفسى بابتسامة مرة :
هذا مكان للهناءة ، ولكنه ، ويا للأسف ! ليس مكانى !
ولا يرن الصدى فى روحى إلا حيث يسمع النواح
وأينما يكُنْ بكاءٌ فثم وطن لنفسى
والتربة المعجونة بالرماد والعبرات
هى الفراش الذى يطيب لى فيه الرقاد

* * *

تسألنى : لمـــاذا ؟ فلا أملك جواباً ،
قصاراى أن أثير الأمواج فى هذه الهاوية الرهيبه
وفمى للكلام لا يملك غير الزفرات ،
لكن مزق هذا القلب إن شئت القراءة فيه .
فى أليافه أنشب الموت مُدْيته
وما نبضاته سوى حشرجات بطيئة ،
وما يملؤه غير الموتى والأشلاء المعروقة ،
نفسى كلها قبر ؛ . . .

* * *

غير بعيد خلَّفْتُ تحت جناح الأمومة
ابنتى ، فلذة كبدى ، همى ، كنزى

كان جبينها يكتمل كل ربيع ،
لكن روحها كانت فى السن التى تدعوها فيها السماء ،
صورتها لا تمحى من العين أبدا ،
كان أثرها يتبع شعاعها فى كل مكان ،
وما من والد أبصرها تعبر
حتى يعود فيلقى إلىَّ نظرة الحسد .

***

كانت الحطام الوحيد الباقى من عاصفتى العظمى ،
والثمرة الوحيدة لعديد الأزهار ، وأثر الغرام الوحيد ،
كانت دمعة ساعة الرحيل ، وقبلة عند الإياب ،
وعيداً دائماً فى منازلى الشاردة
كانت شعاعاً من الشمس على نافذتى
وطائراً بغوماً يشرب من فمى ،
ونسيماً ناعماً فى الليل قرب مرقدى ،
وتجميشة عند يقظتى !

* * *

بل كانت أكثر : كانت صورة من أمى ، وواأسفاه !
من خلال عيونها لاحت لى نظرة أمى
وبفضلها عاد ماضىَّ فولد مستقبلا ،
فما تبدل من سعادتى غير مظهرها ،
وكان صوتها صدى عشر سنين من النعيم ،
خطوتها فى البيت كانت تملأ الهواء بالمفاتن

ونظرتها تجعل الدموع تتواثب إلى عيونى ،

وبسمتها تنير قلبى . . . .

. . . .

* * *

وحسبى هذه الآهة من تلك الصرخة العظمى ، فما فى وسعى المزيد ، فكل نبرة فيها تمزق الفؤاد ، وتهز الكيان بكل عنف . وحسب كل ساعة آلامها كما يقول الفرنسيون .

***

ولامرتين الذى يعنينا كذلك هو لامرتين الذى سعى إلى الأرز الخالد ، أرز الرب ، فلم يبلغه . وأنت تعرف حقيقة الحال فى هذه المسألة ، لأنك أنت الذى نبهتنى إليها بعد أن كنتُ منساقة فى الوهم العام الذى شاع بين الناس حتى بدده هنرى بوردو Henry Bordeaux فى سنة ١٩٢٦ ، الوهم الذى يزعم أن لامرتين قد صعد إلى أرز الرب حتى بلغ الشجرة التى شاهدنا منقوشاً عليها اسمه واسم ابنته جوليا واسماً آخر غريباً هو جيرانب ، هكذا :

de LAMARTI
JULIA
Géramb
+

ذلك أن لامرتين قد صعد إلى الأرز فى الثالث عشر من شهر نيسان (ابريل) سنة ١٨٣٣ ، فجاوز إهدن ممتطياً صهوة جواده « الشام » وتقدم فى صحبة شيخ إهدن وكوكبة

من الإخوان إلى مشارف الأرز ، وعدت القافلة بجيادها لتقترب من الأرز قدر المستطاع . وكان الثلج يغمر نواحي الأرز ، فلما كانوا على مسافة خمسمائة أو ستمائة خطوة من أشجار الأرز غارت خيولهم فى الثلج العميق حتى أكتافها ، فاضطروا إلى التوقف مكانهم ، والتأمل من بعيد فى هذه الأشجار الخالدة التى « تكلل جبين الجبل كالتاج المرصع ، وتشهد تفرع أودية عظيمة عديدة تنحدر منها ، والبحر والسماء أفقها . . . لا مناص إذن من التخلى عن فكرة لمس هذه الذخائر التى خلفتها الأجيال والطبيعة ، لمسها بيدنا : فنزلنا عن خيولنا وجلسنا على الصخر نتأملها » كما قال لامرتين فى «رحلته» إلى «الشرق» (ج٢ ص١٢٤ ، تحت تاريخ ١٥-٤-١٨٣٣ باريس سنة ١٨٤٥) .

لم يمسس لامرتين بيده إذن أشجار أرز الرب ، والشجرة التى نقش عليها اسمه واسم ابنته لم يلمسها لامرتين ولم يقترب منها ولم يقف تحتها . فمن أين هذا النقش ؟

كان فى لبنان فى ذلك الحين رجل غريب الأطوار يدعى الأب دى جرانب Père de Géramb وكان قبل أن يلحق الرهبنة وينتسب إلى الطريقة الترابية La Trappe رجلا خاض غمار السياسة حتى أصبح الجنرال بارون فردينند دى جيرانب ، ونعم بالدنيا والقصور فكان مدير المراسم فى بلاط إمبراطور النمسا ، فأظهر لفتات من الفروسية العريقة زادت من شهرته : حدث مرة ، أثناء موكب عبدالله Fête-Dieu أن كانت الامبراطورة تجتاز طريقها فى الموكب ، ففى أثناء الطريق خلت بقعة من الطريق من البساط الذى كانت الامبراطورة تمر من

فوقه . فأحست ببعض الحرج ، فتقدم البارون دى جيرانب فانتزع ثيابه وألقى بها تحت قدمى الامبراطورة لتمر عليها . وشارك فى الحرب الأسبانية ضد نابليون ، وكانت شرطة نابليون تطارده فى كل مكان ، وظل هكذا إلى أن عزف عن الدنيا وزخرفها ، فآثر دخول الرهبنة ، فانضم إلى الطريقة الترابية فى ١٢–٢–١٨١٦ ، وكانت له حياته العامرة فى هذا الوضع الجديد ، إلى أن عزم على زيارة الأرض المقدسة ، فوصل القدس فى ٢٠ آذار (مارس) سنة ١٨٣٢ ، وطوف فى أنحاء فلسطين على آثار المسيح ، ثم وصل إلى لبنان قبل وصول لامرتين بقليل . وما وصل لامرتين حتى هرع إليه هذا البارون الجنرال الراهب الترابى .

وفى الحادى والعشرين من تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٨٣٢ صعد الأب دى جيرانب إلى الأرز ، فعلا الصخر وتقدم فى قلب الهضبة حتى بلغ غابة صغيرة من الأشجار كانت هى الأرز . وكان قد وعد لامرتين وابنته جوليا قبل رحيله هو من بيروت أن ينقش على « أكبر أرزة فى لبنان اسم أبيها واسم أمها واسمها هى معهما . فأبررت بوعدى ، وإن كان التنفيذ أقل سهولة بكثير مما تخيلت ، ونعمت مقدماً بنجاح عملى ، وأنا أفكر فى أن الشاعر الشهير حينما يأتى يوماً إلى الأرز ، فسيرى من بعيد اسم زوجه واسم ابنته ، هذين البضعتين من قلبه » ، كما قال هو فى رحلته : « حج إلى القدس وطور سينا فى سنوات ١٨٣١ ، ١٨٣٢ ، ١٨٣٣ » (الطبعة الثالثة ١٨٣٩ ، باريس) . فى ذلك التاريخ ولدت أسطورة « الأرز ولامرتين» .

فكانت هذه الالتفاتة الجميلة من هذا الأب الراهب خير ذكرى باقية من عهد فروسيته فى بلاط فينا ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه مصدر وهم تاريخى انطلى على الناس قرابة قرن من الزمان ، بالرغم من أن نظرة فاحصة إلى ما كتبه لامرتين وصفاً لرحلته إلى الأرز ، وهو ما أوردته بحروفه منذ قليل ، كانت تكفى لتبديد هذا الوهم الذى ولد أسطورة « لامرتين فى الأرز » .

ولكن صدقنى أن هذه الأسطورة أثمن وأعز من الحقيقة التاريخية الجافة التى نبهتنى إليها . قاتلك الله وقاتل ولعك بالحقائق التاريخية ! فقد انتزعتنى من حُلْم جميل طالما تغذت به نفوس شاعرة ، وطالما هدهدنى من قبل فى زياراتى للأرز وتقبيلى لهذه الذخيرة العزيزة التى كنت أقبلها كما يقبل المؤمن الورع الركن والمقام والحجر الأسود ، أما الآن فقد أصبحت أنفر منها وأجزع ، فويلى عليك وويلى من ولوعك بالنقد التاريخى !

نعم ! الأسطورة أجمل وأثمن وأغنى وأجدى من كل تاريخ ! لكن ، أترانى أجرؤ على تناسى هذه الحقيقة التاريخية ، فأقوى على حمل نفسى إلى أرز الرب مرة أخرى ، وهو الآن على مقربة منى ؟

أرجو هذا ، وإلا فسأمسك بمخنقك وأضغط عليه بكل عنف ومرارة حتى تنىء إلى وجدانك وتنبذ عقلك معى ، فتصرخ من أعماقك كما صرخ بسكال Pascal وكما صرخت معه فى وجهك آلاف المرات فلم يفلح فى نصحك شىء : « اخرس ، أيها العقل الأحمق ! Tais-toi, raison imbécile » .

— ٢٣ —

إلى سلوى

دير الصخرة أو جبل القديس ميخائيل

« نسمات لبنان تهب فى كل مكان ، فبأى آلاء لبنانى تكذبان ؟ هاكم برهانى أيها المنكران ! »

هكذا صحت فى صاحبىَّ صيحة السرور ، وأنا أشير إلى غادة لبنانية تبيع التحف والصور والتذكارات فى أول حانوت عن يمينى وأنا داخل فى الدرب الصاعد إلى الدير . فما كدت أقف أمام الحانوت وأنادى صاحبى بالعربية ، حتى تبدت أمامى ابتسامة ناعمة ساحرة لم أفهم لها معنى فى بادئ الأمر ، فرددتُ الابتسامة بأحسن منها — وما أسرعنى إلى اهتبال أمثال هذه الفرص ! — عملا — فى الظاهر — بالآية الكريمة : « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها » . بيد أنى سرعان ما لمحت أن ابتسامتها ليست من نوع تلك البسمات التجارية المصطنعة التى تبذلها البائعات الفرنسيات فى غير اكتراث ولا دلالة ، إنما ابتسامتها صادقة فياضة الشعور صادرة من القلب المنتفض بالفرح المفاجئ . وآية ذلك كله هذه الحمرة البديعة التى ضرجت خدها الوردى ، وهذه الانثناءة الناعمة التى برزت فى قوامها الفارع اللدْن ، وهذه النظرات الخفيضة من فرط الحياء . فأقبلت عليها أستطلع طِلْعها ،

فلاذت بزميلتها البائعة الفرنسية ، وعقد الحياء لسانها عن أن تجيب عن سؤالى إياها : ما معنى هذه الابتسامة الصافية العميقة الحارة الصادقة ؟ فتولت زميلتها الإجابة عنها قائلة : إنها من بنات وطنك ، وقد هزها الحنين لما أن سمعت رطانتكم .

قلت بالعربية : ومن أين يا آنسة ؟

فأجابت : من لبنان .

فما كدت أسمعها تنطق باسم بلدك الحبيب حتى اهتزت أوتار كيانى كلها ، وتداعت جوارحى ودمائى تهتف : « لبيك أيها الظبى البغوم ! لبيك أيها الشحرور الذى هجر الأرْزَ والنور ، ولاذ هنا بالقسطل والضباب ! لبيك أيها الصوت الحنون الذى كان يترنم بالميجانا والعتّابا ، واليوم أضحى يرطن بأغانى بيجال ومونمارتر ! لبيك يابنت كسروان ، وياسليلة عشتروت ، وحفيدة أدونيس !

عيونك أصفى من ينبوع بكفيا ، وذراعاك أنصع من زهرة الجردنيا ، وقوامك أمشق من سرو شتوره ، ونحرك الذى لوحته شمس الشاطئ يرف قانياً بنياً كالتراب الطهور بين المعلّقة وبعلبك ، وشفتاك اللعساوان أشهى من تفاح إهدن وتين صيدا ، وشعرك الجفال العاطر المفوّف بالأزهار أزهى من بساتين الليمون فى مشارف أنطلياس ، ونهداك الواثبان على صدرك الريان كأنهما حرمون وصِنّين ، وأنفك المسنون أشم من القرنة السوداء .

فى نبراتك تسمعت إلى خرير الينبوع فى مغارة قاديشا ، وأغاريد الكرّامات وهن يعصرن الخمر فى روابى كساره وزحله ، والأمواج

الساجية فى خليج جونيه ، والشحارير المغردة فى بساتين القاسمية ، وفى بسماتك توسَّمْت الانعكاسات العنبرية على وريقات الزيتون بين الحدث وصيدا ، والألوان الزاهية فى وادى الدامور من أعلى المُطيَّر فى عِبىَّ حتى دير القمر والمختارة فى أعالى الشوف ، وفى تثنيات قوامك الرقيق الخيزرانى تحت طريق الأرز بين الديمان وبشرى ، وبين ساقيك حلمت بوادى حمانا والقطعان الشاردة فى المرعى الخصيب ، وفى خفر نظراتك أبصرت حمرة السيل فى نهر إبراهيم — أدونيس . . . . .

بهذه الأنشودة كنت أهتف فى أعماقى وقد تدفقت منى تحت مرأى هذا النور المتسلل عبر البحار من الجبل الأشم الحبيب إلى جبل القديس ميخائيل Mont-Saint-Michel وكان صمت سابح فى الآفاق البعيدة التى تبصرينها بعينيك الزمرديتين ، يا سلواى العزيزة . لم أفق منه إلا على صوتها وهى تسألنى بعد أن مسحت الخجل عن وجهها الوردى : وأنت ، أأنت من مصر ؟

فهتفت فى التو : نعم من مصر بالبدن ، ولكنى من لبنان بالروح ؛ وبالروح أحيا ، وبالبدن أعيش .

نعم ! فى لبنان روحى تستشعرينها فى كل مكان : فى فم الشحرور وهو يصدح فوق السنديانة العتيقة مُسبّحاً بجمال الوادى الظليل ، وفى الينابيع المتدفقة من سفوح صِنين إلى البردونى ، وعلى شفاه القيان الزحلاويات وهن ينشدن مقاطع الميجانا ، وعلى سفوح الدامور والشمس المطفلة تطبع قبلتها الحارة على كفرمتّى ، وبين أحراش الصَّنَوْبر بين عاليه وعيناب . نعم ! روحى تستضحى للشمس الدافئة

فى المقهى المطل على صفا اليم « الروشه » ، وتتجول بين الأشباح الخاطئة المرنقة فوق جبل الشيخ ، وتنزلق مع المنزلقين والمنزلقات على ثلوج ظهر البيدر ، وتسعى بين القديسين والأبرار فى وادى قاديشا ، وتلتمس الكرامة مع العاقرات المتوسلات الحاثيات التراب على رؤوسهن أمام ضريح الأوزاعى .

اللهم أحينى بأنفاس لبنان ، وأرقدنى فى تراب لبنان ، واحشرنى فى زمرة الأرواح الشاردة المطوفة على قمم لبنان ! »

دعاء هتفت به من أعماق ، وأنت ياسلوى خير من يعلم صدقى فيه .

ثم رحت أسائلها عما أتى بها إلى هذا الصقع النائى ، فعرفت منها أن أسرتها تسكن فى مدينة رن Rennes ، وقد هاجرت إلى فرنسا منذ عشر سنوات بعد أن كانت تقطن فى بيروت فى حى المزرعة ، وأنها تعمل فى هذا الحانوت المسمى : بيت شفاليبه Maison Chevalier فى جبل القديس ميخائيل إبان الصيف حيث يأتى الحجاج والسائحون من كل الأصقاع . فاتعدنا مطعماً فاخراً يطل على البحر الرهيب فى هذه الليلة القمرية الفاتنة فى الساعة السابعة بعد أن يغلق حانوتها وأكون أنا قد فرغت من زيارة الدير الرهيب . وأسرعت للحاق بصاحبىَّ اللذين استحثانى المرة بعد المرة ، والكرة بعد الكرة ، وأنا أسير هذا الشحرور البغوم الوافد علينا من الجبل الأشم ، فرأيتهما فى بهو الانتظار الفسيح ينتظران مقدمى ، فهرعت إليهما وأنا أردد صائحاً :

« نسمات لبنان تهب فى كل مكان ، فبأى آلاء لبنانى تكذبان ، هاكم برهانى أيها المنكران ! »

وفتح الباب المواجه فتقدم فوج من الزائرين يقودهم الدليل ، فكان هذا إيذاناً بدورنا وفوْجنا فى الزيارة .

* * *

ولهذا الدير - الحصن تاريخ شائق فريد حافل بالأخطار ، حتى كان يسمى جبل القديس ميخائيل ذا خطر البحر ، Mont-Saint Michel au-péril-de-la-mer ظل طوال قرون قلعة منيعة تدفع غارات الأعداء من القرصان الانجليز - وهل الانجليز كلهم فى تاريخهم الطويل غير قرصان ! - ومن غيرهم ، كما كان نهباً مقسما بين هؤلاء القرصان الانجليز أنفسهم وبين أهل نورماندیا .

نشأ هذا الدير الحصين فى سنة ٧٠٨ فى بقعة كانت تغمرها الغابات الكثيفة آنذاك ، ولا يبرز منها إلا صخرتان شماوان هما اللتان تعرفان اليوم باسم جبل القديس ميخائيل واسم تونبلين Tombelaine استراح إلى ظلهما نفر من الرهبان الأتقياء فأقاموا عليهما معبدين توج أحدهما باسم القديس اصطفان والآخر باسم القديس سومفوريون . وهنا تزعم الأسطورة أن سيد الملائكة القديس ميخائيل قد تجلى فى الرؤيا للأسقف أوبير Aubert ، أسقف أفرانش Avranches ، وأمره بأن يبنى على هاتين الصخرتين هيكلا محلاباسمه . فأقبل الأسقفُ على المكان الذى أشار به الملك ميخائيل وشاهده صخرة شماء تشرف على اليم ، بمعزل عن الرطوبة ، فاستخار الله فى بنائه ، وبدأ البناء بإخلاء الصخرة مما كان عليها من أحجار . وشيد الهيكل ، وزود بالذخائر المقدسة التى سعى إلى تحصيلها نفر من الرهبان ، ماعادوا بعد

نهاية رحلتهم هذه حتى وجدوا جبل القديس ميخائيل يرتفع عالياً ظافراً بين الأمواج . واستودعت هذه الذخائر المقدسة عند مجمع من الكهنة عدته اثنا عشر . وبقى على تلك الحال أكثر من قرنين ونصف ، هيكلا للصلوات ، ومقاماً لرهبان أتقياء . ولكن كل حال تحول ، فإذا بالفساد يدب إلى نفوس الرهبان فيصبح الدير ملاذاً للترف ، وكدت أقول الفجور . فارتفعت الأصوات تطلب رد هؤلاء الضالين إلى السبيل السوى ، فاضطر دوق نورمانديا رتشرد الأول إلى التدخل لزجرهم ، فلم يفلح . هنالك استعان بالحزم فاتفق مع البابا يوحنا الثالث عشر لطردهم ، واستبدل بهم سنة ٩٦٦ ثلاثين نفراً من الرهبان البندكتيين استقدمهم من دير سان فاندرى Saint-Vandrille ، وتولى عليهم مينار الأول Maynard فبدأ فى تنظيمة ، وخلفه ابن أخيه مينار الثانى ، فازدهر الدير ، إلى أن وقع حريق حطم قسما من الكنيسة الصغرى فى سنة ٩٩٢ ، مالبث أن أصلح . ولكن الكنيسة كانت صغيرة ، فقام الدوق رتشرد الثانى — الذى جاء فى سنة ١٠١٧ ليبارك على زواجه من جوديت دى بريتانى Judith de Bretagne — بأمر الانفاق لإنشاء بازليكة خليقة بهذا المكان الجليل . وفى آخر عهده وفى عهد خلفائه توالت الأعمال لإنشائها حتى أوشكت على التمام لمـا أن وقع تصدع هائل فى البناء سنة ١١٠٣ انهار معه الجانب الشمالى كله . فبدأت أعمال الإصلاح والتعمير ، ولكنها مالبثت أن تداعت بتأثير صاعقة وقعت فى ٢٥—٤—١١١٢ فأحرقت كل المبانى ناحية الشمال . واستؤنفت أعمال التعمير بعزيمة لاتعرف اليأس حتى

استكمل بناءه فى نهاية القرن الثانى عشر . ولكن كوارث الزمان كانت له دائماً بالمرصاد ، فحدث حريق هائل فى سنة ١٢٠٣ لما أن جاء جى دى توار Guy de Thouars فحاصر الدير ليدفع فى وجه عدوه دوق نورمانديا ، ولكن الدير صمد للمغيرين ، مما أثار ثائرة جى دى توار فأحرق رجاله المدينة المجاورة ، فامتدت ألسنة النيران حتى أتت على شطر عظيم من المبانى ناحية الشمال . وكان التعمير من جديد ، مما زاد فى أجنحة الدير وأروقته وحجراته .

لكن هذه الاصلاحات المتوالية قد جعلت الدير مزيجاً غريباً لِطُرُز متباينة ، بل متنافرة ، فكان على القوم أن يوفقوا بينها .

وجاءت الفترة العصيبة فى تاريخ الدير لما أن قامت حرب المائة عام بين انجلترا الغازية وفرنسا الضحية ، فعانى منها الدير الأهوال ، لأنه كان أمام فوهة المدفع بين الفريقين المتحاربين ، لهذا حُصن بتحصينات منيعة جعلت منه قلعة طالما استبسلت فى الدفاع أمام الغزاة ، حتى كاد الناس ينسون أنه دير وليس قلعة . وكان النصر فى البدء لملك انجلترا ، فرأى أهل الدير من المرونة السياسية أن ينتظم فى صف ملك انجلترا ضد الملكية الفرنسية . فلما رأى روبير جوليفيه هذا الغدر ، وهو الذى حصن الدير للدفاع والمقاومة ، أصبح عدواً عنيفاً للدير . وكان صراع عنيف حول الدير بلغ أشده فى سنة ١٤٢٧ لما أن خرج نفر من الحامية فصدوا الانجليز المغيرين ، وكانت معركة فورمينى سنة ١٤٥٠ التى طردت الانجليز من نورمانديا ، ففك الحصار عن جبل القديس ميخائيل .

ولما انتهت حرب المائة عام عاد الدير إلى سالف أيامه : كعبة يقصدها الحجاج من كل البقاع المجاورة ، فازدهر الدير وزادت عمائره ، واتخذ طابعاً قوطياً .

ثم قامت الحروب الدينية فأصابته بجناحها الرهيب ، وأظهر نتائجها أنها أدخلت فى الدير إصلاح القديس مور Maur مما أدى – بدخول البندكتيين التابعين لفرقة القديس مور – إلى كثير من التخريب فى أنحاء الدير ، أو إشاعة الذوق الفاسد فى مبانيه ، وإن كانوا قوماً على حظ من الثقافة والعلم غير قليل .

وجاءت الثورة الفرنسية ، فأعملت فيه معاول النهب : فبدد الكنز ، وصهرت الإطارات ، ودنست الذخائر المقدسة ، وأسقطت النواقيس من مآذنها . ثم حول الدير إلى سجن ، اعتقل فيه ثلاثمائة كاهن من الكهنة الذين أبوا أن يقسموا يمين الولاء لدستور الجمهورية . وفى عهد الامبراطورية (نابليون) صار حصناً ، وفى أيام حكومة لوى فيليب طمر فيه المسجونون السياسيون .

وهذه الأحداث وحدها كفيلة بأن تشوه أركان الدير وتحطم نظامه ، وظل يسعى إلى الدمار والخراب بخطى سريعة ، لولا أن تداركته عناية الدولة فى ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١٨٦٣ فوقفت أعمال التخريب . وفى سنة ١٨٦٥ رد الدير إلى العبادة ، وأقام فيه رهبان سان ادم فى بونتينى Saint Edme de Pontigny . وفى ٢٠ نيسان (أبريل) سنة ١٨٧٤ صدر قرار جمهورى بعدّ الدير ومتاريسه من بين الآثار التاريخية .

فبدأت الدولة تعنى باصلاحه ورده إلى عهده السعيد الحالى ، ونيطت هذه المهمة منـــذ سنة ١٨٧٢ بالمعمار إدوار كوروابيه Corroyer فأعاد الفناء الداخـــلى cloître ، وقام من بعده فكتـور بتيجراند Victor Petitgrand فأصلح أعمدة الكنيسة وشيد البرج والسهم ، وتوّجه بتمثال القديس ميخائيل الذى نحته فرميا Fermiat. ثم عهد بالإشراف على الدير إلى بول جو Paul Gout فى سنة ١٨٩٨ فأصلح الكورس القوطى والمستعرضات والفُلْك ، كما استعاد بئراً جميلة من القرن السادس عشر ، وسلسلة من الأروقة ، وأبرزه على النحو الرائع الذى يدهش الزائرين اليوم ، لأنه اتخذ قاعدة له أن يقوى القديم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وألا يعيد بناءاً إلا إذا كانت الضرورة القصوى تقتضيه. وهى قاعدة ذهبية حبذا لو اتبعها كل الذين يوكل إليهم أمر التعمير والإصلاح ، فيبقى القديم على قدمه وجلاله ، ولا يبدو الحديث إلا من وراء الستار .

***

والدير القديم قد مر بأدوار ثلاثة : الدور الكارلى ، والدور الرومانشى ، والدور القوطى .

أما من الدور الكارلى فلم يكد يبقى شئ ظاهر ، وما استخرجه علماء الآثار عن البناء الأصيل ومخططه ونظمه وأبنيته يضرب فى بيداء الظن . فلنمر به عابرين إلى الدور الرومانشى ، حيث نشاهد المخادع والمنازه وكابلة القديس اصطفان والمقبرة ، وكلها فى مستوى المـــاء أو تحت مستواه .

وجاء الدور القوطى فوهب الدير كل جلاله : فمنذ الحريق الذى أشعله أتباع جى دى توار فى سنة ١٢٠٣ والأعمال التعميرية تتسع فى الدير إلى أبعد حد مستطاع ، وهى التى نشاهد اليوم جلالها وفخامتها . فهذا هو المدخل الرائع الذى انتهى سنة ١٣٩٣ ، يعلوه برجان تتبادل فيهما مدارج الجرانيت الأسمر والجرانيت الأحمر ، وتتوجهما دوائر مسننة تخفف من التكتل وتضفى عليه رشاقة الدنتلة ، يتقدمه سلم ضخم سريع الميل . وما تجتاز الأعتاب حتى تدخل قاعة ضخمة ، هى قاعة الحراس ، وأرضها مائلة تتبع انحدار الصخرة ، تغمرها أشعة النافذة الواسعة ، وقبتها العديدة المفاصل تسترعى الانتباه بصلابتها .

ثم دخلنا الكنيسة الديرانية بأضوائها الغامرة وأعمدتها المتكتلة ، وقد تجلت فى غلالة وردية كانت فى تعارض فتان مع البحر الفضى ، والنوافذ الضخمة تنعى حظها وقد فقدت ألواحها الزجاجية . ولعلك تدهشين إذ ترين الطراز القوطى فى السقف والنوافذ يتجاوب مع الأعمدة الضخمة ، وأنت تعلمين أن القوطى يستلزم الرشاقة ولهذا يقتضى أن تكون السوارى من الخيزران الأملد . ومع ذلك فلندع هذه الملاحظة جانباً ، فالدير حصن قبل أن يكون أثراً فنياً للمعمار الرفيع . فاغتفرى هذا التباين .

وتعالى معى الآن إلى الفناء الداخلى cloître الذى بُنى بين سنة ١٢٢٥ وسنة ١٢٢٨ : فهنا الطبيعة بمسارحها الرائعة ولوحاتها الفتانة تشيع البهجة والحبور فى المتنزهين بين دهاليزه ، والمستندين إلى أعمدته فى تأمل الشاعر العاشق . هنا ارتاحت نفسى حقاً ، حتى تمنيت المقام

فى هذا الفناء ملاوة من عمرى . لو كنت أحيا فى ذلك العهد الغابر بتأملاته الساجية ومشاعره العالية . ولكم شاهدت فى إيطاليا من أفنية داخلية Chiostros فى الكنائس العريقة ، ولكنى لم أعجب بواحد منها إعجابى بهذا الفناء الداخلى ؛ إن فيه رشاقة ، وكدت أقول رعونة فى هذا المكان الذى امتاز كل مبنى فيه بالتكتل الضخم الثقيل . وهذه الأقواس المتوالية وما بينها من مساحات غطيت بالنحوت البارزة المتعددة الأنواع ، كم تستريح العين فيها إلى ألاعيب الأضواء والظلال !

واجتزنا باب الرائعة Porche de la Merveille فدخلنا قاعة الضيوف التى كان رئيس الدير يستقبل فيها كرام الضيوف . فشاهدنا عن شمال مدختنين هائلتين استغرقتا سعة القاعة ، وتوالت صفوف من الأعمدة ذوات التيجان المتوثبة المزدانة بأوراق النبات المنحوتة ، وتعانقت أقواسها الدقيقة بحرارة ومرونة . وخرجنا منها فى دهليز امتد بنا فى قاعة الفرسان : وهى قاعة فسيحة غطتها قباب رائعة تستند إلى أعمدة أسطوانية . وهى أقل من قاعة الضيوف أناقة ورشاقة ، لكنها أشد منها صلابة وأدخل فى باب المعمار الصادق .

ثم دار بنا الدليل فى قاعات تلو قاعات ، وأروقة وحجرات ، كأننا فى تيه حقيقى ، ونحن نغوص فى الظلمة حيناً ، ثم نطفو حيناً آخر على سطح النور البهيج . ولست أدرى ماذا كنت أفضل : الظلمة أو النور ، خصوصاً وفوجنا قد اندست فى زحمته زهرات يانعات فاتنات !

وأخيراً انتهت الزيارة ، فخرجت إلى المتاريس الخارجية وجلست

على إفريزها وأنا أتأمل الشمس الغاربة وقد أحالت الموج الفضى إلى مرج من الورود والرياحين ، وتعالت ضربات الآذىّ فى الصخرة الراسخة ، والمواكب المتوالية من الزائرين والحجاج تتوالى فى هذه المدارج والمراقى والطرقات المطلة على البحر فى غير انقطاع . وكانت قطعان الضأن الشهيرة بلحومها تغادر المروج المالحة prés salés – التى سميت باسمها – يحدوها الراعى إلى حظائرها فتثير الحركة والحياة فى هذه المناظر الرائعة الممتدة حتى بونتورسون Pontorson ، وشاطىء الزمرد يساحل البحر الصافى صفاء عينيك الخضراوين ، أى سلواى الحبيبة !

هنالك امتدت نظرتى عبر الأرض والمـاء ، كالشهاب الثاقب خلال السماء ، فأبصرتك فى رؤيا الخيال الوردى الجناح تتأملين الأمواج الزرق فى خليج جونيه من أعالى « حريصا » !

ثم أفقت من أحلامى على نسمة ذكرتنى بميعادى مع النسمة العذبة التى هبت علىّ من لبنان فى هذا المكان .

فطوبى لميكائيل شفيعى لدى لبنان !

فى سويسرة

— ٢٤ —

إلى سلوى

فى الطريق إلى سويسرة

ســـــــلوى !

النجاءَ ، النجاءَ ، من أرض العناء !

أرهقنى الفتون ، وزاغ البصربين الفنون ، واتقد الإحساس حتى الجنون ، وحملت على كاهلى صليب الخطايا ، ومُدْية الهم غائصة فى الطوايا والخلايا . فالفرار ، الفرار ، من هذه الديار !

فى يدى جمرة ، وفى رأسى خمرة ، والحج أضنانى فأين العمرة ؟ !

عشت فى نعيم الجحيم ، فمن لى بجحيم النعيم ؟

نعم ! أنا خاقت ابن الجحيم ، فيه أود أن أقيم ، وعنه لا أريد أن أريم ، لكن نفسى تهفو رغم ذلك بين الحين والحين إلى استرواح أنفاس النعيم .

فلتكن رحلتى إلى فرنسا إذن « ملاوة فى الجحيم » ، ورحلتى إلى سويسرة « ملاوة فى النعيم » .

فاسمعى حديثى عن « جنة النعيم » :

— ٢٥ —

إلى سلوى

فى جنة لوتسرن

بين محارب الزيزفون فى موكب الأصيل الساجى ، وعلى شاطىء بحيرة « لوتسرن » ذات الخصر النحيل والصدر النبيل والقوام الطويل ، تهيمن علينا أفاريز من الأجبال المتلفعة بالسحاب ، وخمائل من سامق الأشجار والأزهار تنحدر فى لهفة وانبهار إلى صفحة الماء الساكنة فى أنغامها الزرقاء ، وأسراب من البلشون الناصع تختال فى عُرض البحيرة بجلال واعتدال — أى إطار بديع يتبدى الآن أمام العيون !

من الجبل إلى البحيرة ومن البحيرة إلى الجبل ، همس أرق من الغزل يسرى على مهل ، وسحاب يغدو بين الأعالى على عجل ، والنفس حائرة بين اليأس والأمل : فهذان عاشقان يقتلان الشوق بالقبل ، وهناك فلاح وملاح فى زحمة العمل ، وإلى جوارى يجلس شيخ يكافح الأجل ، وعلى طول الشطئان غانيات يخطرن فى دل وغزل ، وفى خدودهن إغراء تعلوه حمرة الخجل — وها أنذا وحدى أهيم بين مفاتن تلك الصور . عن يمين ، أبسم لجبل بيلاتوس Pilatus وقد صار شيخاً يتبدى الضحك الساخر بين فوديه . وعن يسار ، أحلم مع جبل استانزرهورن وقد تجلل بالشعاع الوردى ، وفوق الجسر أملى الطرف اللهيف بين وجوه الغوانى

من كل الأجناس ، وأستعطف البلشون وهو يسبح قربه فى استسلام موج بليغ . والظلال الناعمة تساقط على سفوح الروابى ومنحدرات الجبال فتثير فى النفس قشعريرة تغرى بالخلق والابداع . والزوارق الأنيقة تتلقى على سطوحها الوردية أشعة تنسكب كيما تغوص فى المـــاء .
والآن وافى المساء . ركبت السفينة فى عرض البحيرة من لوتسرن إلى استانزشتاد . وها هنا تجلت الفتنة بكل ما لديها من فنون الاغراء : القمر يصاعد رويداً رويداً من وراء الأجبال العالية عن يميننا ، والزرقة الساجية تترنح على سطح البحيرة مع الضوء الراحل مخلية السبيل أمام الدكنة المثيرة ، والزوارق الصغيرة تنزلق فوق الماء برشاقة طائشة ، والمخارف الساهدة تشق الروابى والبرارى فى جلال صامت ولكنه يقظان.
صوّب الطرف عن يمين ترَ متحف فجنر يستشرف إلى الأعالى الفاتنة الألوان عبر البحيرة ، مستلهماً خوارق الوحى من هذه المجالى الرائعة فى نشوة قدسية من صهباء الإبداع الفنى . ثم سربنا قليلا حتى نبلغ «فندق الكستنا» وقد أطل بشرفاته المزركشة بأفتن ألوان الزهر على الشاطئ الوسنان ، كأنه عاشق ساهد يتأمل خدود الحبيب الراقد . وهنا ترى البحيرة قد انطوت على نفسها وكأن شائعة من الخجل الحى قد سرت فى كل أعطافها ، فراحت تتثنى فى دلال غيور محاولةً إخفاء تلك المفاتن الشهوانية المغرية ، فترى الجبال على طول ساحلها المتعرج ترسم صوراً من الظلال الكابية التى تكاد تخفى معالم البحيرة ، والأعضاء الحساسة منها بخاصّة ، كأنها فتاة فوجئت فى عُرْيها طوال النهار فى غفلة من الرقباء فراحت تخفى بغلالتها الرقيقة ما تبدى من مفاتن بدنها اللدن الرهيف .

ثم أطبق الظلام وكنا قد بلغنا استانزشتاد ، وكان على الميممين وجهها أن ينزلوا ، فنزلوا جميعاً وبقيت أنا وحدى على السفينة فى انتظار عودتها إلى لوتسرن بعد أخذ الآفلين راجعين . وكانت القمم العالية قد أضيئت بالأنوار الكاشفة حتى تهتدى بها الطائرات وما إليها ، فكنت تشاهدين كأن عقداً طويلا من الماس قد طوق كل تلك الذرى الشامخة . ولا تسأليني بعد هذا عما عانيت من أحساس قوية متضاربة ، بيد أنها تشارك كلها فى شىء : هو عمق التجربة التى يعانيها المرء وهو فوق "هذه البحيرة الخارقة فى جمالها وجلالها . وأشهد لقد كانت من أجمل ما شاهدت فى حياتى عمقاً فى التأثير الروحى الشامل لكل الكيان الإنسانى — وإن قطع حبل تأملاتى الشاردة فى بعض الأحيان أصوات منكرة كان مصدرها بعض الراكبين ، وعلى الأخص رجل فرنسى ضخم الرأس دحداح القامة ظل يحدث زوجه بصوت أجش عن « المقاومة » وعن هيان بن بيان من أنصار التعاون مع الألمـــان . . . إلى آخر كل هذه الترّهات التافهة التى لا يجد الفرنسى اليوم ما يشغل نفسه به غيرها . وكنت أسائل نفسى : وماذا حمل الرجل إذاً على هذه الرحلة الرائعة ، مادام لم يرد منها إلا هذه الثرثرة الجوفاء التى كان فى وسعه أن يزجيها فى مكان آخر مقفل ممل؟ لهذا قلت لنفسى : لا قيمة لأى منظر بالغة ما بلغت روعته إلا إذا كان فى الروح استعداد لتلقيه . فما أكثر الذين يرحلون ويشاهدون ! لكن ما أقل الذين يفهمون ويتأثرون ! ولا عبرة فى هذا كله بطول الإقامة أو قصرها ، فرب ساعة لفنان مرهف الإحساس أغنى ألف مرة من مقام عشرات السنين

عند من لايتأثرون . ومن هنا رأينا كيف كانت إقامة قصيرة جداً لجيته فى إيطاليا كافية لإخراج « الرحلة إلى إيطاليا » ، هذا السفر الرائع الذى لايكاد يَعْدِلُه أثر من نوعه — بينما إقامة دهر لاتكفى عند غيره كيما يكتب صفحة واحدة من أمثال صفحات ذلك الكتاب . فالقيمة هنا — وفى كل مكان — بالعمق فى التجربة لا بالامتداد .

ونسيت ، أو بالأحرى تعمدت ألا أتحدث عن حجتى فى عصر ذلك اليوم إلى متحف فجنر فى تربشن — ذلك أنى أود التحدث عنها فى شىء من التفصيل :

ما غادرت محطة لوتسرن إلا وكان هدفى الأول هو الحج إلى بيته الصيفى الريفى الأنيق فى تربشن حيث قضى فترة من أنصع فترات حياته الحافلة بين سنة ١٨٦٦ وسنة ١٨٧٢ وهو فى الثالثة والخمسين إلى التاسعة والخمسين . فهنا أبدع روائع من تآليفه الموسيقية : « ميسترزنجر » و « زيجفريد » و « مغيب الآلهة » . بيد أنى كنت متهيباً من هذه الزيارة لأنها ستثير فى النفس ذكريات جليلة لماض عريق عتيق. كيف لا ، وفى هذا المكان الخالد أمضى أستاذى الأكبر، نيتشه ، أجمل أيام عمره الملىء ، واستطاع بوحى من أستاذه فجنر أن ينمى قواه ويستكشف ذاته ، وبالجملة أن « يموت ويصير » ، على حد تعبير جيته : « فيموت » فيه تأثير شوبنهور و « يصير » هو إلى رسالته الجديدة ! كيف لا ، وهنا تجسد « فوتان Wotan » فى صورة فجنر ، وهبطت روح « زيجفريد » ، بطل الأبطال، تحيط بها هالة الأسطورة فى موكب من الفلكيريات Walkyrien ، وتحت شفاعة أبينا نهر الرين ؟

وأى مكان أخلق باثارة هذه الأحساس العالية وبعث هذا الجو الأسطورى والضباب خير من هذه الدار الرشيقة فوق رابية تربشن المشرفة على بحيرة لوتسرن !

خلفت ميدان المحطة بنافورته السامقة وهى ترف ناصعة فى أمواجها البلورية بين انعكاسات لولبية تدور بينها وبين ضوء الشمس فى ساعة الأصيل ، واتخذت سبيلى -متهيباً- فى طريق ابتدأ ثقيلا كالحاً - إذ على طوله فى هذا القسم الأول تمتد مصانع الأخشاب بروائحها المقبضة وألوانها المتحجرة . لكن ما لبث الطريق أن اتخذ سمت جلاله منذ أن ابتدأ صعود الرابية فى شارع تربشن الطويل : فأشجار القسطل والزيزفون تجلل نواحيه ، ومساقط ظلال الأجبال تتخلل الطريق فى إيحاء مثير ، وجبل البيلاتوس يركع جليلا فى حضرة السماء . ولا تكاد تصعد قليلا حتى ينفرج الطريق إلى ممرين ، أحدهما ، وهو الذى على يسارك وأنت قادم ، قد أقيمت فى مدخله صُوَّة كتب على لافتتها : إلى متحف فجنر .

الطريق لزب ولكنه فتان : فهو مخرف بديع اصطفت على طوله أشجار الحور الباسقة ، وامتدت على جوانبه المروج الرائعة الخضرة ، تتخللها وفرة من أشجار التفاح والكمثرى وقد أبهظتها الثمار الشهية ، وهى ترف فى ألوان تجمع بين الحمرة الباهتة والخضرة الفجة - ثم يهبط ويستوى قاعداً ، ويرتفع من بعدُ قليلا حتى يبلغ مشرفاً من الأرض لايبعد كثيراً عن شاطىء البحيرة ويشرف على كل هذا المنظر الدائرى ، ولكنه يجثو تحت أقدام جبل بيلاتوس.

هنا أقيمت دار من طابقين فوقهما طابق صغير ، لونها بين الرمادى والفستقى ، ونوافذها مطلية بالأخضر الفاتح ، ومن حولها ما يشبه الغابة . وبين هذه وبين الدار فناء فسيح على جوانبه صفت الأزاهير المتعددة الشيات والألوان . والكل يرقد ساجداً أمام جبل بيلاتوس المجلل بالسحاب .

قرعت ناقوس الدار ، فأطلت من الشرفة العالية امرأة عجوز سريعة الحركة يصحبها كلب ضارظل ينبح بعنف كأنما أهاجه أن يأتى غريب ليطأ بأقدامه الثقيلة هذا الحرم الأقدس — إلى أن طمأنته العجوز على أن هذا الزائر من المريدين المخلصين. ولقد سألت العجوز عن السر فى نباح الكلب ، والمفروض أن هذه الدار « متحف » — فهكذا اسمها : « متحف فجنر » ، أى أنها مكان تؤمه الوفود الزاخرة طيلة النهار . فأجابت بلهجة ملؤها التأثر :

— آه ! ما أقل الذين يزورون هذا « المتحف » ! ومنذ عهد طويل والكلب لم يألف وجود زائرين ، لهذا شاهدته ينبح بعنف لأن طارقاً من غير أهل الدار قد أتاها .

فدهشت من جوابها هذا ، أنا الذى قدرت أن يكون هذا المكان أحفل بالحجيج من أى مكان . فراحت تسرى عن دهشتى قائلة :

— أوه ! لقد مضى ذلك العهد الذى كان فيه الناس يقدرون معابد الروح ؛ إن كابوساً ثقيلا من التفاهة الكبرى قد أناخ بكلكله على بنى الإنسان ، فجعلهم يتنكرون لكل قيمة نبيلة .

فأجبت : قد يكون هذا مفهوماً فى داخل المدن العالمية الكبرى ، حيث الجموع قد فرضت معاييرها وقيمها الوضيعة على كل شىء ، وبخاصة بعد أن ظفرت اليوم بالسلطان السياسى الشامل فى أغلب البلدان . أما فى لوتسرن ، التى لاشىء فيها يمكن أن ينتسب إلى روح الجموع الوضيعة ، بل كل ما فيها يدعو إلى السمو بالروح إلى أعلى آفاق النبل والجمال والقداسة ، فهذا هو العجب الذى يستنفد كل عجب : أن تمتد عدواها إلى هذه البقعة الطاهرة .

— آه من تلك الروح الانحلالية التى ترجع إلى عهد ما قبل هذه الحرب العالمية الثانية ! فانها سارت بخطوات سريعة جداً إبان هذه الحرب وبعدها ، بتأثير نفوذ الروح الآلية فى أوربا المتداعية . ألا رحم الله أوربا العتيقة ! فلقد كانت والله معجزة رائعة ، هى المعجزة الثانية بعد المعجزة اليونانية . إنها اليوم تحتضر . لكن كفى ! كفى من هذه الخواطر السود ، إذ يعزينى أن أرى مثلك فى الناس ، حتى لانيأس نهائياً من مصير الروح ، ولا نضيع هذه الأوقات الروحية بالحديث عن ترهات أولئك وأباطيلهم .

فتعال أقتدك إلى معبد عظيم من معابد تلك الروح — هكذا قالت ، ثم مسحت عبرة تحدرت على خدها المتجعد — وسارت بى خلال الدار .

الدار غير واسعة الحجرات ولا فسيحة الطرقات . وكل ما فى الأمر طابق سفلى فيه ثلاث غرف بين الأخيرتين منها ممر متسع ، وعلى الجدران فى كل غرفة علقت آثار من فجنر وما خلفه ومما أنشأه المؤلفون

حوله : صور لأبطال رواياته الغنائية ، وكتب عنه وعن بعض الأوبرات ، وتماثيل نصفية أو صور لأصدقائه وخليلاته ، ثم آثاره هو الخاصة من تآليف موسيقية وأدبية . وفوق هذا الطابق طابق ثان خصص قسم منه ، هو الشمالى ، لمجموعة الآلات الموسيقية المتعددة الأنواع من قديم موغل فى القدم ، وحديث كل الحداثة .

نقلت طرفى المتعجل بين الآثار الخاصة ، لأنى كنت فى لهفة إلى آثار شيخى الأكبر ، نيتشه ، فلما أن وصلت إليها بقيت ساعة كاملة أقلب طرفى اللهيف بين هذه الرسائل القليلة الباقية التى تبادلها وشيخه فجنر ، أو تلك الرسائل الأنيقة الحارة التى تبودلت بينه وبين كوزما ، زوج فجنر ، فرحت أتفرسها بكل انتباه وحشد للخاطر كيما أنفذ منها إلى ما قيل من قيام صلات غرامية بين الفتى الواله وبين زوج أستاذه المتهاون . ولا أستطيع بعدُ القولَ بأنى توصلت إلى شىء بارز فيما يتعلق بتلك الصلات ، فما كان فى وسعى إبان هذه الزيارة الخاطفة أن أفرغ لمثل هذه الدراسة ، خاصة وأنى كنت فى حالة إعجاب ساذج أكثر منى فى حال نظرة ناقدة .

وهذا القسم المتصل بنيتشه لايتجاوز بضع رسائل مخطوطة ، وطبعات أولى وحديثة من مؤلفات نيتشه الخاصة بفجنر — ومنها ما أرسله نيتشه إلى فجنر باهدائه ، ثم صورتين لنيتشه إحداهما فى مطلع الشباب والأخرى وهو فى العقد الخامس .

والشىء الذى أثر فى نفسى بالغ التأثير هو أنى وجدت نفسى ، لأول مرة ، فى حضرة شىء حقيق أصلى لنيتشه . فرحت أستعيد

بخيالى يده الأنيقة المرهفة العصبية وهى تخط الرسائل ، وأستحضر بذهنى جسمه النحيل وعيونه النافذة وهى تطل من هذه النافذة الماثلة أمامى على بحيرة لوتسرن الفاتنة ، ثم نظراته الوامقة ذات المعانى إلى كوزما . فتمثل لى نيتشه وقد بعث حياً وملأ بشبحه كل المكان السحرى الذى استحال إليه متحف فجنر فى تلك اللحظة .

لكن لندع نيتشه الآن — ولننقل عيوناً باسمة بين الرسائل المتبادلة بين فجنر وحبيبته متيلده فيزندونك ، المعجبة المعشوقة العاشقة ذات العينين البراقتين ، والجيد السامق الوضاء ، والأكف الطويلة الرقيقة الملتهبة . وها هى ذى صورتها بالباستل مع صغيرها جويدو فى جلسة حنون وقد ارتدت ثوباً فضفاضاً من الحرير الأخضر القاتم يتلوه أزرق رمادى . أو أنظر إلى ذلك التمثال المرمرى الناصع الذى صنعه كيزر لهذه العاشقة ، وقد تجلى فيه الانسجام اليونانى والبساطة وصفاء الخطوط وإشراع الجيد الرقيق فى جلال وجمال !

وفى مواجهتها الزوج الجريح الوجدان ، كوزما ، وعلى وجهها سحابة من الأحزان الصافية ، وفى عينيها استسلام رهيب — أو تراه عدم اكتراث لأن قلبها عامر بوجدان آخر ؟

أما هو ففى شغل عن هاتين ، تمتد نظراته النافذة إلى آفاق عالية يحلق فوقها « فوتان » وهو يطبع قبلة « الرحيل » على جبين حليلته ، أو تغوص إلى أعماق الرين حيث « فتيات الرين » تهوم فى مملكة الماء ، أو تتابع « زيجفريد » فى أتاويه الغاب، و « وكريمهلد» وهى فى صولة الانتقـــام .

وعلى هذا النحو أمضيت فى المتحف ساعتين أو يزيد ، مستعيداً بخيالى هذا العالم الأسطورى الرائع الذى أبدعه فجنر فى لحظة عليا من لحظات التجلى الأكبر الذى قلما يمنح بنى الإنسان .

وعدت بعدها مزوداً بدنيا كاملة من التجارب الروحية والمعانى العلوية ، حتى إنى لم أشعر بوقع قدمى على الأرض ، بل كنت أخيل إلى نفسى أننى أسبح فوق سطح المـــاء الأزرق الفاتن يجرنى بلشون ناصع البياض ، كأننى « لوهنجرن » ــ ورحت أكرر لنفسى طوال الطريق ما قاله نيتشه :

« لن أستطيع بأى ثمن مهما غلا أن أغفل من حياتى أيام تربشن ، تلك الأيام المليئة بالمتعة والصفاء والمفاجآت السامية ــ واللحظات العميقة العالية » .

— ٢٦ —

إلى سلوى

مزامير الطبيعة فى سويسرا

لوزانه — أوشى

أرانى فى حاجة ملحة إلى الوحدة ، الوحدة الكاملة الرهيبة . فأدنى نأمة تكفى لإشاعة الاضطراب فى كل كيانى . لقد كنت من قبل أزوّر لنفسى الوحدة دون أن أشعر حقاً بعمقها ونعيمى فيها . أهى الطبيعة الرائعة من حولى ترتفع بى فوق كل شأن إنسانى ؟

الآن أفهم لماذا يعتزل الدنيا من شاركوا فى تسابيح الروح .

بحيرة ليمان Léman عند ساحل أوشى تنشر عبيرها الأزرق فوق سفوح الجبال الحالمة فى شوق المغيب . وبين يدىّ « آلام الفتى فرتر » أفتحها لأقرأ فيها الرسالة الثانية ، لأن فى وصفها للسجوّ الجميل خير تعبير عن حالى الآن . وما من عجب بعد أن أومن ، فى أمثال هذه الآونة الساجية ، بوحدة الوجود الشاملة التى تفنى فيها الأعيان لتتحد بالكل المنتظم للزمان والمكان . بيد أن وحدة الوجود لدىّ فوق كل تعيين أو حد ، وما هى إلا استرخاء الوجد الحالم فى الوجود الغارق فى العدم الأصيل .

وهأنذا أسترسل فى أحلامى وذكريات قراآتى ، فتنبعث من بينها

بقوةٍ تلك الصفحةُ الرائعة الخالدة التى كتبها بودلير بعنوان « اعتراف الفنان » فأحس بوخز هذه السن المدببة إلى أقصى حد ، سن اللانهاية ، وأشعر بالطبيعة وهى تفكر ، تفكر دون حجاج ولا قياس . أجل ! إن للطبيعة منطقها العالى ، العالى فوق كل منطق متعال .

ألا أيها الشراع المارق فى زرقة الأحلام ! فى نصاعتك ما يرفع الرأس الحالم فوق سطح التسبيح . فأنت إذن مركب النجاة للروح كما للبدن على السواء .

وأنت أيتها الجبال المستضحية لشمس الأصيل ! فى أمواج ظلالك ألحانٌ تنغم الأفق المترامى على نشيد النبع الدافق من عين الوجود ، وفى الهمس المسجوم من خمائلك المزهوة بسندياناتها وحورها وصنوبرها وحى يفضى إلى الاشراق الأصيل . وهذه النقاط من الضوء الساخر على ثنيات صخورك ، ما بالها ترمقنى بنظراتها الحداد ؟ أواه ! أواه ! النجاء النجاء من هذا الحلم الغريق ، فلا قبل لى بالسباحة فيه ؛ ولست أقوى أيضاً على الغرق فى هذا البحر ، « بحر اللانهاية » ، ومعذرة إليك ياليوبردى Leopardi . وشكراً لك أيتها الموسيقى الزنجية الرخيصة : بك يستعين المنحلون فى هذا العصر لواذاً من سحر الطبيعة الجبار ، خصوصاً فى مثل هذا المكان الفاتن الأخاذ . وشكراً لكم كذلك أيها الأطفال الصاخبون ، ولك أنت أيها الأمريكى المنصرف عن كل هذا الجمال — غير المفيد ولا المربح — إلى العبث بكلب يجيد السباحة فى المـاء والتقاط ما يلقى فيه . ألا شكراً لكم جميعاً فقد نجيتمونى من الغرق فى هذه البحيرة السحرية ، بحيرة التهاويل والأحلام والتجليات العلوية .

وهأنذا أعود إلى مدينة لوزان فلا يكاد يأخذ إعجابى منها شيء . فهى مدينة عصرية بكل ما لهذا اللفظ من معنى غير كريم ، وإن كان غير أثيم . والشيء الذى يسترعى الخاطر منها حقاً هو مرتفعاتها ومنخفضاتها المتعانقة المتعددة ، وطرقاتها الملتوية الصاعدة الهابطة فى غير اكتراث ولا تحذير . بيد أن لها فى كاتدرائيتها الرائعة ما يعوض الكثير . فعلى الرغم من حداثة عمرها نسبياً – فهى من القرن الثالث عشر – فانها من الروعة والجلالة بحيث تضارع كاتدرائية شارتر : سموق وتكتل فى البناء مع أناقة فى تركيب الأجزاء ، تشرف على رابية كأنها صخرة عاتية ، وقد خلت من التنميق الخارجى والتخريمات التطريزية (الدنتلة) التى نشاهدها فى كاتدرائية مثل كاتدرائية ميلانو : وهى تشترك وإياها فى طرازها القوطى . بيد أن النوافذ الزجاجية ما تلبث أن تخفف من تأثير هذا التكتل المتثاقل ، فتشيع فيها خفة وتغمرها فى فيض من النور المتعدد الألوان . والحديث عن هذه الكاتدرائية الجليلة يطول ، فلنؤجله إلى فرصة أخرى .

بازل

أنا جالس على شاطئ الرين أمتد ببصرى اللهيف عبر هـذه الأجبال التى يقوم من ورائها بلد الحبيب . فتنثال علىّ الخواطر السود ، ومن حواليها تنهمر الدموع .

ولقد تجاوب مع هذه الخواطر السود منذ الصباح جو قاتم ملبد بالغيوم ذو مطر مدرار استمر طوال الطريق من برن حتى بازل وشطراً من إقامتى بهذا البلد الأخير . وما كان هذا غير إرهاص بما سينتابنى

من هموم وأحزان تثيرها فى قلبي المكلوم ذكريات ماض عزيز أمضيته بين ربوع البلد القائم عبر هذه المدينة . أواه ! لقد أنكأ الرين جراحاً كانت أقاحت وأصدت ثم مالبثت أن اعتصمت على مضض بالصبر الجميل .

لكن دعنا الآن من هذه الخواطر السود، ولنول ِّ عيوننا قِبَلَ بازل .

بازل بلد خليق بالاعجاب : فالرين الوقور ينساب خلالها فى روعة وجلال يتناسبان مع ما عاناه من آلام وما مر به من محن وخطوب . وعلى ضفافه البهيجة تمتد الأبنية المتراصة عن يمين وشمال فى استواء لايبدل من رتوبه إلا بروج كالسهام تجلل بعضها بالأخضر الزمرذى ، وهو اللون الأكثر شيوعاً فى بيوت هذه المدينة وجسورها . وهى بلد يجمع بين حمى النشاط الصناعى الحديث — تراها متمثلة فى المداخن الحمراء السامقة التى اكتظ بها جو المدينة ، حتى يخيل إليك لو ارتفعت بنظرك قليلا أنك ها هنا فوق رابية الأكروبول أو فى السوق الرومانية فى قلب روما : فمداخنها تشبه تلك الأعمدة القائمة فى السوق الرومانية وفوق الأكروبول — ولكن شتان ما بين مدلول كليهما ! — كما يجمع بينه وبين الطابع الفنى العتيق .

وفيما خلا الكاتدرائية ذات البشرة الوردية والمظهر البسام والأروقة الحجرية المنطوية على نفسها فى حلم الصمت المقدس ، لا نجد حظ الفن فيها موفوراً كما كان ينتظر منها وهى المدينة الحريصة على القديم ، وبخاصة ما اتصل منه بالعصر الوسيط . لقد كانت مركز التلاقى لأربع حضارات عالية ، وكانت مسرحاً لكثير من الأحداث الدينية

فى عصر الإصلاح بخاصة – فكان خليقاً بها إذاً أن تكون أكثر عمارة بآثار الفن . وما فيها اليوم منها ينم عن ذوق أولى ساذج وبخاصة فى « دار البلدية » وفى التماثيل المنصوبة فى الميادين : فقد طغى عليها الأحمر الرخيص المنمق بنقوش ذهبية هى أبعد ما تكون عن الفن الصناع .

وها نحن أولاء مرة أخرى فى حضرة مقامات نيتشه وصديقه بركهرت ، عقل هذه المدينة الأكبر . بيد أن آثاره هنا لايستلفت النظر منها شىء .

برج

هل تعرفين الجمال الوحشى ؟

إنه فى الطبيعة كما فى الإنسان .

فان كنت لاتعرفينه فى الطبيعة ،فتعالَىْ معى إلى هذا الإقليم الرائع المدعو باسم فاليس Wallis فى الجنوب الغربى من سويسرة .

أخدود فى ذيل أخدود ، من فوقه سراط ممدود ، وعلى جوانبه غاب منضود ، وفى قيعانه ماء معقود ، يجرى كالعنقود ، ويضطرب بين الصخر الصيخود ، مجراه محدود وسيره فى مجهود – وبين الحين والحين قصر عتيق مشهود ، كأنه لواء معقود على جبل مشدود .

الشمس تتوارى خلف الأجبال ، ثم تراها فجأة على القاع تنهال ، فيزحف النبع من خلف الآل ، وينهل الدمع من حِضن الظلال ، وهى تشيع مواكب النور فى حنايا الزان .

والقوم الذين يقطنونه تنعكس فى وجوههم هذه التهاويل : خشونة ماحلة ، على بشرة قاحلة ، وجباه خددتها السنون الراحلة ، وأجسام

ناحلة . أما النسوة ففى صفرة شعورهن جفاف الأوهام ، وعلى وجوههن تساؤل واستسلام ، وفى نمش بشرتهن تمويه الأحلام .

كل هذا يعطى شعوراً بالجلال ممزوجاً برعدة الأهوال . ويزداد هذا الشعور عمقاً وتغوراً حينما تشاهد أهل الإقليم بملابسهم الوطنية وقد سادها الأخضر الزيتى الغامق فأضفى عليها رهبة وروعة ، وإن وشيت حواشيها بزخارف بديعة فيها الأحمر والأصفر يتبديان فى أزهار صغيرة مطرزة حول الرقبة وفى الحواشى الدنيا من هذه الأثواب .

ثم إذا تسمعت إلى الضجيج والعجيج فى المـاء الدافق ، وفى الريح بين الحور الباسق ، وفى عويل القطار بين الطرائق ، وفى هذا الصخر المارق ، ووحشة المفارق ، وفى الجلاجل المعلقة فى رقاب قطيع البقر وهو يرعى فى الوادى الغارق.

من أين يأتى هذا الينبوع ؟ لكأنه يسكن نافقاء اليربوع . وبأية قوة هو مدفوع ؟ صفو مطبوع ، ووجه مرفوع ، فوق صخر مقطوع ، ينصب فى ماء مقروع .

هنا طعم الهاوية ، من صخرة عاتية ، عيونها باكية، ورمالها دامية، من تهديدها تراها دانية ، وفى روعتها تبصرها سامية ، وإن تبدت كأنها على عروشها خاوية . لو رآها داود لصرخ من الأعماق ، أو موسى لخر صعقاً من رهبة الخـلاق ، أو محمد لامتطى منها ظهر البراق .

مرة أخرى : هنا طعم الهاوية يرشف من تسنيم العالية .

— ٢٧ —

إلى سلوى

في علين وادى الانجادين

سان مورتس

أطياف من النسيم الرطيب تنحدر من قمم الجبال المحيطة بالوادى تعلوها شذرات من الثلج الرقيق . والبحيرة الصغيرة تركع تحت أقدام المدينة الأنيقة التى تطل عليها من شرفات فنادقها الفخمة المتراصة ، تكاد تستغرق المدينة كلها — وهل فى « سان مورتس » غير الفنادق وما ينتسب إلى الفنادق ؟

طلبت المستحيل فاستحال علىّ ، أو بالأحرى حال بين تحقيقه وبينى جمال هذه المدينة البضة الملمس — وأرجو ألا تعدّى هذا مجازاً فلكل مدينة ملمس خاص ، وسان مورتس ذات ملمس بض كأنها ساق غيداء ناصعة البشرة مشرقة الوجنتين . ذلك أنى أردت بلوغ سان مورتس من « برن » ثم العود إلى هذه الأخيرة فى نفس اليوم مع أن المسافة يستغرقها القطار فى قرابة ثمانى ساعات . لكن السحر الرطيب الشائع فى سان مورتس وما حولها هو الذى احتجزنى فأبقانى بها ليلة كاملة وسحابة نهار .

وهـأنذا أرانى مضطراً إلى تكرار صفة « الرطيب » ثلاث مرات ،

ولن أمل من تكرارها فى حديثى عن هذه المدينة . وأقصد بالرطب هنا « الرطب الوضىء » ، لا ذلك « الرطب المعتم » الذى يستروحه المرء فى بيوتنا الشرقية العتيقة .

الرطب الوضىء هو ذلك الذى تحسين به فى إشراقة الفجر على ضفاف النيل فى قرانا المصرية فى شمال الدلتا، وهو ذلك الذى نتلمسه على خد الطفلة الممتلئة وهى تبسم للدنيا فى مطلع الحياة ، وهو ذلك الذى يدركه العاشق وهو يربت على الحبيبة وهما جالسان على العشب فى سكون الغاب الجبلى .

وهو ذلك الذى يدركه المرء سماعاً وهو يصغى إلى النغمات البلورية تنبعث من ألحان كألحان « الربسودية الهنغارية » الثانية لليست ، أو مقاطع « السمفونية السادسة » لبيتهوفن ، وهو ذلك الذى تستروحه فى الشذى السمين المنتشر عن إكليل من النرجس الغض والندى يعلوه .

هذا الرطب الوضىء بكل ألوانه تشعرين به ملء حواسك فى كل نسمة تفوح فى أنحاء سان مورتس . تعالى معى الآن إلى الطريق الضيق الذى يعانق الربوة القائمة عبر البحيرة على الشاطىء المواجه للمدينة . الساعة ساعة أصيل بعد نهار فاتن صحو ، اللهم إلا من صفحات صغيرة من السحاب الأبيض الوديع . والطريق يستدير حول الرابية فى عناق ملتو ولكنه حار مشبوب ، وعلى طوله تناثرت على مسافات غير قصيرة مقاعد من الخشب الجبلى المطلى بالأحمر الفاتح . وعن يمين وشمال — علواً أو سفلا — توزعت السفوحَ أشجارٌ معتدلة القوام من الشوح والصنوبر الهرم ، ولولا سموق قامته لبدت عليه الشيخوخة

بكل جلاء ، إما من أثر الزمان أو من أثر البرد ، أو بالأحرى من كليهما معاً .

أنا وحدى مع الغابة وحدها . وكل ما حوالى يدعو إلى السكون الرهيب ، لولا هذه الابتسامات الوضاءة التى تنثال علينا — الغابة وأنا — من القمم الغربية ، فتشيع فى جونا بهجة ساجية ، ولولا هذه الأزاهير الصغيرة المتعـددة الألوان ، تنطبع عليهـا قبلات الشمس راحلة أو بسبيل الرحيل .

سلزماريا

لم يكن هدفى الأول من ارتياد « وادى الانجادين » أن أزورسان مورتس ، بل كان الحج إلى مقامات نيتشه فى هـذا الاقليم الذى فتن ذلك الفيلسوف الشارد حتى جعله يمضى أحفل فترة من حياته الروحية متنقلا فى ربوعه وبين مغانيه ، وعلى رأسها كلها قرية سلزماريا . لهذا لم أكد أنزل سان مورتس حتى كانت عيونى تتطلع من بعيد إلى سورلى ، وسلزماريا ، وشبه جزيرة شاستيه .

دخلت سان مورتس فى ذيول النهار بعد رحلة مضنية طويلة ، فقطار الانجادين قليل أسباب الراحة ، ناهيك بالترف ، على خلاف الكثير من قطارات سويسرة ، مثله فى هذا مثل أغلب القطارات غير الرئيسية فى المناطق الكبيرة الارتفاع ، فلم يكن فى وسعى أن أمضى منها فى التو إلى سلزماريا . بل أمضيت ثمت ليلة هادئة لا شىء فيها يستحق التسجيل ، اللهم إلا أنى أمضيت بعضـاً من الوقت فى مقهى عتيق بالقرب من الفنـدق الذى نزلت به ، فنـدق

« روزاتش » . وفى هذا المقهى حاول أصحابه أن يقدموا للناس صورة من صور المقاهى القديمة فى العصر الوسيط وبداية العصر الحديث : كهف ضيق ذو سقف منخفض كسيت جدرانه بالخشب الوردى العتيق ، وتدثر ندله من الفتيات بملابس وطنية ذات طراز قديم بديعة الألوان صارخة الأضواء ، وفيه موسيقى ناعمة يصدح بها عازف ممتاز على الكمان . فهو إذاً من نوع تلك المقاهى الكهوف التى نشاهد نظائرها فى باريس مثلا ، ككهف « أوبلييت » بجوار كنيسة سان سفران وقد حدثتك عنه منذ حين .

لبيك ، لبيك ، أيها الصباح المشرق ! فأنت الذى ستقودنى إلى مغنى نيتشه فى سلزماريا . فما وافى الصباح الباكر ببسماته الوردية حتى هرعت بالسيارة الحافلة إلى سلزماريا .

تركنا بحيرة سان مورتس ومضينا منها إلى بحيرة سلز ، فتراءت أمامى صور متوالية من الجبال العاتية المتوجة بعمائم الثلوج ، ومن الأمواه الزرقاء الصافية فى البحيرة الراقدة ، ومن الوعورة المتحدية فى انقباض المجهول .

وما نزلت من الحافلة حتى أسرعت مهرولا فى الطريق الطويل الذى يخترق قرية سلزماريا طولا ، وبعد مائة متر تقريباً من موقف الحافلات وجدت نفسى قبالة منزل متوحد بين المنازل ، يبعد عشرين متراً عن ذلك الطريق . وسرعان ماتعرفته : إنه البيت الذى أقام به نيتشه فى سلزماريا . فاقتربت منه ، وصدق تعرفى إياه - بعد أن عرفته من مشاهدة صوره من قبل - ، فقد وجدت فوق

بابه على الواجهة لوحة كتب عليها : « ها هنـــا فكر نيتشه وألّف من سنة ١٨٨١ إلى سنة ١٨٨٨ » .

البيت من طابقين ، صغير الحجرات ، رمادى اللون ، ضيق النوافذ ، يكاد يتكئ على قاعدة الجبل المشرف من ورائه . قرعت الباب فأطلت من النافذة العليا فتاة فى زى الخدم ، سألتها : هل فى الوسع زيارة البيت ؟ فأجابتنى إلى سؤالى ، وسرعان ما صعدت بى إلى الحجرة التى كان يسكن فيها نيتشه ، وهى أول حجرة عن يسارك فى الطابق الأعلى . وكان مستأجرها — لحسن الحظ — غائباً فى تلك اللحظة ، فاستطعت دخولها ، فوجدت أمامى غرفة ضيقة ضيقاً طالما شكا منه نيتشه فى رسائله وبها نافذة واحدة تطل على الطريق الجبلى ، ويمكن المرء أن يستشرف منها إلى منظر — على ضيق أفقه — لا يخلو من الروعة وعمق التأثير .

ولا تزال الغرفة على حالها كعهد نيتشه بها ، اللهم إلا الأثاث : فلم يبق منه بعدُ غير خزانة ملابس مقطوعة فى الجدار المغطى بالخشب ، إن جاز لنا أن نسمى هذا أثاثاً ، لذا بقيت أنظر فى الغرفة بكل إمعان ، عساى أن أعثر على أثر — مهما يكن ضئيلا — لفيلسوفنا المتوحد فى هذه الغرفة . ورحت ألقى الأسئلة تلو الأسئلة على الخادم علها أن تدلنى على شىء من ضالتى . لكن فى غير جدوى ! هنالك سألتها عما إذا كان قد بقى أحد ممن كان بالمنزل إبان مقامه به ، فحدثتنى عن خالتها العجوز التى عرفت نيتشه ، وكانت صغيرة فى العاشرة من عمرها . وودت لو رأيت هذه العجوز حتى أظفر منها ولو بأثارة

ضئيلة من ذكرياتها عنه . بيد أن الفتاة حدثتني قائلة : إن خالتها لا تكاد تذكر شيئاً خليقاً بالتسجيل ، لأنها كانت في سن صغيرة ، فكل ماتذكره اليوم هو أن نيتشه كان قاسياً جاداً جافاً مع الأطفال ، لايسمح لنفسه بالتبسط إليهم . وهذا سبب آخر في ضآلة ما لديها عنه من ذكريات .

تحسرت على ضياع هذه الآثار. فبينما بقي القسم الأكبر من آثار فجنر في بيت تربشن —على النحو الذى وصفته لك من قبل— لم يبق شيء من آثار نيتشه في هذا البيت . فيد العناية التي امتدت برحمتها الواسعة إلى الأول ، قبضت وغلت عن ذلك المتوحد السافر من الرحمة . أفهذا جزاء وفاق بما صبه من لعنات عليها ؟ إنها إذاً ستكون قد انتقمت لنفسها أبشع انتقام . أم هو الفن : ما أكثر المعجبين بأصحابه ، بينما الفلسفة لا تحيا إلا على صفوة شاردة من العقول العالية الأنفاس ، وقليل ما هم ؟

لكن دعنا من هذا البيت الضيق — فما هو الذى أثر في نيتشه — وتعال الآن إلى مأواه الحقيقي الفسيح في جنة الطبيعة الرائعة في ذلك المكان المسمى « شبه جزيرة شاستيه » .

شبه جزيرة شاستيه لسان من الأرض الجبلية يمتد في بحيرة سلز ، أتى اسمه من قصر عتيق يقوم عند مدخله ، فالكلمة « شاستيه » باللغة الرومانشية معناها « قصر » . ومن فوقه غابة منفرجة الأشجار السامقة من صنوبر وحور ، فضلا عما اكتسته الأرض من عشب عتيق . وخلاله يمتد طريق يدور حوله في التواءات بديعة تمسك بخاصرة شبه الجزيرة في لهفة وحنين .

سيرى بنا إذاً فى هذه السبيل، مستروحين عبير الصنوبر العريق فى هذا الصباح الفاتر الأنداء. الزائرون بين راقد على العشب وجالس على المقاعد المتناثرة على طول الطريق ، ومستضح للشمس فى الجانب الشرقى . والأزاهير الجبلية زاهية الألوان لاذعة الشذى ، تلوح عليها مخايل الهرم من برودة الإقليم .

وما بلغت منتصف السبيل اللزب حتى وجدت نفسى أمام صخرة عاتية رائعة الطلعة ، ما تكاد تقف أمامها حتى يخيل إليك أنها تريد أن تتلو عليك صحفاً مطهرة من الوحى العلوى . وسواء أردت أم ترد ، فأنت مضطر إلى الإجابة عن هذا الاستفهام العميق الصارخ على حوافها المدببة : كدت أجثو أمامها من جلالتها ، وكأنى أمام معبد « دلف » أتهيأ لتلقى الوحى كما تلقاه نيتشه منها من قبل، وقربت منها فرأيت القوم قد نقشوا عليها قصيدة نيتشه المشهورة فى « زرادشت » التى تقول :

« أيها الإنسان انتبه !

ماذا يقول منتصف الليل العميق ؟

. . . .

وإذا كان « زرادشت » كله قد كتب تحت وحى هذه الصخرة العاتية ، فلا شىء فيه أدق فى التعبير عما توحى به الصخرة من هذه القصيدة البالغة العمق ، التى ترن أصداؤها فى كل نغمة تصدر عن هذا المكان الشعرى الفتان .

— ٢٨ —

من سلوى

إكليل على قبر جبران خليل جبران

آثرنا القرية الحبيبة مصطافاً لنا هذا العام ، وقد سئمنا ضجة المصايف الكبرى فى بحمدون وضهور الشوير ، وما فيها من نفاق وتصنع وثرثرة آثمة وتفاخر بالثراء : فراغ فى العقول، وفراغ فى القلوب، وإفراغ لما فى الجيوب — تلك هى المصايف الصاخبة التى تهرول إليها الفتيات المتحذلقات أو العانسات ابتغاء القرين والمأوى الأمين ، فلا يقضين النهار إلا فى المداورات والمناوشات واللفتات الماكرات . أما الفتيان فيتنفجون بالباطل، ويريقون دماء الحياء فى مطاردات ومساومات، أو يزجون الفراغ فى الليالى البيض حول موائد القمار — وأنت تعلم مبلغ انتشار داء القمار فى الأسر كبيرها وصغيرها فى لبنان ، يساعد على هذا عوامل عدة : أولها روح المقامرة والمغامرة التى طبع عليها هذا الشعب ، أليس من سلالة الفينيقيين المغامرين فى البحار المجهولة والأصقاع النائية ؟ ! واللبنانى بطبعه لا يعرف التوسط ، بل ينشد الأطراف : فاما ثراء فاحش ، وإما فقر مدقع ، ولو قدر له أن يشارك فى ميدان الروح مشاركته فى ميدان المادة لكان من أبنائه رجال مثل الحلاج والقديس فرنشسكو الأسيزى ونيتشه: هؤلاء المغامرون العماليق فى ميدان الروح ، ولأتت منه معجزة ثالثة إلى جانب المعجزتين

اليونانيـــة والأوربية . لكن لبنان هو يونان بلا روح ، وهو أوربا بلا عقل ؛ ولك بعد هذا أن تختار النعت المطابق لحقيقة هذا المخلوق العجيب . وهذا هو ما يفسر متناقضاته ومفارقاته : عيناه فى السماء ، وقدماه غائصتان فى الطين ؛ يغنى أقدس الأغانى بأصفى لسان ، بينما يداه الملوثتان منهومتان بانتهاب الأصفر الرنان ؛ وفىٌّ وفى وفائه ناب الغدر ، غدار وعلى غدره طلاوة الوفاء ؛ يعبد القوة إن استعبدته ، ويستعبد القوة إن عبدته ؛ ولاّج فى كل موقف ، خرّاج من كل موقف ؛ يصنع لنفسه أجنحة ذهبية ليحلق بها فى جواء الروح أيام كساده ، وليصهرها دنانير تتسلل فى أسواق المادة أيام رواجه . وبالجملة فهو نسيج من المفارقات ، وهذا هو السر فى حبه الأعمى للمبالغات مغالاة فى مكانته : فالروح المتناقضة تحيا فى المبالغة .

ذلك وطنى ، ولهذا أحببته وعبدته ؛ ولعل هذا سر تعلقك به ، فأنت الولوع بالمتناقضات ، المحب للمفارقات ، لأن فيها ذلك التوتر الحى الذى ترى فيه أنت سر الوجود الحق ، أيها الوجودىُّ المليء بالمفارقات !

***

ذهبنا إذن إلى قريتنا التى فيها ربينا نحن وأجدادنا ؛ وأنت تعرفها ، تعرف قرية « حدث الجبة » التى مررت بها مراراً فى طريقك إلى الأرز الخالد ، ومن شرفاتها أشرفت على وادى القديسين ، وادى قاديشا العامر بالأرواح : الجنية والملائكية على السواء .

وهأنذى أكتب إليك من شفا جرف يريد أن ينهار ، لأنى أحب

طعم الهاوية ، فلا يلذ لى غير المقام على شفرها ؛ عندها أستشعر الإحساس الأعمق بالوجود فى سر أسراره ، إذ أشعر بالخطر الأكبر يهدد كل كيانى .

الصخور الرمادية تبسم فى وجهى ابتسامة نكراء ، والأحجار الوردية تردد فى صدرى أنفاس الإغراء ، والأعشاب الغليظة والطحالب المخملية تهيئ لى مرقداً ناعماً أتأمل فيه السماء ، مستلقية على ظهرى مستسلمة إلى الأحلام : رهيبها وحلوها على السواء ، وأناملى تعبث بالحصى الرقيق عبث الراهب بمسبحته الدكناء ، والعنز — وما أدراك ما « مرقد العنزة » فى قلب كل لبنانى ! وكم سخرت أنت منه ! — يرقد على السفح مستضحياً متأملا فى الذرى الشماء ، وخمائل الصنوبر تتهادى على المنحدرات فى رقص إيقاعى يرتسم فى الظلال الزرقاء ، وأشجار التفاح والكمثرى تنوء بأعبائها من الثمار الشهية الوجناء ، وعرائش الكروم تعض الروابى ذوات الحلول فتنتشى بالصهباء !

وهذا الوادى المقدس المنحدر أمامى يروى لى قصص أجدادى الذين لجأوا إليه فوجدوا فيه المأوى الأمين ، على مر الأحداث المتوالية الرهيبة فى سالف السنين . فكل صخرة فيه تصرخ : قدوس ! قدوس! ونهر قاديشا مقدس قداسة نهر الكنج عند البراهمة . ولولا نضوب الخيال ، وسيطرة الحرف ، وخوف الوثنية لكان هذا النهر المقدس متطهر العباد من الخطايا ، ولأقيمت فيه الأعياد وما يصحبها من مراسم وطقوس ، ولكان خير تغطيس للتعميد فى مياهه الخارقة الصافية . ولكن ، أين نحن اليوم من هذا كله !

أين الخيال الثرى الذى أبدع عشتروت وأدونيس ! أين ملقرث وكهانه حماة صور الصناديد ! أين بَعْل الرحمن الرحيم ، ذوالفيض العميم ! أين بنات جبيل ، اللواتى كن ينتحبن عند الينابيع المقدسة حزناً على الشهيد أدونيس !

ثم تتملقنى بعد هذا ، وتنعتنى « بسليلة عشتروت » !

لو بقيت فى قريتى هذه ، حَدَث الجبة ، منذ ميلادى ، لكان ثم رجاء فى أن أكون سليلة عشتروت وإحدى بواكى أدونيس ، وإن كان عنصرنا لايمت إلى العنصر الفينيقى بأدنى نسب ، لأننا وردنا جميعاً من قلب سوريا ، وردنا مهاجرين لاجئين ، وكل ما يربطنا بفينيقيا هو أننا نسكن دياراً سكنوها ، شأننا شأن سواحل سوريا وشـــواطىء قورينا من ليبيا حتى الجزائر . ودعوانا فى الانتســـاب إلى فينيقيا والفينيقيين دعوى باطلة كل البطلان إن أقمناها على العنصر والدم ؛ أما إن أقمناها على الأرض ، فلست أدرى لماذا نخص أنفسنا بها ، وغيرنا أولى بها إذن منا : فى سواحل سوريا وسواحل أفريقية الشمالية حيث كانت عاصمتهم الكبرى قرطاجنة . إنما هوالجهل الأعمى بأبسط الوقائع التاريخية والحقائق العنصرية هو الذى أعمى طائفة من جهلائنا ومن يستعملونهم ابتغاء الفتنة وابتغاء تحقيق مآربهم الوضيعة. أتذكر كم كنا نسخر من هذه الدعوى ومن أصحابها المساكين !

نعم ! لو بقيت فى قريتى لكان فى الجو والصخر والجبل والينابيع والأرز الخالد ما ينفخ فى روحى من روح عشتروت . لكن نداء المدينة ، هذا التنين الرهيب ذى الأنياب اللانهائية ، ماعتم أن اختطفنى

من حضن أمى ، أعنى من حضن هذا الجبل المقدس وهذا الوادى العامر بأرواح الأبرار ، وألقى بى فى أتون المنازع الرخيصة ، ورمى بى إلى السباع الكاسرة ذات النيوب الوحشية . فيا ويلى مما اقترفت !

نعم ! شاركت فى الثقافة الرفيعة ، وأصبحت أقدر على التأثر بمناظر الطبيعة ، وأكثر وعياً لما فيها من فتنة وجمال وجلال ؛ وعرفت الشعر الأوربى العالى ، وبلوت العواطف الحادة التى يعنى بها أهل الأدب العالمى ، وعدتُ أقدر على تحليل مشاعرى بالعقل المرهف ، واطلعت على الحيوات الانسانية الخارقة، وعانيت فى داخلى تجاربها الروحية بالفكر والخيال . ولكن هذا كله لم يُفِدْ فى رد روحى إلى الماضى العريق، وَزَيَّفْتُ نفسى بطلاء من الثقافة البراقة فباعدت بين نفسى وبين الأرض والطبيعة . وهذا هو السر فى هذه الأوبة إلى قريتى :

أريد أن أمرح مع الأَيِّلِ فى البرية ، وأن أسابق المنابع والسيول فى منحدراتها ، وأن أملأ رئتىّ بعطور النبات النضير الغض ، وأن أنفخ فى الشبابة التى طالما هدهدتنى نغماتها الناعمة الحزينة فى طفولتى الشاردة بين قطعان الماعز على خد الجبل وتحت الصنوبر ؛

أريد أن أستلهم معانى القداسة فى الوادى المقدس ، قاديشا ، لأسمع فيه الأصوات النبوية ، بدلا من تلك الأصوات الغليظة الغبية ، أصوات الكاتدرائيات la voix stupide des cathédrales ، كما قال لاما رتين نافراً من نداء الكاتدرائية ، مأخوذاً بالصوت الصافى المتصاعد من مغانى لبنان والأرض المقدسة إبان رحلته فى الشرق ؛

أريد أن أصغى إلى نداء الأرز وهو يهتف : اعملوا للخلود ! وأن أقيم مذبحاً تحت الأرزة الكبرى التى نقش عليها اسم لامارتين ، أحتفل فيه كل صباح بالقدّاس ، قدّاس الذكرى والشكر لمن جمع بين قلبينا ، وأن أحرق البخور وأنثر العطور وأنذر النذور حتى تعود أو يجتمع شملنا معاً من جديد .

وأنت يا حبيبى !

ماذا صنعت بغصن الأرز الذى أقسمنا عليه يمين الوفاء فى ذلك اليوم المشهود تحت أرزة لامرتين ؟ لقد زعمت لى أنك حملته معك إلى باريس ، ولكنى أعلمك كارهاً لهذه التذكرات المادية ، موثراً الابتسامة الناعمة والنظرة الناعسة والالتفاتة الجميلةعلى كل هذه الأدوات والذخائر التى اعتاد العاشقون تبادلها . وهل أنسى ساعة أن رفضت قبول خصلة الشعر منى ، لمـــا أن هممتُ بجزها ذكرى لهذا الإعجاب المفرط الذى طالما أبديته أنت بغدائرى الذهبية المفرطة الطول !

أما أنا فقد حملته معى إلى قريتى ، بعد أن صنعت منه صليباً سأحمله على نحرى حين أصعد إلى الأرز الذى كان خير شاهد على يمين الوفاء فى حبنا .

***

هكذا أمضى سحابة نهارى فى أحلامى وأوهامى ، فى ذكرياتى وزفراتى ، بين الكروم الرفافة وأحراش الصنوبر وتحت ظلال التوت والخروب .

وبالأمس ارتحلت إلى بشرّى لزيارة متحف جبُران وقبره ، للمرة

العشرين أو الثلاثين لست أدرى . ولكن الزيارة التى لن تمحى ذكراها من نفسى هى تلك التى أدينا فريضتها معاً فى يوم رائع الشمس من أيام شباط (فبراير) . فى ذلك اليوم اكتشفت جوهر جبران خليل جبران ، واكتشفت خصوصاً جوهرك أنت من خلال حديثك عن جبران وما انطوى عليه هذا الحديث من إعجاب وما رنّ فيه من رنات مؤثرة تنم عن الحب العميق لهذه الروح الخالدة الشاردة التى بزغت فى لبنان وسطعت ضياءً حاراً فى أنحاء المعمورة .

اجتمعنا على حب جبران ، واختلفنا على بواعث هذا الحب ، فكان لك جبرانك ولى جبرانى :

جبرانك روح شاردة متمردة حرة ، تحطم التقاليد وتفضح النفاق المتدثر برداء القداسة ؛

أما جبرانى فروح ملائكية يغزوها الحنان والرحمة ، وتعمر قلبها المحبة والتقوى والإيمان .

جبرانك سيل يندفع إلى أحضان الوادى ليحمل الخصب فيما يجرف من تراب الصخور وينبت أشجاراً باسقة « حبلى بثمارها » ، ولايعرف الحدود ولا القيود ، بل يطغى على مايلقى فى طريقه فيحطمه ، لأن نظرته دائماً إلى الأمام فى المستقبل السائرقدماً نحو الغاية الكبرى للإنسانية ؛

أما جبرانى فنسمة رقيقة عاطرة يزفر بها الأرز فى مشارف بشرّى ، تهب على النفوس الفقيرة والقلوب الكسيرة ، فلا « تكسرجناحاً » ولا « تعصف » بالعقول ، بل تقف عند حدود جبلها وتتألم لمايصيب أهلها الأقربين ، إن « ماتوا على الصليب » .

جُبرانك مصور ينافس الألوهية فى خلق الصورة ، ويرسل « النبى » الجديد المبشر برسالته المتكلم بلسان وحيه ، كما تكلم زرادشت بوحى نيتشه ؛

أما جبرانى فهو المغنى المتألم فى الصور الحزينة ، وهو العبد الناطق بلسان الإنجيل ، وهو الواعظ المبشر بموعظة الجبل .

جبرانك علم تنضوى تحته الأمم ، وتختفى فى حضرته المراسم والطقوس والشارات المميزة ، فلا لغة إلا لغة الروح المطلقة فى ملكوت الانسانية العليا ، ولا هتاف إلا هتاف القلوب المتعالية عن الأوضاع والأصقاع ؛

أما جبرانى فعلم تسوده شجرة الأرز ، وتلوذ بحضرته مفاخر الوطن ، فلا أفهم من لهجاته إلا لهجة الضيعة التى أقطنها ، ولا أستجيب إلا لندائه الصاعد من أعماق وادى قاديشا بين تراتيل مار أفرام وأناشيد ومواعظ يوحنا الذهبى الفم .

لك جبرانك ، ولى جبرانى !

جبرانك هو الذى طرد الراهبة والخورى لما أتتـــه حشرجة الموت ، وطوّف فى الدنيا حاملا مشعل الإنسان ، وصرخ فى وجه الطغاة الأفّاقين الذين يستغلون أنبل المشاعر الإنسانية طمعاً فى زخرف الدنيا ؛

أما جبرانى فهو الذى تغنى «بالمجدلية» ، وسعى يبشر بـ « يسوع ابن الإنسان » ، وركع فى الهياكل المزدانة بالشموع تحت قدمى العذراء ، وانتشى بالبخور المتصاعد من مجامر التقوى .

جبرانك تلميذ رودان ونيتشه ؛

أما جبرانى فقبس من نور الأنبياء ، وتلميذ مخلص للمسيح .

جبرانك هو الذى كتب « النبى » و « الأرواح المتمردة » و « حفار القبور » و « وعظتنى نفسى » و « المخدرات والمباضع » ، وترنم بأغانى « المواكب » ؛

أما جبرانى فهو الذى رسم بريشته « يد الله » و « الجدلية » و « الجائعة المستعطية » ، وزفر أحر الزفرات التى صاغها فى « دمعة وابتسامة » ، وناح على « الأجنحة المتكسرة » ، ومجد « يسوع ابن الإنسان ».

لك جبرانك إذن ، ولى جبرانى !

***

هكذا كان الحوار يدور بينى وبينك ونحن صاعدان فى الطرقات اللزبة الملتوية كأنها محانى الأفاعى من طرابلس حتى بشرى . وكنت متحمسة أشد الحماسة لجبرانى الذى اصطفيته — أو اخترعته أنا وأمثالى لحاجة فى نفوسنا ، كما كنت تزعم أيها الماكر المراوغ ! — وبقيت ملاوة من الزمان على اعتقادى هـذا ، لأنى ، كما تعلم ، لا أخلو من العناد ، فى نفسى شماس ولدد فى المشاحة ؛ ولكنى مع ذلك أدع للمؤثرات أن تسلك سبيلها فى أعماق اللاشعور ، حتى تأتى الساعة التى فيها تبدو على السطح ، فأستشعرها أمراً صادراً من ذاتى ، وهنالك أومن به أحر الإيمان .

وهذا ما وقع لى منذ أمس الدابر ، بعد زيارتى لقبر جبران .

***

وقفت بى الحافلة قبل بشرى بمئات الخطوات ، وصَعَدْتُ فى طريق مرتفع متعرج فى الجبل ، تعلوه أشجار التوت والشربين والصنوبر ،

وكانت العطور الطبيعية المتصاعدة من النباتات الصغيرة تحت أقدامى تتضوع وتصّاعد إلى الأنف إرهاصاً بما سيستقبلنى فى ضريح جبران . وكان الرهبان الغادون إلى دير مار سركيس ، والنسوة الغاديات إلى الدير يزحمون ذلك «الطريق الضيق» ، كأنه السراط ، المؤدى إلى جنة جبران ؛ وأحراش الأرز تتراءى من بعيد كالبقع الكحلية فى أزهار الثالوث (البنسية) البيضاء .

دخلت القبر – المتحف الذى أعده القوم لجبران بعد أن عاد جثمانه إلى أرض الوطن الحبيب فى ٢١ آب سنة ١٩٣١ ، فوجدت ناووسه يحيط به سور صغير من الحديد المصنوع ، وعليه أزهار بعضها ذابلة وبعضها نضرة ؛ وشاهدت الجدران عامرة بالأكاليل وعليها البطاقات التى تخبر عن مقدّميها ، ورأيت بعضاً من الذكريات التافهة المتصلة بجبران معلقة على جدران كالحة أبعد ما تكون عن أن تليق بمقام هذا المصور الشاعر العظيم . ولولا عناية الحارسة التى تقوم على القبر – المتحف لاستحال هذا الموضع الطاهر مزبلة وخراباً يعشش فيه الطيور فى الشتاء .

كم تألمت لهذا الإهمال الذى لم أشعر بفظاعته ومدى الإجرام فيه مثلما شعرت هذه المرة ! ألأنى بدأت – بتأثيرك أنت – أشعر بجبران الحقيقى وأفهم مدى رسالته ؟ – لست أدرى . إنما الذى أعلمه تمام العلم هو أننى عدت إلى قريتى ، حدث الجبة ، فى الأصيل وأنا حبلى بالآلام القاتلة والهموم الثقيلة والثورة العنيفة .

نعم ! عادت نفسى من زيارة قبر جبران مريضة حتى الموت .

أما كان جبران أولى من أولئك الخنازير المتفخين من رجال الدين والدنيا الذين تقام لهم التماثيل البرنزية والأضرحة الفخمة ؟ !

إن جبران أثمن درة فى تاج هذا الجبل الأشم ، ولكن بنى الإنسان اعتادوا أن يلقوا بالدر أمام الخنازير ، فياويلتاه لقومى !

أى أصحاب جبران ، وما أكثركم ! هلموا نوءد بعضاً من ديننا لهذا الذى ملأ نفوسنا بالنور ، ووضع البلسم الشافى على قلوبنا الجريحة ، وأنبت الريش فى أجنحتنا المتكسرة ، ثم أودى فى السابعة والأربعين صريع داء تليُّف الكبد وطلائع السل !

لكن أصحاب جبران هم أولئك الفقراء والمساكين الذين حاول أن يرقأ عبراتهم ويشاركهم أحزانهم ؛ هم العذارى اللواتى لاتتفتح أزهارهن إلا ليدوسها الأجلاف الغلاظ ؛ هم الصبية والصبايا الذين يقضون الأيام الوردية مستسلمين للأشباح والأحلام ؛ هم الكرامون والعصارون والرعاة بشباباتهم الذين يقدمون القوت لليد التى تبطش بهم ؛ هم النفوس الغرثى المتعطشة للإيمان الصافى النافرة من التجار الذين يبيعون الناس رموز الإيمان ليلبسوا الحرير والديباج ويحلوا بالماس والجواهر النفيسة والذهب النضار ، أولئك الذين طردهم يسوع من المعبد الاسرائيلى ، فانكفأوا على كنيسته يملأونها ببضاعتهم الزائفة المزجاة ، ويستخدمونها قلعة تقذف بالقنابل فى سبيل السيطرة والسلطان . أصحاب جبران هم الصبية الذين يتسلقون الصخور ، والصبايا اللواتى ينشدن العتابا والمعنّى والميجانا .

هؤلاء أصحاب جبران ، ولا حول لهم ولا طول فى عالم المادة والقهر والجبروت ، فماذا عسى يصنعون ؟ !

نعم ! لجبران فى قلوبنا قبر حى بدمائنا ، ويظلله دوح وسُقّى بعبراتنا ، وتنتثر على ترابه أزهار عطورها أنفاس « الأرواح المتمردة » وترفرف عليه « الأجنحة المتكسرة » ، وتطوف به « عرائس المروج » ، وتحج إليه « المواكب » السائرة على درب المثل الأعلى ، وتتناوبه كل « دمعة وابتسامة » انطلقت من أرواح المساكين والبائسين والمظلومين والمحرومين .

هنا أيقنت أن جبرانى من صنع خيالى أنا والحالمات الساذجات من أمثالى ، وأن جبرانك هو جبران الحقيقى : فهمته أنت فكان لهذا معبودك ، وفهمه أصحاب الأهواء والسلطان من أهل الدين والدنيا فرأوا فيه عدوهم الأكبر ، فحاربوه وحرموه .

والآن ! يخيل إلىّ أنى أسير قدماً فى طريق الإيمان بجبرانك أنت واطراح جبرانى ، وأننا سنهتف يوماً معاً صارخين فى وجوه المتخلفين والواهمين :

لكم جبرانكم ، ولنا جبراننا !

فى أسبانيا

— ٢٩ —

إلى سلوى

في الطريق إلى دمشق أسبانيا

سـلوى !

ماذا ترين فى حديثى عن هذه « الملاوة فى النعيم » التى أمضيتها بين الجبال الفاتنة ، والبحيرات الساحرة ، والذكريات الوردية ، والبسمات الصافية ، والنفوس الطيبة ؟

لعله استهواك ، لأنك تسمعت فيه صداك ، وتوسمت فى تضاعيفه صورة رُباك ؛ ولا عجب ، فأنت « ابنة النعيم » .

أما أنا ، « ابن الجحيم » ، فسرعان ما استولى علىَّ الملال : هنا يسود الصفاء ، وأنا لايستهوينى غير الاضطراب ؛ هنا الطبيعة ، وأنا سليل الروح ؛ هنا الجمال الخالص ، وأنا لا أحب الجمال إلا ممزوجاً ؛ هنا النعومة والملاسة ، وأنا أتعشق الخشونة وأسعى إلى العقبة ؛ هنا نفوس راضية ، وأنا لاأرتاح إلا إلى النفوس القلقة ؛ هنا شعب بارك الرب من حوله ، وأنا لا أقدر غير المتألمين والمساكين والمستضعفين ؛ هنا الثراء والنعمة والرضا ، وأنا عنصرى من الحرمان والنقمة والتشكى ؛ هنا جباه ملساء ، لم تعرف الألم ، ولم تهزها هزة المحنة ، وأنا ولوع بالجباه المتخددة ، والقلوب المكلومة ، والأرواح المعذبة التى طالما مشت

فى طريق الخطايا ، واقتاتت بخبز الدموع ، وقضت الليالى البيض على حجر المصائب .

فى الحرمان سر الإبداع ؛ فهل من عجب بعد هذا فى عجز هذا الشعب السويسرى عن ميلاد شعراء وفنانين من الطراز الأول ، ماذا أقول ! بل فى المرتبة الثانية ؟ !

سمِّ هذا إن شئت شذوذاً فى طبعى ، ومرضاً فى ميولى . ولكنى هكذا خلقت ، وبهذه الحقيقة آمنت . واهنأى إذن بما أفاء الله عليك وعلى بلادك الحبيبة الشبيهة من نعمة ورضا وصفاء وجمال صرف غير ممزوج .

لكن ،اغفرى لى هذا الرحيل سعياً وراء « جحيم آخر » أستعذب فيه العذاب .

وهذا « الجحيم العزيز » الآخر هو أسبانيا ، أسبانيا التى ملكت علىَّ كل قلبى ، واستشعرت فيها هزة جديدة لم أحسس بمثلها من قبل : إذ نبهتنى إلى جلال أصولى ، فآمنت لأول مرة بجلال الروح العربية التى أبدعت روائع هذا البلد العجيب ، أو بالأحرى جددت هذا الإيمان بعد أن فقدته أو كدت ، فهنا أنفاس الروح العربية تهب فى كل جليل وجميل .

وأنا أعلم أنك تكرهين الروح العربية وكل ما يتصل بها ويصدر عنها ، وأعلم أنك استشعرت من دوافع حبك إياى هذه المشاركة بينك وبينى فى هذا الشعور ؛ وأعلم كذلك أنى بهذا الحديث أقرع فيك باباً طالما غلّقته فى نفسك عوامل قوية : من وراثة وبيئة وتنشئة ومطامع

سياسية ومآرب دنيوية تفتك بالنفوس الطاهرة فتسد عليها شعاب الشعور الصادق الصادر عن الحقيقة والواقع .

نعم ! ستقولين إن هذه مني نكسة ، بل خيانة لرسالة التنوير التي أخذت على عاتقي التبشير بها ، وإنها أثر من آثار الرواسب اللاشعورية العتيقة التي لم أستطع ولن أستطيع التخلص منها أبداً .

وستقولين كذلك، إذا أنا ألححت عليك وأبرأت نفسي من الدوافع اللاشعورية : إن هذا الشعور إنما يصدق على الماضي ، وإن الروح التي أبدعت ما أذهلني قد « كفنت في الأكفان اللازوردية التي ترقد فيها الآلهة الموتى » ، كما قال صديقك رينان في مقام كهذا .

وأنا أخشى ها هنا غضبك ، خصوصاً وأنا أقرع بهذا وتراً مفرط الحساسة فيك ، وأذكر جيداً هذين البيتين اللذين قالتهما أخت لك في الهوى ، وهما بيتان أثيران لديك طالما أفحمتني أنت بهما حينما كنت تشاهدينني أندفع في الحجاج العقلي معك ، أيها الوجدان الصافي :

ليس يُستحسن في شَرْعِ الهوى
عاشِقٌ يحسن تأليفَ الحُجَجْ
بُنيَ الحبُّ على الجَوْرِ فلو
أنصف المحبوبُ فيه لسَمُجَ

لهذا فليس لديَّ إلا أن أعرض عليك ما شاهدت ، عسى أن يدب إليك « الداء » الذي دب إليَّ من قبل ، وإن كنت يائساً كل اليأس من إقناعك قبل أن تشاهدي بعيونك وتستشعري بإحساسك ما شاهدت وأحسست .

— ٣٠ —

إلى سلوى

قشتالة الوردية

جمر فى الأفق ، وحمرة زاهية فى الصخر والقرميد تصطفق ،
وجفاف يلهب السهل المنطلق — فليت شعرى هل قشتالة تحترق !
أهذا ما وعدتم ، معشر الشعراء ؟
أين المروج ، وأين البنفسج والورود ؟ أين الثمار ، وأين الينبوع ؟
أين مجالى الوجد المشبوب ، وأين ملهمات الوتر المفتون ؟

بهذا كنت أحدث نفسى حينما هبطت بى الطائرة فى مطار براخس Barajas على فراسخ قليلة من مدريد ، بعد رحلة شائقة من باريس لم أكد أتملى خلالها بما يمتع البصر : إنما هى أجبال متصلة ضمختها بالحمرة أشعة الشمس الفاتنة فى ذلك اليوم الضحيان من أيام أيلول .

أحدثها وأنا حائر زائغ البصر ، أستنفض ما حولى ، فلا أكاد أصدق ما تشهده عيناى . ومضت بنا الحافلة تشق طريقاً قاحلة ماحلة تناثرت على طولها بعض المنازل الريفية الرقيقة الحال والتى ذكرتنى فى التو بقرى الشرق ، وبخاصة فى سوريا ؛ حتى بلغنا أبواب مدريد .

ومع هذا ، فقد كنت أشعر منذ اللحظة الأولى التى نزلت فيها هذا البلد بأنه أليف أنيس ، تكاد تربطنى به واشجة قربى عميقة الجذور . مادخلت المكس فى المطار حتى استقبلتنى تحية حارة من موظف مراكشى فى المكس لم يكد يرى جواز سفرى حتى قال بعبارة عربية فصيحة :

« من مصر ؟ أهلا ومرحباً ! » وما تفرست فى وجوه الأسبان — موظفين وغير موظفين — حتى أحسست بأنى بين أهلى : سماحة فى الطبع ، ورقة فى الخطاب ، وطلاقة فى المحيا .

وزاد هذا الشعور توثقاً لما أن دخلت مدريد فاستقبلتنى الأبنية الشامخة ذات الطراز الأندلسى الرشيق ، وفى مقدمتها حلبة مصارعة الثيران ، وسأعود إلى وصفها بعد حين .

وتبددت الجفوة الأولى أو كادت لما أن عدت فى ساعة الأصيل أمشى فى طرقات المدينة ، وكانت قطع السحاب القرنفلى تتراءى فى السماء ناحية الغرب ، وجموع متواصلة من المارة تسير فى الطرقات فى رقة وتخطر ودلال : عيون نجل سود ، وشعور ناصعة شقر أو كستنائية ، وخدود متوردة علتها نضرة النعيم ، وبشرات ناعمة بضة تتفتح من براعمها البكارة والطهارة ، وابتسامات بريئة ، لا لعوب ولا متكارهة ، شأن تلك التى ضقت بها ذرعاً فى باريس ، بل تنبع من أنس باطن لغادات انتفضت فيهن هزة الحياة .

رويدك قليلا ، أيتها الحسناء ! دعى عيونى تتملَّ بمفاتنك الغر . والفتاة تهرول لاتلوى على شىء ، فى موكب من السحر العاطر النفثات ، فلا تكاد تحدق فى هذه حتى تبدهك أخرى جمعت مفاتن أخرى متعددة الشيات : فوج يتلوه فوج ، وركب من الحسن يتلوه ركب ، كلهم مخبُّون ، وكيانى كله جهاز استقبال لما لا نهاية له من أعذب الأحساس .

فانكفأت على نفسى أضرب بقدم الحسرة فى طرقات من نار الوجد

المتأجج ، وأنا أتمتم فى خاطرى مواسياً : ويحكن ، وويلى عليكن أيتها الغادات ! فنظراتى وحواسى تطاردكن أينما كنتن ، ولو اعتصمتن ببروج مشيدة .

وأشهد لقد طوفت ما طوفت فى مغانى الجمال فما عثرت على مثل هذا القدر المتجمع من الجمال والإغراء . كم تأملت مواكب العابرين فى الشانزليزيه وجادة الكابوسين بباريس ، وفى كورسو أومبرتو وفيا ناتسيونالى بروما ، وميدان أوديون ومكسميليان بمونيخ ، والطرقات المزدحمة فى برن أو على سواحل بحيرات جنيف ولوتسرن ، فلم أجد فيها كلها من الجمال عشر معشار ما شاهدت فى جادة خوسيه أنطونيو (جران فيا) أو ميدان باب الشمس Puerata del Sol بمدريد .

ثم تدافعت سحائب الظلام تحيط بغلائلها الرقيقة من الستان الأسود هذه المواكب الزاخرة التى لاينقطع لها ورود ، وتلك المنازل الأنيقة — وإن كانت من أحدث طراز فى المعمار ، لكن روح أسبانيا لا تزال سليمة لم تتخذ من أمريكا إلا أسباب البناء ، لا روحه — التى تزهى بقرميدها الوردى وتيجانها المطرزة برقائق النحت ، ورشاقة بنيانها الخفيف الظلال — فعمت الظلمة أكناف المدينة المائجة ، لأن النور الكهربى قليل الزاد بسبب الجفاف .

وهنا تذكرت أن أسبانيا وطن الموسيقى النَّوَرية والأندلسية (والكلمتان عند القوم مترادفتان) ، ولطالما مجدت هذه الموسيقى الناعمة التى تشتاقها نفسى ، خصوصاً حينما تبهظ كاهلى الموسيقى الرفيعةُ ، موسيقى موتسارت وبتهوفن وفجنر وباخ ، آلهتى فى عالم الصوت الرنان .

فدخلت فى الهزيع الثانى من الليل (الحادية عشرة مساءً) مسرحاً من تلك المسارح العديدة فى مدريد التى تقدم ذلك اللون من الموسيقى ، ألا وهو مسرح الملكة فكتوريا Reina Victoria فى طريق سان خيرونيمو على مسافة قليلة من فندق أوتيل بالاس Palace Hotel حيث كنت أقيم.

ورفع الستار فتبدت غادة تهدف إلى الثلاثين : سمراء وفى سمرتها جاذبية تهز المشاعر هزاً عنيفاً ، لعوب وفى تلاعبها ما يحطم وقار الحليم وصبر الكظيم ، مجدولة البدن فى نضرة تتواثب من خلاياها أشعة الفجر ، سوداء العيون الواسعة البعيدة الغور كأنها البحر المحيط ، وقد أحاطت برأسها المستدير غدائر قصيرة تلمع كما تلمع الفحمة البراقة فى قوس فولتا ، وكأنها تستمد من شعورها تلك الكهرباء السحرية الخارقة التى تسرى فى سائر خلاياها .

أقبلت ترقص وفى كفيها صنَّاجاتها ، فكشفت عن ساقين تتحلب الشهوة المدمرة من كل خلية فيهما . وعبثا حاول فستانها الطويل من الكرب ساتان الأبيض المرقش بالأزهار الكحلية أن يرد العيون اللهيفة عن هذه الفتنة المتحدية : فما طال إلا لتستطيل الساق فيستطيل الإغراء ! وراحت توقظ كوامن الفتنة بأهدابها المسترخية ، ونظراتها الشبقة المذعورة من فرط هيجانها . كل هذا على توقيع متقطع من صناجتين ترنان رنين البلور .

وفى هذا الموكب المشبوب بمفاتن بدنها الناعم غنت أولى مقطوعاتها بعنوان « البتنيرا » La Petenera ، والبتنيرا لحن أندلسى مشهور . فانطلق هذا الظبى البغوم يغرد :

« من الينبوع الصافى
يتردد إلىَّ دعاء الماء
فيطرز على سراويلى
زينة من البلور
وإن الينبوع ليأمل
أن تنعكس على مرآة
البتنيرا .... »

والموسيقى تصاحبها بنغمات هى أقرب ما تكون رَحِماً بما ندعوه اليوم الموسيقى الشرقية ، لكن شتان ماهما ! هنا النعومة تمس الأغوار الباطنة برقة وحنان ، وهنا الإيقاع يهدهد النفس ، لكن لا يخدرها ، وهنا اللحن harmonie يستحيل إلى انسجام mélodie دون أن تضطرى إلى إعمال العقل فى إدراك البناء الموسيقى العام، بل الإحساس الخالص هو وحده الذى يستقبل هذه الترقيمات notes الحارة .

فقلت فى نفسى وأنا نشوان بهذه الألحان : إن شئنا لموسيقانا الشرقية المزعومة ومنها الخلاص ، فمن ها هنا الطريق ! فهذه الألحان الأندلسية بمختلف أنواعها هى الأصول الحية القوية التى لابد من الاستناد إليها فى كل تجديد موسيقى مرموق ، وهى من بنات روحنا العربية الأصيلة التى ما عرفت كيف تزدهر حق الازدهار إلا فى هذه التربة الخصبة ، تربة الأندلس ، لأنها ذات رحم ماسة بها بطبعها . والحق أن التزاوج لم يتم فى تلك الرقعة الواسعة من دار الإسلام بين الروح العربية الجديدة والروح المحلية العتيقة خيراً مما تم فى الأندلس . وما ذلك إلا لوجود

« أنساب مختارة » قوية الوشائج ، وكأنها مغروزة فى الطبع الأصيل .

ثم توالت المناظر واشترك فى التمثيل والرقص والغناء أفراد آخرون ، ولكن نفسى مستغرقة فى ذلك الظبي البغوم ، حتى عاد يغنى وحده أغنية « ماريا فكتوريا » على لحن الباسودوبله Pasodoble المرقص ؛ وهنا تبدت عن كل فتنتها ودلالها : فى إشاراتها ونظراتها وحركات قوامها وأردافها ، وهى تلبس ثوباً طويلا من الأبيض المخطط بخطوط دائرية حمر ، فأعطت هذا اللحن الرقيق — الباسودوبله — فتنة لم أحسس بمثلها من قبل. وما أكثر ما سمعته يعزف فى مراقص باريس ، فلم يهزنى إلا قليلا. أما هنا فتمد حىَّ فى مجاله الطبيعى محوطاً باطاره الرائع الذى أضفى عليه كل جمال ؛ وكأنه قد نفخت فيه روح جديدة. فما بالك والتى تغنى هى من وصفت : سحر أنوثة وروعة فتنة !

أغنية تلو أغنية فى إطار متغير أبداً كان تكأة للتنويع والانتقال ، حيناً تعود إلى لحن الباسودوبله فى أغنية « الثرثمورا » Zarzamora وفيها تتغنى بمقهى «الليفانته» Café de Levante وهو من أقدم مقاهى مدريد إن لم يكن أقدمها . ومن عجبٍ أنه كان أول مقهى جلست فيه فى مدينـــة مدريد ، فكيف لا تستهوينى هذه الأغنيـــة وهى تصدح :

« فى مقهى الليفانته بين الأكف وبين السرور
كانت تغنى « الثرثمورا » (ومعناها الحرفى : التوت البرى)
وكان القوم هكذا يدعونها لأنه يقال
إنها كانت لها عينان مثل التوت »

أما اليوم فهذا المقهى المطل على ميدان « باب الشمس » قد خلا من بلابله ، وخيم الظلام المقبض على أركانه ، ولم يعد يعمره إلا الشيوخ والعاهرات الهرمات .

وأخيراً أنشدت أنشودتها الأخيرة وسط باقة من الفتيات الناعمات ، وهى أنشودة : « مثـــانى أشبيلية » ، على لحن الباسكله Pasacalle وفى أكفها الرخصة صناجاتها البلورية :

« أشبيلية فى الليل سلطانة
تبكى عليها مراث من الأناشيد ؛
أشبيلية وردة فى النافذة
تكسوها أزهار البنفسج والبرتقال ؛
وفى أتاويه دروبها الملتوية
ينفتح ميدان أنيق
غرست فيه علامة الصليب ؛
أشبيلية فى الليل شرفة ذات قضبان
تنوح فيهـــا
الأغانى الأندلسية . . ! »

وتتلوها بالترديدة estribillo تشترك فى غنائها تلك الباقة الفاتنة ، فيصدحن بصوت رخيم واحد :

« القيثارة والقرنفل
والشمس والبابونج
وعيون ســــود

مثانى أشبيلية.

نعم ! مثانى أشبيلية
التى تحملها الرياح
وفى ثناياها حديث
عن الحب والأيمان المتبادلة.
إى ! إن أشبيلية
شبيهة بالخناجر
التى تشيع السرور
فى سبيل كل الأحياء » .

أغنية رائعة من غير شك ، غنتها فى لهجة أندلسية ملأى بالحنان ، وفيها إهابة كاملة بملامح الأندلس : فتشبيهها بالسلطانة يوحى بأنها شرقية الينبوع ، والمراثى عليها عربية الأنفاس ؛ والورد والبنفسج والبرتقال خير ما يبعث فى النفس صورة الأندلس الزاهرة ؛ والدروب الملتوية هى التخطيط الخاص بمدن العصور الوسطى ، وبخاصة العربية – كل هذا يعطيك أدق صورة عن أشبيلية العربية الإسلامية. لكنها اليوم ، وآسفاه ! تخلت عن تلك الغلالة الزاهية فصار فيها : « ميدان أنيق غرست فيه علامة الصليب » . ومع هذا فلا تصدق هذا المظهر الخارجى وهذا الطلاء الظاهر ؛ حُكّه قليلا تتكشف لك عن ماضيها الرائع العتيق ، أعنى العربى الإسلامى ، هنالك تسمع وتشهد فى دروبها وتحت نوافذها : « القيثارة والقرنفل والشمس والعيون السود » والمثانى التى تحملها الرياح (نسيم الصبا ؟ !) معبأة

بأحاديث الغرام وما تبادله المحبون من مغلظ الأيمان، المثانى — كالسهام — التى تذكرك بالفروسية العربية الأصيلة ، لا بهذا المسخ القبيح الذى يدعى مصارعة الثيران !

آه ! حنانيك يا لولا (وهذا اسم هذا الظبى البغوم Lola Flores)

فكم هيجت فى قلبى من أشجان : أشجـــان الشهوة والوجد ، وأشجان تالد المجد !

— ٣١ —

إلى سلوى

الأسكوريال ، هذا الدير الكابى

خطرات النسيم فى الصبح الناضر تستقبل خدى الشاحب من فرط السهر فى هذه المدينة الدائبة السهاد ، مدينة مدريد . والعيون النجل السود للغادات الغاديات تنبه الفتنة فى قلبى الوسنان . وأنا مهرع أغالب الإعياء وأنا أسلك طريق سان خيرونيمو مستأنياً فى ميدان باب الشمس ميمماً شطر جادة خوسيه أنطونيو ، أو الطريق الأعظم Gran Via كما يدعوه أهل مدريد ، كيما أركب الحافلة الغادية إلى الإسكوريال.

لا نزال فى قشتالة الوردية : العمائر السامقة تعبث بقرميدها الزاهى أشعةُ الشمس النافذة بين لفائف السحائب ؛ والتراب الأصفر المخضر يكسو الروابى المتناثرة الواطئة التى تتراءى على طول الطريق . والجدب الكالح يبسم بابتساماته الصفراوات بين مخارف متباعدة الأشجار : من قسطل وزيتون وصنوبر وحور هزيل الأفنان . يحيط بهذا كله إطار لازوردى حيناً ، داكن أو سنجابى حيناً آخر ، من مرتفعات جوادارام . ولا يخفف من وقع هذا الجدب الزاهى إلا بيوت ريفية وقصور لاشك فى أنها أنيقة الطراز : بطنفها الطويلة الناضرة ، وعرائشها المسقوفة بالقرميد الزاهى المتموج تحملها سلسلتان من الأعمدة الممشوقة القدود ، وطلائها الأبيض الناصع .

لكن ، كفى البكاء على قشتالة ، فما فى البكاء ها هنا غناء !

ما الطريق بطويل ، ولكن كان الجدب طويلا . وأخيراً بلغنا الاسكوريال والشمس فى ضحوة النهار تشيع الدفء فى هذه الأعالى التى يبلغ ارتفاعها ألفاً وثمانية وعشرين متراً فوق سطح البحر أو ينيف.

والاسكوريال اسم للدير الذى أعطى الحياة لهذه البقعة من الأرض ، تحيط به قريتان إحداهما فى الشمال وتسمى سان لورنثودى الإسكوريال San Lorenzo del Escorial وهى أقربهما إلى الدير تتوالى فيها مخارف الصنوبر والسنديان واللبخ ، وتحفل بالعمران وأسباب الترف العصرى ؛ والأخرى إلى جوار محطة السكة الحديدية وأقل شأناً ، وإن كانت تدعى الاسكوريال Escorial .

على رسلك قليلا ، فالإطار خليق بكل إعجاب ! سفوح الأجبال يكسوها الصخر الأصفر وتتخللها باقات من السنديان ، وقرية سان لورنثو ترتمى فى حضن هذه الأعالى الباردة فى دلال وهى تستضحى للشمس الرقيقة ، شمس الخريف .

استدر قليلا ناحية اليسار بعد أن تنزل فى الطريق الصغرة الهابطة إلى الدير . هنا مدارج صفت فيها ألوان الأشجار السامقة كأنها بستان وهى تنحدر إلى الوادى كأنها سروال متماوج مزركش لأمزونة من تلك الأمزونات الأشبيليات من أتراب كرمن كما يتخيلها مديرو الزخرف فى المسارح . حقاً ، كم أغبط الرهبان ، بل أحسدهم على المواقع الفاتنة التى ينتقونها لتشييد دياراتهم ! ومع هذا — وما أعجب منطقهم فى كل شىء ! — يهولون بصوامعهم وكأنها أفاحيص القطا أو سراديب الخلد !

نحن الآن قبالة هذا الدير العتيق الذى أمر بتشييده ذلك الملك

المـاكر الورع فيليب الثانى تخليداً لذكرى انتصاره فى العاشر من شهر آب (أغسطس) سنة ١٥٥٧ فى موقعة سان كنتان ، إذ احتل جيشه بقيادة الدوق فيليبرت من سافويا هذه المدينة الفرنسية التى كانت تحتضن دير راهبات شفيعة سان لورنثو . وقد احترق هذا الدير أثناء المعركة . فرأى فيليب ، وهو الشديد الايمان بهذا القديس ، القديس لورنثو ، أن يعوض عن هذا الاحتراق ، فكان أن أمر بتشييد هذا الدير ، دير الاسكوريال . فبدئ باختيار الموقع الملائم فوقع على هذه البقعة الرائعة ، ووضع حجر الأساس فى الثالث والعشرين من نيسان (أبريل) سنة ١٥٦٣ ، واستمر العمل بكل حماسة حتى انتهى البناء فى الثالث عشر من شهر أيلول سنة ١٥٨٤ . وتعاون على إقامته أشهر الفنانين فى ذلك العصر : بناءاً وتزييناً ، يكفى أن نذكر من بينهم الرسام الإيطالى المشهور تتسيانو Tiziano ، وعين فيليب الثانى ساهرة على العمل كله تحوطه بعنايتها . ولا عجب فقد كان يعد هذا الدير أعزما لديه حتى إنه لما أن اشتدت عليه العلة التى مات بها ، علة النقرس ، شاعت إرادته أن يموت فى الاسكوريال . فترك مدريد وهو يجر بدنه المنهوك ، حتى إنه قطع المسافة – وتبلغ ٤٠ كيلومتراً – من مدريد إلى الدير فى ستة أيام محمولا على كرسى وثير محمول على أكتاف رجال يمشون بكل بطء . فقضى أيامه الأخيرة فى هذا المكان الأثير لديه فى الثالث عشر من شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٥٩٨ بعد أن أمضى فيه ثمانية وستين يوماً ؛ مات فى غرفة صغيرة يفتح بابها على فتحة ضخمة فى جدار الكنيسة الكبرى ، حتى يستطيع أن يشاهد الطقوس

والمراسم العديدة الحافلة التى كانت تقام له دعاءاً واستخلاصاً لروحه أو فى القليل استمطاراً لرحمة البارى على روحه وقد يئس من الشفاء .

والمعمار الذى أشرف على هذا البناء ووضع تصميمه وأفضى به إلى غايته هو خوان دى هريرا Juan de Herrera وكان قد تعاون معه فى بادىء الأمر خوان بوتستا الطليطلى Juan Bautista de Toledo بيد أن هذا توفى بعد خمس سنوات من ابتداء البناء . ولا يزال تصميمه كما وضعه هريرا ، لم يعتوره إلا تغيير قليل فى بعض أقسام القصر ، فى القرن الثامن عشر ، قام به المعمار فلانويفا Villanueva .

دعى الواجهة الشمالية للديروهى التى تلقينها قبالتك حينما تنحدرين من الطريق الهابطة ، والوى عن شمال وتعالى تأملى معى الواجهة الغربية فهى الخليقة بالمكوث أمامها حيناً .

أول ما يبدهك من البناء أنه متكتل massif إلى حد تشعرين معه بأنه ثقيل لاتتلقى منه العين والنفس غير شعور غليظ . لكن هذا الإحساس الأول لايلبث أن يخفف من وقعه تأمل هذه الواجهة الغربية : ففيها تماثل symétrie يحققه هذان البرجان الضخمان اللذان يقومان على جانبى الباب الرئيسى فى منتصف هذه الواجهة ذات المائتين وسبعة متر فى طولها ؛ كما يحققه القسم الأوسط من البناء بطوابقه الثلاثة ؛ ويتعاون كذلك على إيجاد هذا التماثل عدة نوافذ متناسقة الرصف . هذا فضلا عن برجى الزاوية اللذين ينتهيان بمخروطين مسحوبين تعلوهما علامة الصليب ، من نوع هذه المخروطات الشائعة الانتشار فى غالب الأبنية الأثرية فى أسبانيا .

دخلنا من الباب الأوسط الذى يعلوه تمثال ضخم لشفيع الدير وهو القديس لورنثو ، واتجهنا ناحية اليمين حيث مكتبة الاسكوريال فى الطابق الثانى ، فوجدنا قاعة طويلة تحلق فى نور رائع ، أرضها مكسوة بالمرمر الأبيض والرمادى ، وسقفها قبو شبه دائرى يقوم على الجدران نفسها ، مطلى برسوم على الجدران دبجتها فرشاة كل من بيرجرينو Peregrino ، وكردوكشى Carducci ، وقصد منهـا إلى تصوير المعارف الإنسانية : فثمت أشكال تمثل الفنون الحرة السبعة فى وسط القبو ومعها صور لأشهر العلماء الذين برعوا فى كل فن منها. وفى أقصى الشمال عند نهاية القاعة صورة « الفلسفة » وهى تشير إلى الكرة الأرضية ، وحولها : سقراط وأفلاطون وأرسطو وسنكا . ومن هنا تتسلل على طول القبو الفنون الحرة : النحو وتمثله صورة « لأول مدرسة نحوية» تحدث عنها التاريخ ، وفيها تدرس اللغة الكلدانية لأولاد اليهود الأسرى فى بابل ، ثم صورة « لبرج بابل » . ولعل ما أوحى بهذه الأخيرة مضافة إلى النحو ذكرى تلك الخصومة التى قامت بين اللاهوتيين وبين أهل النحو والجدل ، وهى خصومة شائقة ذهب فيها أهل اللاهوت إلى حد تكفير أهل النحو حتى قال الأولون إن أول نحوى هو إبليس ، لأن النحويين هم الذين صرفوا اسم الله فى صيغة الجمع ! ومثل هذه الخصومة نشاهدها كذلك فى العالم الإسلامى العربى ، حتى كان يقال فى العبارات الشائعة : « ما أكثر أحد من النحو إلا حمقه » ، وكان يقال كذلك : « قلما يكون النحوىّ ديّناً » (راجعى كتاب : «التراث اليونانى فى الحضارة الإسلامية» ص ١٣٠ ط ٢ القاهرة سنة ١٩٤٦) .

وبعد النحو تأتى الخطابة يمثلها : « هرقل الغالى يسوق الجمهور بفصاحته » ، ثم « شيشرون وهو يدافع عن كايوس رابيريوس أمام مجلس الشيوخ » .

ويتلو ذلك الجدلُ ويصوره : « القديس أمبروزيوس والقديس أوغسطين وهما يتجادلان ، بينما القديسة مونيكا ، أم القديس أوغسطين ، تجثو إلى جانبه » ثم « زينون وهو يضع معيار الحواس أمام تلاميذه ، مستخدماً مثل البابين » .

وهكذا تتوالى بقية الفنون الحرة السبعة : الحساب والموسيقى والهندسة والفلك . وفى الواجهة المقابلة للفلسفة نجد « اللاهوت » ، تاج العلوم لأنه العلم الإلهى ، وقد مثل فى هذه الناحية عند المدخل الجنوبى محوطاً بكبار علماء الكنيسة الأربعة : القديس أوغسطينوس ، والقديس أمبروزيوس ، والقديس غريغوريوس ، والقديس هيرونيموس .

وقيمة هذه الرسوم الجدرانية لا فى الجانب الفنى ، إذ هى ضئيلة القيمة من الناحية الفنية الخالصة ؛ وإنما فى دلالتها على نظرة القوم فى ذلك العصر إلى العلوم ، وهى نظرة لاتزال تستمد تكوينها من النظرة الاسكلائية . ولا عجب ، فان اسبانيا لم تعرف عصر النهضة وإحياء العلوم ، وظلت موصدة الأبواب دون هذه « النهضة » وما أتت به من روح جديدة .. ماذا أقول ! بل إن الفكر الأسبانى لايزال حتى اليوم ، ويا للأسف الشديد ، يستمد وجوده وشكوله ومقولاته من الفكر الوسيط !

وعلى طول جدران هذه القاعة خزائن زجاجية الواجهة ، مصنوعة من الأخشاب النفيسة : الأكاجو والأبنوس والبرتقال والكستناء

وما إليها ؛ وقد رصفت فيها الكتب – وجمهرتها مطبوعة، أما المخطوطات فلها قاعة أخرى خاصة – بطريقة عكسية ، فلا يظهر من الزجاج كعوبها ، بل مفاتيحها الذهبية ، فتبدو أروع وأزهى ، لأنها مطلية بالذهب .

وفى منتصف القاعة بطولها خزائن للعرض عدتها سبع ، عرضت فيها نفائس المخطوطات المزركشة والمصورة والعتيقة . والثانية منها تشمل نفائس المخطوطات الشرقية : « العهد القديم » ، مخطوط عبرى كتب فى طليطلة فى القرن الخامس عشر ؛ و « تاريخ الحيوان» ، مخطوط عربى ، ومخطوطان فارسيان من القرن الخامس عشر ، و « مصحف » جميل التزيين كان لمولاى زيدان .

ومولاى زيدان ، سلطان مراكش ، هو الذى كانت له جمهرة المخطوطات العربية التى لاتصاب لها قيمة والموجودة فى الاسكوريال ، وهى قطعاً أنفس ما فى هذه المكتبة . وأصل القصة أن مكتبة مولاى زيدان كانت تحملها إلى المغرب سفينتان هاجمهما الأسطول الاسبانى بقيادة قبطان سنة ١٦١٤ واستولى عليهما وما فيهما من مخطوطات عدتها ثلاثة آلاف مخطوط .

وعندى أن هذا الاستيلاء كان نعمة كبرى على العلم والتراث العربى ، فلولا ذلك لضاعت هذه النفائس بين أيدى من يؤودهم حفظها ، أو فى القليل ظلت محرمة على أهل العلم ، بينما هى اليوم فى مكان أمين يقوم على شأنها حفظة بررة .

ألا ليت كل هزائم العرب كانت من هذا الطراز !

هكذا كنت أقول فى نفسى وأنا خارج من المكتبة نازلا الدرج المفضى إلى « بهو الملوك » .

وهذا البهو فسيح تحيط به أجنحة الدير ، وفى نهايته تقوم البازليكا : وهى بناء ضخم تعلوه قبة شامخة وعلى جناحيه بيتا ناقوس سامقان متماثلان ، ليس فيهما رشاقة كما فى الكاتدرائية القوطية ، وإنما فيهما التكتل الغليظ الذى يتسم به كل البناء فى الاسكوريال ، وبخاصة فى هذه البازليكا : فقبوها مستو تحمله أربعة أعمدة ضخمة جداً كأنها كتل من البناء المتماسك ، ومن شأن هذا كله أن يضفى على البازليكا طابعاً من الثقل الساحق الماحق . أجل ، قد توجد فى بعض الكاتدرائيات القوطية أعمدة ضخمة ، كالعمودين الأولين عند مدخل كنيسة نوتردام فى باريس ؛ لكن هذه الأعمدة قد قسمت وفصلت بحيث زال التكتل الساحق واستحال العمود إلى باقة ممشوقة من الأعمدة الرشيقة . أما هنا فالثقل مقصود ، والتموجات الضلعية التى تكسو هذه الأعمدة ليس من شأنها مطلقاً أن تخفف من وقع هذا الثقل الغليظ .

هذا الثقل الغليظ يدعوه الأسبان ضخامة ، ويرون فى الضخامة آية على الفن الرفيع ؛ ولهذا سيصم الدليل أذنيك فى كل آن بمقاييسه وأعداده : ثمان وثلاثون نافذة ، ومائة وأربعة وعشرون كرسياً فى الكورس الخ . بيد أن هذه الأرقام كلها لم تثر فى نفسى أدنى حماسة .

وستسمع الثناء العاطر على الكورس الذى يرتفع ثمانية أمتار عن أرض البازليكة وعلى جانبه كراسى مرصوفة عدتها كما قلنا مائة وأربعة وعشرون ، مصنوعة من الخشب النفيس وفقاً لرسوم هرّيرا Herrera

نفسه معمار الدير كله . وفى هذا الثناء على الكراسى جانب من الحق غير ضئيل ، فالأسبان مهرة فى صناعة الخشب إلى حد بعيد يزرى بكل ما تراه فى فرنسا ، ويتفوق فى كثير من الأحيان على ما نعجب به فى كنائس إيطاليا . ولست أنسى كيف كنا نعجب فى مطلع الشباب بالكراسى المصفوفة فى كورس كنيسة سان بيترو فى بيروجيا ، وكيف كان القوم حريصين على تعداد مناقبه وبث الإعجاب فى نفوسنا الغضة . وسرعان ما تذكرت هذا الإعجاب ، وأنا أشاهد هذه الكراسى المصفوفة فى الكورس وفى السكرستيا فى كنائس أسبانيا ؛ وأشهد أنى أكثر إعجاباً بهذه الأخيرة ، وبخاصة تلك الموجودة فى كنيسة سان فرنشسكو الجرانده San Francisco EL Grande فى مدريد ، فانها – فى السكرستيا – آية من فن الأثاث منقطعة النظير .

وقبالتك تجد المذبح الرئيسى ومن خلفه لوح retable ضخم (٢٦ × ١٤ متراً) صنعت زينته من المعدن المذهب وحجر اليصب jaspe والرسوم والنقوش ؛ وقد قسم أربعة أقسام تمثل طُرُز المعمار : الدورى فالأيونى فالكورنثى فالمركب – فى هذا الترتيب التصاعدى . وفى القسم الدورى لوحات تمثل : « ميلاد المسيح » ، و « عبادة المجوس » رسمهما تيبلدى Tibaldi ؛ وفى القسم الأيونى لوحة : « استشهاد القديس لورنثو » بريشة تيبلدى ، ولوحة « ضرب المخلص بالسياط » ، ثم « يسوع يحمل الصليب » وكلتاهما بريشة ثوكرو Zuccaro . وفى الكورنثى تجد فى الوسط لوحة تمثل « صعود العذراء المقدسة » ، وعلى جانبيها لوحتان : إحداهما : « قيامة المسيح » والأخرى « نزول

الروح القدس » واللوحات الثلاث لثوكرو . وعند وسط القسم الدوري تشاهد المعبد tabernacle وهو معبد دائرى صغير كورنثى الطراز من المرمر الفاخر ، خصوصاً أعمدته الثمانية ، وعلى سطحه الخارجي تماثيل الحواريين الإثنى عشر وتمثال المسيح .

وفى أعلى الكورس من كلا الجانبين حفرتان فى الجدران فيهما أضرحة شارل الخامس وفيليب الثانى وأسرتهما وقد زينت بالتماثيل المصنوعة من البرنز المذهب : لشارل الخامس،وعن يمينه زوجه الامبراطورة ايزابلا ؛ ثم الأميرة ماريا ، ثم إخوات شارل الخامس : الأميرة إليانورا ملكة فرنسا ، والأميرة ماريا ملكة هنغاريا . وفى الجانب الآخر تماثيل فيليب الثانى والملكة أنّا والملكة ايزابلا دى فالوا والملكة ماريا دى برتغال — وهن على التوالى الزوجات الرابعة والثالثة والأولى لهذا الملك المزواج لأنه كان شؤماً على زوجاته : يمتن بعد قليل من البناء بهن .

ما من كنيسة زرتها من قبل فى إيطاليا أو فرنسا — وكلتاهما كاثوليكية — إلا واعترانى إحساس دينى رهيب فيه حنان وخشوع ، وفيه نشوة روحية تشعرنى بضرب من المشاركة الوجدانية مع هذه المعابد ، فكان كيانى كله يهتز وإياها . فما بالى هاهنا لاينتابنى مثل هذا الشعور ! إنما إحساسى هنا مزيج من الانقباض وعدم الاكتراث بل والإرهاق الممضّ . عبثاً أكثروا من النوافذ ، فالعتمة تنيخ بكلكلها كأنها غطاء من الرصاص البارد الثقيل ؛ وعبثاً زينوا بعض المواضع — وقد كانت الجدران كلها من قبل مطلية بالجص تتخلله نجوم زرق — بالرسوم الجدرانية ، فشعور الإرهاق والغلاظة ينكبّ على النفس انكباباً .

لهذا سرعان ما قلت لنفسى : النجاءَ النجاءَ ! إلى السكرستيا حيث روائع الفن تزيل مااعترانى من انقباض قاتل فى جو هذه البازليكا الخانق.

هنا استعدت نفسى كما يستعيد الغريق أنفاس الحياة .

هنا صديقى الجديد – الذى أعده من أثمن الهدايا التى جادت بها علىَّ هذه الزيارة لأسبانيا – صديقى الفنان الصوفى ذو الخيال البلورى خوسيه دى ريبيرا Ribera يسبِّح بالظلال الخالقة فى فلك النور .

هذه اللوحة تمثل « القديس فرنشسكو الأسيزى فى دعائه وصلواته » .

آه ! ما هذه القداسة النورانية التى ترف فى هاتين العينين النجلاوين النافذتين فى أعالى السماء ! وهذه الأكف المتخددة من فرط الزهادة، ما أقسى تعبيرها وأنفذه فى طوايا النفس الكابية ! وهذه الشجرة ، أليست فى تماثل كامل مع القديس ؟ كلاهما عنصر أولى فى هذا الكون : الشجرة فى عالم المادة ، والقديس فى عالم الروح . فهما القطبان اللذان يدور عليهما محور الوجود . وفى كليهما تقشف ينبئ عن الأصالة والأولية فى إيقاظٍ كامل للقوى الكونية التى تنبثق عن الينبوع الحى .

لقد طالما عرفت القديس فرنشسكو فى مغانيه : ملَكاً هائماً ناعماً، فيه رقة تأخذ بمجامع القلوب ، وقداسة حبيبة تهفو إليها النفس فى غير قهر ، وألِفتُه روحاً نورانية ترنّق فى سماء من البلور ؛ الشمس أخته، والنور غذاؤه ، والطبيعة الصافية الزاهية فراشه .

أما هنا فى هذه اللوحة فقد أخلى هذا كله السبيل أمام قداسة قاسية رهيبة تشع منها « الأنوار القاهرة » ؛ هنا « القهر » لا « المحبة » ،

على حد تعبير قرينه فى عبادة النور ، السهروردى المقتول . وكم بين كليهما من تشابه ، حتى ليستطيع السهروردى أن يوقع باسمه « نشيد الشمس » ! ولا يجد فرنشسكو الأسيزى حرجاً فى أن يهتف مع السهروردى :
«ارفع ذكر النور ، وانصر أهل النور ، وأرشد النور إلى النور ! »

فنى عينيه جزع لهيف ، وفى فمه صرخة التياع ، وفى التفاتته قلق مريع . هو فى الوجد ، ولكنه وجد « الليلة الظلماء » ، تعصف بنفسه أحساس الهموم ، كأنه مرتاع من الرب الجبار القهار . فأين « الإله » الحبيب الذى حمل عنه فرنشسكو أندابه الخمسة ؟! وأين الابتسامة الحلوة التى استمدها من مغانى الأُمبريا؟!

آه ! ليس هذا فرنشسكو الذى عرفناه وأحببناه على الهضاب المزركشة وبين الينابيع الزاهية الألوان من بيروجيا حتى أسيزى Assisi . بل فرنشسكو هذا أسبانى خالص ، فيه ما فى الأسبانى من عنف وصولة وعرامة وقساوة . ولئن كان ريبرا قد أمضى عمره كله تقريباً فى إيطاليا حتى شك الناس فى كونه أسبانياً ، ونسوا أنه شاطبى بلنسى ، فقد استمد من دمه الأصيل روح فنه . ولا عجب ، فمتى غلبت البيئةُ المختارةُ الطبعَ الأصيل المنحدر من الدم ! لهذا أقدِّم هذه اللوحة فى تصويرها القاسى لهذا القديس الرقيق شاهدَ صدق وحجة دامغة لمن لايزالون فى شك وريب من أسبانية ريبرا .

وهذه لوحة أخرى : « يعقوب والقطيع » تتجلى فيها براعة ريبرا فى رسم الرؤوس والأكف ، وهذا الجو الصوفى الساحر المترجح بين الظل والنور فى نضارة تومض إيماض الفجر ؛ وتنسحب عليها مسحة

من السر الهائم فى أودية الجناب الأعلى ؛ وترن بين أضوائها نغمات عميقة التوقيع كأنها صادرة عن أرغن القداس فى مدعاوات oratorios هيندل .

ولا علينا إن تركنا ريبيرا الآن ، وستكون لنا معه ساعات عذبة طوال كنا سننفقها هنا لو بقيت آثاره كما كانت فى هذا المكان . فقد كان الاسكوريال غنياً كل الغنى بروائعه حتى بلغت الخمسين ؛ أما اليوم فعدتها خمس عشرة . وحسناً فعل بها الزمان والأحداث هذه الفعلة ، لأنها كانت خليقة أن تختنق فى هذا الدير القاسى كما تختنق أخواتها اليوم فى هذا النور السقيم والجو الرجيم . فلندعه إذن ولننقل البصر بين روائع تتسيانو: «الصلب» وباولو فيرونيزه Veronese : «الأب السرمدى والروح القدس» ، ففى ألوانها الإيطالية الزاهية الرقيقة وروعتها الحيوانية المشبوبة الإحساس ما يخفف عنا وطأة الثقل الذى نحس به فى هذا البناء .

ولننهض إلى قاعات اجتماع الكهنة salas capitulares : ففيها لوحات ممتازة حقاً : « أبناء يعقوب » لفلاثكث، و« العشاء الربانى» لتتسيانو ، وخصوصاً «القديس موريس وأصحابه» للفنان المثير الغريب : الجريكو EL Greco ، هذا الفنان الذى استطاع أن يرتفع بالظل إلى مرتبة المادة الخالقة ، وأشاع فى كل ما رسمته ريشته مساً من الجزع الكونى الحائر ، وارتفع بالواقعى إلى ما بعد الواقع ، وأفنى الخطوط فى الظلال إمعاناً فى تمويه الكيان ، حتى ليغزوك شعور واحد سائد وأنت تتأمل أشخاص لوحاته وهو أن : كل شىء وهم .

ولا سبيل لك – للتخفيف من عبء شحنات الإحساس والوجدان التى احتملتها معك وأنت تغادر هذه اللوحات – إلا أن تهرع إلى الصحن الرئيسى claustro ، وهو فناء وبستان معاً مربع الشكل ، فى وسطه يقوم معبد آنيق ترف عليه أشعة الشمس فتزيد صفرته رونقاً أخاذاً وإن لم يخل من الشحوب . والمعبد ذو طراز دورى ، تكسوه صفائح المرمر فى الداخل وأحجار الجرانيت فى الخارج . وعند زواياه الأربع الخارجية أربعة أحواض ذات درج ، وأربعة تماثيل تصور كتبة الأناجيل الأربعة صنعت من المرمر الأبيض الناصع ، وصوّر عند أقدامها رموزها : النسر والأسد والثور والملَك .

هنا فى هذا البهو لاتمل المكوث الساعات الطوال : فيه سجوٌ حنون يمزج التأمل الهادئ بالطمأنينة الناعمة ، وفيه إشراق يفتح على آفاق تتجاوز نطاق البخور والشموع والأناشيد المرتلة إلى الدنيا الحية العامرة بالمعانى الواسعة العميقة .

وانطلقتُ من البهو إلى حيث دعانى نداء الدنيا . فتركت الدير ورحت أجوس خلال القرية وأستشرف منها على الوادى المنبسط تحت أقدام جوادا راما كأنه القطة الرقشاء تعبث بأقدام غانية ذات ثوب لازوردى .

ثم عدت فى عصر ذلك اليوم أتمم الزيارة بمشاهدة القصر، وكانت الشمس قد نثرت على حجراته أطيافاً صافية من الأشعة الشاحبة ، فأثارت فى النفس شعوراً يتلاءم والجو الذى كنت على بتات الاندماج فيه : جو التقوى الرخيصة ، والزهد الملكى الفاتر ، والابتسامة المتكارهة .

نعم فى قاعات الملكة قد تلقاك ألوان براقة فى سجّادها الفرنسى ، خصوصاً قاعة پومبى بطرازها البومبى ، ورقاصها المرمرى الأبيض . لكنك لاتلبث أن تمحو هذا الأثر — الوهمى — بمجرد دخولك فى قاعات الملك فيليب الثانى ، خصوصاً فى مخدعه الخاص .

فى هذا المخدع توفى هذا الملك القاسى التديُّن ؛ توفى بعلة النقرس . وينقسم إلى ثلاث غرف : الأولى غرفة المكتب ، وفيها مكتب الملك وحافظة أوراقه وهى من المخمل الأصفر ، وصندوق فيه بعض كتبه . وفى الثانية مرقده المتواضع ، وقطع من الجلد والسجاد من صنع قرطبة ، ولوحات صغيرة تمثل أموراً دينية . وأما الثالثة فمصلى oratorio تزدان بالمرمر الأحمر والأبيض ، وبها ثلاث نوافذ تطل على محراب الكنيسة . وكان القصد بهذه الأخيرة أن تهيء للملك التقى أن يشهد القداس وهو راقد على فراش الموت ، حينما حالت أوصابه بينه وبين مقعده فى الكورس . وهل كان يلذ له شىء قدر أن يشاهد القداس ويسمع الترتيلات وهى تصاعد داعية لنجاته من علته ، أو نجاة روحه إن حم القضاء !

والأثر الذى يبقى فى نفسك يسوده الانقباض : فالبساطة هنا ليست تلك البساطة الناضرة السخية ، بل هى الضيق الكالح المنبعث عن نفس مظلمة محصورة ؛ والزهد ليس التفاتة مليئة بمعانى النبالة والأنفة ، بل هو الانحباس عن الحياة لنضوب فى قوة الإقبال ؛ والتدين عنده ، أعنى عند فيليب الثانى ، ليس إيماناً عامراً بسعة الممكنات ، بل هو عكازة يستند إليها مشلول العقل منخوب الوجدان.

أوه ! كم تنقبض نفسى لمرأى هذا الملك وأضرابه فى العبادة !

— ٣٢ —

إلى سلوى

مهزلة مصارعة الثيران

حلبة مصارعة الثيران ، ورذاذ من المطر الغليظ يسّاقط على هذا الحشد الهائل من النظارة ، فينثر قلائد الدر على وجوه الحسان اللواتى انتظمن هذا المكان ذا المعمار الأندلسى الرشيق ، تنحدر مدارجه فى سرعة أو تصّاعد حتى علو شاهق ، وتتوّجه الطنف الدائرية ذوات الأقواس العربية والأعمدة النحيلة والتيجان المزخرفة بالأربسك الأزرق والأحمر من القرميد الناعم .

والموسيقى الحنون تفتتح الشوط الأول بأنغام تأتلف وهذا الهندامَ المزركش الذى ارتداه الفرسان والمصارعون وأعوانهم : الفريق الأول بأثواب من المخمل الأسود المفوّف بالقصب الذهبى ، والفريق الثانى فى بزات تشبه بزات رجال البلاط والحاشية فى قصور الملوك فى العهود الزاهرة ؛ والأخيرون فى أثواب حمر زاهية خشنة . واستعرض الأولون لوناً من مظاهر الفروسية الراكضة على توقيع لايخلو من بهجة وحمية .

ثم أقبل الثور هائجاً يعدو على غير هدى ، فتلقاه مصارع يحمل الرداء الأحمر الذى سرعان ما أهاج الثور فاندفع ينطح الرداء ، والمصارع يتلاعب بالرداء ذات اليمين وذات الشمال إغراءاً للثور به ، فيهجم هذا ليرتد عما قليل خائباً مدحوراً ، والمصارع رابط الجأش وكأنه يداعب

طفله ويراقصه . والقوم في الشرفات يضجون ويصفقون ويهتفون لهذا المصارع لما أبداه – في نظرهم – من براعة في المناورات والمداورات !

وهنا يبدأ الغدر والخيانة . فالثور قوى البدن ، مرهف القرون ، شديد الأسر ، فلا يملك المصارع له أخذاً ومقتلا . فما السبيل إليه ؟ هنا يدخل راكب على فرس مفرط الهزال والقبح ، وفي يده رمح ينتهي بسن مدببة حادة جداً ، ويأتي الثور من خلفه أو من جانبه حينما يهجم الثور على الفرس المسكين ويكاد يصرعه ، يُقبل الراكب على الثور ويطعنه بالرمح المرة بعد المرة ، والكرة تلو الكرة ، بنذالة وجبن حتى يجرحه في كتفه أو سلسلة ظهره جرحاً بالغاً ، فيمهد الطريق للمصارع – المزعوم – كيما يصدع الثور المغدور به .

أوه ! كم ثارت نفسي على هذا الراكب (ولا أقول : الفارس ، فهيهات أن تنسب إليه الفروسية !) ، وكدت أصيح في وجهه منذ أن بدأ فعلته الشنعاء : مكانك أيها الغادر النذل !

ومن هذه اللحظة بدأت خيبة الأمل تستولي على نفسي ، ماذا أقول ! بل امتلأت نفسي رحمة للثور ، وحنقاً على أولئك المصارعين الأوغاد.

فالدم النجيع يتدفق بغزارة من الجرح الظالم ، والثور مع ذلك يتحامل على قوته الباقية ويهجم ذات اليمين وذات اليسار ، حتى أفلح مرة في أن تفتك قرونه بالمصارع الذي كاد أن يخلو له الميدان . بيد أن أعوانه سرعان ما اجتذبوا الثور بتهاويل الأردية الحمر حتى انصرف عن مصارعهم . حاور المصارع وداور في مناورات لا تخلو من تشويق ؛ لكن أتى الثور مصارع أو بالأحرى معاون للمصارع فأفلح في أن يطعن الثور عند الجرح بسهمين مزركشين ، وعاود غيرُه الكرةَ فغرس

سهمين آخرين ، مما زاد فى إيلام الجرح وأعان على استهلاك قوة الثور البائس ، حتى كادت أن تنفد .

فلما أوشكت هذه القوة على النفاد أقبل المصارع يختال كرّة ثانية بهندامه المقصب الذهبي وجواربه البيض وقامته القصيرة ورقته كأنه لاعب مسايف فى حلبة أنيقة . وأعاد المناورات والمداورات بتلك البراعة المملولة التى لم أفهم لها معنى ، حتى استطاع بعد محاولات فاشلة جزع لها أشد الجزع أن يطعن الثور بمدية طويلة مرهفة استقرت فى ذلك الجرح الدامى فكانت على الثور قاضية . وهنا تعالى الصياح والهتاف ، وأقبل المصارع – الظافر ! – على الجمهور يحييه ويناجيه نشوان بحميا الانتصار الموهوم ، متلقياً الأزهار من الأكف الناعمة ، والقبعات وما أشبهها من الأكف الغليظة ، فيزداد غروراً وتبذخاً ، وهو لا يعلم أنه سليل دون كيخوته فى مبارزة أشباحه الموهومة .

وشاهدت ثلاث جولات ، لم يقو صبرى بعدها على الاستمرار فى المشاركة فى هذه المهزلة الرخيصة ، فخرجت من الحلبة ونفسى مثقلة بالخواطر :

أين ترى الشجاعة والشهامة والشرف فى هذه المصارعة التى احتفل لها القوم كل هذا الاحتفال ؟

لو كان المصارع وحده وجهاً لوجه مع الثور ، لكنا قلنا إن فيها شجاعة . سيقول قائلهم : « أليس فى هدوء المصارع وإخوانه وبراعته فى المداورات ما يحمل على الإعجاب ؟ إن العبرة فى الأمر كله برباطة الجأش ، وتملك النفس لكل إرادتها ، وسيطرتها على حواسها

وقواها ، وحشدها لانتباهها فى مواجهة الثور الوحشى . فإن كان المصارع قد حقق هذا كله ، فما معنى هذا التثريب ؟ »

وما أنا بالمنكر لهذا الفضل لو اقتصر أصحابه عليه . لكن عملية المصارعة لاتنتهى عند هذا الحد ، بل لايكاد هذا القسم يشغل منها إلا الاستهلال ؛ وأنا مقرٌّ بأن ها هنا براعة فى الاستهلال ، لكنها شىء والمصارعة شىء آخر . المصارعة تقتضى مصرع الثور ، ومصرع الثور لم يتم إلا بعد تضافر عدد وفير من المصارعين والأعوان على استنفاد قوى هذا الحيوان البائس ؛ ولم يتحقق إلا بعد غدر آثم لن يبرره ناموس من نواميس الشهامة والفروسية ، مهما يكن وضيعاً . وما عرفنا فى تاريخ الفروسية بطلا استعان بالحشد والأعوان وهيان ابن بيان من أجل أن يصرع أسداً ، ناهيك بأن يصرع ثوراً . والقوم برغم ذلك يهتفون للمصارع وكأنه مصارع بطل فارس مغوار حقاً! وهذا « المغوار » الهزيل يحسب هتاف القوم حقاً، فينفخ الغرور أوداجه. وهنا دواعى الاشمئزاز والنفور والانقباض .

لكم أن تقولوا عن هذه المصارعة إنها وسيلة لتصريف الهموم المكبوتة فى هذا العصر ، وعند الأسبان بخاصة ، هموم الدم والقسوة والخسة والخديعة والمغامرة ؛ وكأن فيها عملية تطهير κάθαρσις أرسطية.

ولكم أن تعدوها ذكرى هزلية لعهد الفروسية الزاهر ، وفى نفوسكم جميعاً حنين غامض إليه ، بله إلى عودته وإن كذب لسانكم .

ولكم أن تنشدوا فى الحفل معرضاً للتباهى بالأزياء والألوان : الغوانى بفتنتهن المثيرة، والتى تزداد إثارة على منظر الدماء، وهندامهن

الأنيق ، ومراوحهن الزاهية الرائعة الألوان ، ونظراتهن المتشوفة بلهفة إلى الرجولة الشامخة ممثلة فى أولئك المصارعين ؛ والرجال بألوان السيجار الضخم الطويل الذى أصابنى بكل دوار ، وبالقبعات الزاهية ، وبالدم الفائر الثائر مع الفارس حيناً ومع الثور حيناً آخر .

لكم هذا كله ولا تثريب عليكم ، فدواعى الهموم النفسية من التعقيد بحيث تتلمس كل مجال .

لكنى أستحلفكم بالله ألا تعدوا مصارعة الثيران من الفروسية فى شيء ، أعنى من الشجاعة والشهامة والشرف .

— ٣٣ —

إلى سلوى

مواكب أجدادى والفن فى طليطلة

دخلت طليطلة بين مواكب الألوان ومواكب الأشجان .

سهوب من الرمل القانى تتراءى كأنها أمواج من الجمر المتقد ، تتخللها أفواف من الصفرة الكابية فى مجراها يسبح الحصى الرقيق .

اتقدى ياسهوب ، فقلبى عامر بفرحة الماضى العريق !

واصفرّى يارمال ، فذكرى آبائى الأمجاد تشيع الحسرة فى خاطرى الحزين !

وجلجل يا نهر التاجه Tajo ، فكم ارتوى منك أجدادى الظماء إلى المجد العالى والسلطان الأثيل !

واشمخى أيتها الأسوار المنيعة ، فكم انكفأتْ دونك أعناق الأعداء !

واتلى سُوَرَ الماضى أيتها الأحجار والأزقة والأبواب !

ورددى أنغاماً فقدت أوتارها أيتها الأسماء الحبيبة : جسر « القنطرة » El Puente de Alcantara وبـاب الشمس Puerta del Sol و « القصر » El Alcazar ... فاللغة الجميلة التى ترددت على ألسنة القوم ثمانية قرون لاتزال ترن فى هذه الأسماء ولا تزال كلماتها : « لا غالب إلا الله » تنقش على الأسلحة وأدوات الزينة التى مهرت فيها هذه المدينة العريقة !

إنك تتحدثين جميعاً بلغة رفيعة لا يفهمها من الجماعة التى رافقتها فى هذه الرحلة ، أقول لا يفهمها منهم سواى .

نزلنا من الحافلة ، وكاهلى ينوء بالهموم ، فدخلت المدينة من بابها الذى يدعونى وكأن كتب عليه : « ادخلوها بسلام آمنين » ، أعنى باب الشمس : فطرازه العربى وصناعته العربية كل أولئك يبعث فى النفس أنبل الذكريات وكان بيدى دليل(١) عنوانه : « يوم فى طليطلة » مافتحتُه — شأنى فى زياراتى — حتى وقعت منه عند هذا الموضع على هذه المناجاة الجميلة التى تخيل مؤلفه أن هذا الباب يناجى بها. الداخلين :

« أنا « باب الشمس » المشهور . بهذا الاسم دعونى لأن الشمس تلقى علىَّ كلَّ يوم تحيتها الأولى ووداعها الأخير .

بنيتى إسلامية ، ولكن روحى نصرانية . بنيتى إسلامية لأن اليد التى شيدتنى يد مسلمة ؛ وروحى مسيحية لأن الملك الذى أمر بانشائى ملك مسيحى ، هو ألفونسو السادس .

لقد نفخ هذا الملك فىَّ من روحه كيما أحمى المدينة التى استردها منذ قليل . والعرب الذين لم يفروا — المدجَّنون — أعارونى صناعتهم لتزدهر المدينة التى فقدوها منذ قليل » .

يا ويلتاه ! هذه العبارات اللاذعة غارت فى قلب ماضيَّ فنكأت جراحاً نُجْلاً ظلت تنزو طوال ذلك اليوم، فانكسر شعاعها الدامى على نظراتى وتأملاتى والآثار التى خلفتها مشاهداتى الفنية فى هذه المدينة الغنية كأنها متحف حى.

والباب بناء شامخ متكتل متين ، ولكنه على ذلك أنيق عليه

---

(١) P. Riera Vidal : Un dia en Toledo, p. 26 Madrid, 6°1949.

طلاوة ولا يخلو من الرشاقة والحلاوة . ويتألف من طابقين متمايزين : السفلى يتصل بالسور والعلوى يعلو عليه : فالتكتل فى السفل يناظره ويخفف منه الرشاقة فى العلو. فهذا القسم الأعلى برجان قويان بينهما جدار متين مؤلف من ثلاثة طوابق السفلى منها أكبرها والأوسط أوسطها : وهذان تبرز فيهما سلسلة من الأعمدة البارزة فى البناء من طراز مدجن mudéjar أى مزيج من العربى الأصيل والأسبانى الجديد بعد استرداد أسبانيا، ولفظة «مدجن» معناها: «دافع الجزية» فكان يطلق على المسلمين الذين بقوا تحت الحكم المسيحى بعد فقد العرب لأسبانيا وكانوا يدفعون جزية لملوك النصارى الأسبان . وأعمدة القسم الأسفل مكتملة الأقواس ، أما القسم المتوسط فأقواسه مؤلفة من فجوات فى البناء على هيئة أقواس ، قريبة الشبه من المقرنصات فى مداخل المساجد ، كما فى مدخل مسجد السلطان حسن بالقاهرة . أما القسم الأعلى فحلو من التحلية ، لكن تعلوه رؤس ثلاثة فى تماثل مع بقية الرؤوس التى تعلو البرجين القائمين على كلا الجانبين . والجدار المتوسط أقل علواً من البرجين الجانبيين ، وهذا من شأنه أن يشيع الانسجام الرشيق والتماثل symétrie فى القسم الأعلى من هـــذا البناء. وفى هذا القسم الأعلى من البناء فى جانبى البرجين نوافذ بعضها حقيقية، وبعضها كاذبة ، حتى يخف تأثير التكتل الضرورى فى هذا المعمار الذى قصد به إلى الدفاع والمناعة ، قبل الأناقة والمتاع الفنى .

دخلت من الباب وبقيت برهة أجلى ببصرى إلى أقواسه الأربع المتوالية: فالأولى والثالثة محدودبتان فى اقتراب بعض شىء من القوس

القوطية ، والثانية والرابعة عربيتان مستديرتان تمام الاستدارة. ولا عجب ، فالمحدودبتان من طراز عربي عريق ، والمستديرتان من طراز مهجن ، لأنه مُدَجَّن .

وفى الجدار القائم فوق القوس الثانية نوط كبير يصور ، منقوشة فى الحجر ، أسطورة الشمس والقمر ثم أسطورة نزول العذراء .

* * *

وعبرت الباب مهموماً وأنا أردد فى نفسى : متى ندخل هذا الباب من جديد فاتحين ! !

ومضيت أضرب فى طرقات المدينة الساكنة أفتش عن آثار أجدادى . فمررت أول ما مررت بكنيسة سنتياجو دل أرابال Santiago del Arrabal ، وهى كنيسة عتيقة ، من طراز عربى خالص فى بنائها وبرجها ورواقها الخارجى : فهذه النوافذ ، وبخاصة نوافذ البرج ، عربية خالصة ، وهذا البرج عربى النّجار ، وإن عبثت به روح مدجنة .

ثم خلفتّها عن شمال ودخلت من باب فالمردون Puerta de Valmardón وإذا بى أمام مسجد عربى عتيق ، استحال يوماً إلى كنيسة دعوها « مسيح النور » El Cristo de la Luz .

الكنيسة مهجورة ، لايذكر فيها اسم الله الواحد أو الله الثالوث . إنمـــا هى أثر من آثار المعمار برم بالصورة الجديدة ولم يستطع العود إلى أصله الإسلامى ، فظل وحيداً لايدرى إلى أى أصل ينتسب. لكنك لاتكاد تقترب منه ثم تدخله حتى تجد كل ما فيه يصرخ بعنف :

« أنا مسجد برغم ما تفعلون بى ؛ هذا صحنى ! وهذا محرابى ؛ هذه أعمدتى وأساطينى بصفوفها الرهيبة ، هذا مدخلى وهذا تخطيطى ، بل هذه نقوشى كلها آيات بينات من القرآن ، فبأيها المنكران ، بأى آيات معمارى إذن تكذبان ؟ ! »

* * *

ثم انفتلت عن المسجد والكنيسة اليهودية من بعده إلى كعبة أحلامى فى طُلَيْطُلَة : إلى بيت الجريكو !

إلى هنا حمل الشرق البيزنطى تهاويله الذهبية ليهب الثِّقْلَ القوطى رشاقة وردية الجناح .

وهذا يفسر لماذا لم يفهم فيليب الثانى ، ذلك الملك الجاف الغليظ ، روح هذا الفنان الذى دعاه : فأين كثافة الطبع فى هذا العاهل القاسى من لطافة الروح عند ذلك الساحر الذى طوف فى ملكوت الخيال !

وُلِد الجريكو كما لقبوه ، أى « اليونانى » ، واسمه الحقيقى دومنيكوس ثيوطوقوپولس Δομενικος Θεοτοκοπουλος فى قرية صغيرة تدعى فوديله Phodêlé بالقرب من قنديا فى جزيرة اقريطش (كريت) سنة ١٥٤١ ، من أسرة توشجت أعراقها فى هذا الصقع ، وإن كان البعض يرد موطنها الأصلى إلى بيزنطة أو إيبيريا نفسها . وكم من فروض زاهية أبدعها خيال المؤرخين ليجدوا لهذا الفنان الشارد أصولا مكللة بغار الجاه والثراء ، حتى افترض ك. قنسطنيوبولس — وقد عثر على خاتم من الرصاص (من القرن الخامس عشر) فى متحف النقود بأثينا نقش

عليه اسم مانويل من أسرة ثيوطوقوس – افترض أن تكون أسرة ثيوطوقوبولس قد انحدرت من أصلابها ، وأن رئيس هذه الأسرة قد هاجر إلى كورفو عند سقوط الامبراطورية البيزنطية ، وأن فرعاً من هذه الأسرة قد توطن فى اقريطش ؛ – فياله من فرض ينوء بأثقال نفسه !

وقرية فوديله فُرْضة وادعة تغتسل بالماء الأزرق البراق وتستضحى للشمس الدافئة ، فتشيع فى أهلها أطيافاً من الحلم الساجى الذى لا يعكر صفوه إلا كابوس المغامرات إبان صيد الأسماك ، حتى إذا عادوا من صراعهم مع نبتون Neptune استغرقوا فى كسلهم الوسنان وهو يرفو ماتخرق من شباك أو زوارق. والنساء الشاحبات يعصرن الزيتون أو يدرن المغازل والمناسج التى تشهد ببراعتها الأقمشةُ الاقريطشية ذات الزخارف الدقيقة الوحدات .

وفى هذه التربة التى يحلق على أكنافها جبل إيدا المقدس وُلِدَ زيوس رب الأرباب ، فشاعت روحه فى نفوس أبناء الجزيرة . فمهما تقلبت عليهم الطقوس ففيهم ترقد حماسة دينية ونزعة صوفية لاتقنع بغير المطلق . فسواء عليها انطوت فى أسرار الوثنية الرائعة التى اتخذت عرشها على قمة الأولمب ، أو استجابت لنداء الإحسان المجلجل فى حنجرة القديس بولس ، أو سيطر على مصيرها السلطان سليمان وهو يهز بيمينه لواء الهلال ، فان من وراء هذا كله تحيا روح من التقوى الحارة المستسلمة لتهاويل الطقوس .

ونشىء الفتى فى دير من تلك الأديرة المتناثرة التى تستمد وحيها

من دير جبل أثوس بمجاهداته القاسية وزهده الغليظ . ولم يخفف من هذا كله إلا أيقونات القديسين يرف ذهبها فى وهج يشب فى النفوس الحالمة لهيب التسامى . فلعله أن يكون قد استشعر آنذاك رسالة الفن ، فأقبل ينمى هذا الشعور الدفين بالتردد على المراسم التى سادتها تقاليد التصوير البيزنطى بزخارفه الذهبية وروحه الكابية وتهاويله الشاحبة الزاهدة . ولكن مدرسته الحقيقية كانت تلك الأطلال الشاهدة على مجد الحضارة المينوسية الزاهرة ، وهى أطلال وآثار كان يلقاها قاطن الجزيرة فى كل مكان وتحت قدميه . فالفلاح الذى يشــق التربة بمحراثه إنما يشق أخاديد تناثرت على حفافيها الأوانى الفخارية العتيقة والأختام الصدئة والدمى التى تصور الآلهة والأبطال . فكان هذا المتحف الحى فى الطبيعة المكشوفة الرائعة خير شيخ تلقى منه الفتى دومنيكوس خرقة الفن الرفيع : فجمع بين الفن المسيحى الشاحب المغرق فى التهاويل البعيدة عن الواقع الحى ، وبين الفن الوثنى المينوسى ذى الخطوط الطويلة الدقيقة. لكن غلب عليه الجانب المسيحى فتأثر فن الإيقونات ، هذا الفن الذى استأنف ازدهاره بعد عودة عبادة الصور فى عام ٨٤٢ ، ونما وتطور فى اتجاهه الأصيل نحو الترفع عن الواقع فى التشريح والتكوين وعدم الاكتراث للمنظور . فلم يعد الفنان يعنى بالتشابه الحقيقى بين الأيقونة وبين الشخص الذى تمثله ، بل كل همه أن يقدم صورة تتسم بالقداسة الصارمة والتهاويل الخارقة ، فان الأشخاص رموز والحقيقى هو المعنى المنطوية عليه ، وهذا المعنى ينبع عندها من أوهام الفردوس الذى تخيلته لنفسها . وعندنا فى الفن القبطى المصرى خير نموذج لهذا

الفن البيزنطى المسيحى الذى غادرته حياة الأرض وجرت فى عروقه دماء السماء .

وفى هذا التحليل للفن البيزنطى المسيحى بعض التفسير للأسلوب الغريب المحير الذى اتخذه الجريكو فى التصوير : فلوحاته خالية من المنظور الحقيقى ، وأضواؤه وظلاله تثير الرعب لبعدها عن الواقع الحى ، وخطوطه قاسية تنبض بالزهد الغليظ ، ونظرات العيون فى شخوصه فيها ثبات نفاذ يدفع بالناظرين فيها إلى رهبة جاهدة تثير القلق المستوفز ، الممزوج بالحركة المشلولة ؛ واستطالة الوجوه والأعضاء هى إمعان فى تطبيق مبدأ الإيقونات فى البعد عن الواقع التشريحى وتصوير الحركة الباطنة المستوية على عرش العالم الآخر ، أو العالم الخارق غير الطبيعى . فهذه اللمحات التى تميز فن الجريكو هى من وحى فن الأيقونات البيزنطية ، ما فى ذلك من ريب ، حتى ليخيل إلىّ أنه لو بقى الجريكو فى مسقط رأسه ، ولم يتأثر الفن الإيطالى ثم الطبيعة الأسبانية لبقى فى عداد الفنانين البيزنطيين الخلّص .

هذا الفن الإيطالى قد عرفه الجريكو لما أن غادر وطنه قاصداً فينيسيا ، فينيسيا عروس الأدرياتى التى كان دوقاتها يبعثون بالحملات البحرية على الجزر اليونانية ، ومنها اقريطش ، فتنال منها ما تنال ؛ وكانت آنذاك فى أوج ازدهارها السياسى والحضارى . يتربع على عرش الفن فيها ذلك العملاق الفنان الأعظم . تسيانو Tiziano ، وكانت شهرته تشع فى شبه الجزيرة الإيطالية وجزر البحر المتوسط . وكان طبيعياً أن تطرق هذه الشهرة مسامع الجريكو على ألسنة الرحالة اليونانيين

من تجار ورجال دين . فارتحل الفنان الشاب إلى مدينة البندقية فى الفترة ما بين ١٥٦٠ و ١٥٦٥ ، وأقام فى الحى اليونانى القديم ، حى سان جورجيو حيث كان الفنانون والصناع اليونانيون الوافدون من اليونان قد ألقوا رحالهم منذ قرون .

وفى ظل فن تتسيانو الجامع بين القداسة العالية كما فى لوحة تجلى العذراء Assunta الموجودة فى كنيسة الفرارى Frari بالبندقيـــة ، وبين الشهوانية البضة المشبوبة كما فى « فينوس الراقدة » التى يزدان بها متحف الأوفتسى Uffizzi فى مدينة فيرنتسه ؛ وفى ظل تلاميذه من أمثال تنتورتو ، رسام البنـــدقية ، وبسانو وبلما Palma ، فى ظل هؤلاء جميعاً ترعرع الفنان القندياوى ونمت فى أجنحته محركات التحليق الجبارة . فاتخذ موضوعات تصويره متأثراً بأستاذه الأكبر تتسيانو . فكما تجلى فن هذا الساحر الأعظم فى لوحة « التجلى » بكنيسة الفرارى Frari ، كذلك كان أول عمل ممتـــاز قام به الجريكو غداة وصوله إلى طليطلة هو لوحة فى الموضوع نفسه . « تجلى العذراء » . رسمها لحساب كنيسة سانتو دومنجو القديم Santo Domingo el Antiguo لتوضع فوق مذبحها الرئيسى .

ولسنا ندرى كم من الزمن أمضى الجريكو فى مدينة البندقية ، وما هى اللوحات التى رسمها إبان إقامته بها . وكل ما لدينا هو رسالة توصية وجهها كلوفيو Clovio إلى الكاردينال ألسندرو فرنيزى Alessandro Farnese يوصى فيها خيراً بهذا « الفتى القندياوى ، تلميذ تتسيانو » ، وهى رسالة بتاريخ نوفمبر سنة ١٥٧٠ . ثم إشارات

وردت فى « يوميـات » منتشينى Mancini الطبيب الخاص بالبابا أوربانو الثامن حيث قال : « فى عهـد بابوية بيوس الخامس المقدس الذكر، وفد إلى روما ، ونال بها شهرة كبيرة ، ولقب عامة بلقب : « الجريكو » . وهذا الفنان ، الذى درس فى فينيسيا وتعمق دراسة فن تتسيانو ، قد بلغ شأواً عالياً فى فنه وأسلوبه الخاص . ومن ثم ارتحل إلى روما ، فبلغها فى فترة لم يكن فيها كثير من الفنانين ، ومن كان فيها لم يبلغ فى أسلوبه هذا التثبت وهذه البراعة المرهفة اللذين تميزت بهما طريقة الجريكو . وازداد جرأة فى الصناعة نتيجة النجاح الذى ظفر به عن طريق ما كلفه به بعض الخاصة من لوحات . ونحن نعرف واحدة منها ، توجد الآن عند جار المحامى لنشلوتى Lancillotti وهى لوحة حسبها البعض أنها من صنع تتسيانو . وحدث أثناء العمل فى تغطية بعض الشخوص المرسومة فى الرسم الجدرانى الذى رسمه ميكلنجلو بعنوان : « يوم الحساب » — تغطيتها لأن البابا بيوس الخامس وجدها متجافية مع الحياء بحيث لا يليق عرضها فى هـذا المكان ، — نقول : حدث أن صرح الجريكو فجأة قائلا : لو حطمتم الرسم الجدرانى كله ، لرسمت لكم رسماً آخر بدلا منه يكون أليق وأعفّ ، دون أن يقل عن رسم ميكلنجلو قيمة فى التصوير . وكان هذا القول مبالغة لم يحتملها واحد من الرسامين ومحبى الرسم ، فرأى صاحبه (أى الجريكو) نفسه مرغماً على الهجرة من روما والارتحال إلى أسبانيا» .

وأهمية هذا النص لا تصاب لها قيمة . فهو يدلنا أولا على مهارة الجريكو فى التصوير إلى حد جعل الناس يحسبون لوحاته من صنع

تتسيانو ، ويدل ثانياً على مدى تأثره بهذا الفنان الفينيسياوى العظيم ، ويكشف لنا ثالثاً عن رأيه فى فن ميكلنجلو ، وهو رأى طالما ردده من بعد حتى قال يوماً لبتشيكو Pacheco : «إن ميكلنجلو كان رجلا طيب القلب ، لكنه لم يكن يعرف كيف يرسم» ! ! ! ويدلنا رابعاً على المدة التى أقامها الجريكو فى مدينة روما وقدرها عامان ، ما بين نوفمبر سنة ١٥٧٠ ونهاية سنة ١٥٧٢ ، إذ توفى البابابيوس الخامس فى هذا التاريخ الأخير . وأخيراً يكشف لنا هذا النص عن أسباب هجرته من روما وارتحاله إلى أسبانيا ، حيث ضاق بأهل الفن فى روما وضاقوا به ، فلم يكن أمامه إلا أن يرحل .

إلى أين يجب أن يرحل ؟ — لقد كانت أسبانيا فى ذلك العهد فى أوج قوتها السياسية ، وكان لها نفوذ سياسى على إيطاليا قرنه فيليب الثانى بنفوذ فنى ، إذ اجتذب هذا الملك الغريب إلى عاصمة ملكه الفسيح فى مدريد خيرة الرسامين والنحاتين فى فيرنتسه وفينيسيا وبولونيا وروما . وتصادف أن كان فيليب الثانى يعنى فى ذلك الحين بتجنيد خير المواهب ليجعل من الاسكوريال تحفة نادرة المثال — فى نظره هو ؛ وكان كلوفيو المذكور آنفاً من بين الموردين الرسميين لفيليب الثانى . فلعله أن يكون قد أشار على صاحبنا الجريكو بأن يسعى إلى أسبانيا ليجرب حظه فيها .

غادر الجريكو مدينة روما حوالى سنة ١٥٧٥ ، وسرعان ما بلغ مدريد . لكنه ما عتم أن ارتحل عنها إلى مدينته الحقيقية ، إلى طليطلة التى خلق لها وخلقت له .

* * *

ذلك نبأ هذا الاغريقيّ الساحر الذى جئت ها هنا أقتفى آثاره ، كنت أردده لنفسى وأنا أخطو مصعداً فى الدرب الضيق المؤدى إلى بيته ؛ ودخلت البيت الأنيق ببهوه الرشيق ومطبخه الفريد .

فى الطابق الأول شاهدت طائفة من الرسوم بعضها لثوربران Zurbaran وفلثكث Velazquez وموريليو Murillo وبنتوخا Pantoja ، وبعضها الآخر لصاحب الدار :

وكانت الشمس القائظة فى أيلول تزيد من حرارة الأحلام الزاهية التى يبعثها البستان القائم فى وســط البيت ، وتزيد من أعماق الأسرار التى تنطوى عليها الآبار العميقة المحفورة فى البستان إلى غور بعيد ، وكان القوم يزعمون أن صاحب البيت الأصيل ، وهو المركيز دى فليينا Marqués de Villena ، يجــرى فيها عمليــاته فى السحر وصنعة الكيمياء ؛ أو لم تكن طليطلة مدينة السحر والقبالة اليهودية وما ينطوى فى أعماقها من نزعة سحرية يهودية !

والحق أن بيت الجريكو يغمره الجو الشرقى العالى بأحلامه وأوهامه ، بأسراره وأغواره ، بتهاويله وأشباحه الرهيبة .

فانطويت على نفسى أتنفس كوامنها المشبوبة . ويممت شطر كنيسة القديس توما Santo Tomé ، مخترقاً طرقات تلفعت بالأسرار وعلتها شرفات تنثر عليك ورد الشوق إلى الغوانى اللواتى ألهبت أجسادهن حرارة الحب العامر بالإيمان . ولكم تمنيت أن أقطن هذه البلدة السحرية وأن أحمل القيثارة كل مساء لأعزف عليها مقطوعات الأماسى serenatas للعيون النجل السود التى مزقت فؤادى فى هذه الشرفات !

ودخلت الكنيسة فألفيتها تتثاءب ظلمة دامسة لا يهدى المرء فيها إلا أنوار الشموع الحزينة وهى تحيط بلوحة الجريكو الخالدة ، اللوحة التى تمثل دفن الكونت دى أورجاث Entierro del Conde de Orgaz وقد رسمها الجريكو فى سنة ١٥٨٦ ، لما أن طلب منه راعى كنيسة القديس توما أن يصور أحد الذين ساهموا أجل مساهمة فى خير رعاياه . واشترط عليه فى العقد — الذى لايزال باقياً حتى اليوم — أن يصور القديس أوغسطين والقديس اصطفان يهبطان من السماء ليتوليا بأنفسهما دفن هذا الغنى الصالح : أحدهما يمسك برأسه ، والآخر بقدميه ، ويرقدانه فى مرقده الأخير . ومن حولهما جمع حافل يشهد هذه المعجزة التى شاركت السماء بملائكتها ، والعذراء وابنها فى الاحتفال بإنجازها .

والصورة مزيج من فرحة السماء واكتئاب الأرض . ولولا الجو المعتم الذى يستقبلك فى الكنيسة لبدت لك فى ألوان وردية ؛ لكن جو المكان والشموع المحيطة توحى بجو الموت . ذلك أن فى السماء عيداً تربع على عرشه يسوع الرافل فى أثواب البهاء وأمه عن يمينه ، وتحف به الملائكة المقربون يسبحون وينشدون أناشيد الرجاء . أما القديسان أوغسطين واصطفان فهما يرفلان فى ملابسهم الدينية الفاخرة الزاهية الألوان ، وعلية القوم يشغلهم جلال المعجزة عن رهبة الموت ، وكأنهم فى مؤتمر أو حفل دبلوماسى فاخر .

ولم ينس الفنان أن يصور نفسه ، فيما يقال ، بين هذا الجمع . فهو الشخص السادس إذا عددت من اليسار ، فوق رأس القديس

اصطفان . وأن يصور ابنه خورخه (جورج) الواقف فى المستوى الأول للصورة عن يمين القديس اصطفان . وياله من طفل رائع ! فيه رقة ، وفيه مع هذا وقار .

واللوحة بعد هذا سيمفونية من الألوان ، وإن لم تتكون إلا من لونين اثنين فحسب : الأبيض والأسود ، أو بالأحرى : الظل والضوء ، وإن شاب الثيابَ بعض الأزرق والأحمر والرمادى . وهذه هى البراعة الكبرى فى فن الجريكو : فهو خير من أفاد من الظل والضوء فركب منهما أبدع الألوان .

أجل ! لكم تمنيت أن أمضى سحابة اليوم فى تأمل هذه الرائعة ! لكن النهار يستحثنى على الإسراع حتى أتم زيارة آثار هذه المدينة . فغادرت كنيسة القديس توما وفى نفسى شىء لاينتهى من الجريكو .

ودلفت مغموراً بإحساس متواثبة إلى الكاتدرائية الكبرى ، فخر طليطلة والفن القوطى الأسبانى عامة فى نظر أهلها . أما أنا الذى طالما شاهدت القوطى الصافى فى شارتر وأميان ونوتردام دى بارى ، فقد تلقيت آثارها فى نفسى ببرود يبلغ حد عدم الاكتراث. فأين هى من كاتدرائيات تلك البلدان ، وأين هى من كاتدرائية كيلن فى ألمانية بل والدومو فى ميلانو ! ثم ما هذه الوفرة الهائلة من الزخارف والنقوش التى تلمس البصر وتشوش النظر فى السكرستيا وفى المذبح الكبير ! إن جوهر الفن القوطى فى الرشاقة ووفرة النور لتكون الكاتدرائية دعوة حارة تصاعد مضيئة إلى السماء أو اللامتناهى ؛ وهذه الكاتدرائية فى طليطلة تعمرها

الظلمة الغليظة وكأنها كهف سحيق رهيب تتلألأ فيه الأوانى الكنسية الذهبية والفضية كالشموع الضالة فى أعماق المغاور . ثم اللوح retablo الذى يستند إليه المذبح الكبير ، ما هذا الإسراف فى نحوته ، ونحن هنا فى كنيسة قوطية !

الحق أن كاتدرائية طليطلة خليط عجيب يكشف عن اضطراب نفسى هائل وفقدان الإحساس بالنسب ، حتى ليخيل إلىّ أنها فُسَيفِساء تجمعت مواده من كل مكان بلا تميز ولا اختيار . ولهذا لم يسترع اهتمامى فيها إلا بقايا الفن العربى الغرناطى فى بعض مناحيها : فى ضريح يوجد فى كابلة سان يوخنيــو Capilla de San Eugenio ، وفى الأقواس القائمة فى القسم الأعلى من متقاطع transept الكاتدرائية .

لهذا سرعان ما ضقت بها ذرعاً وإن كنت لم أدع فيها ناحية إلا زرتها وعرفت الكثير عنها ، تحصيلا لا تذوقاً ؛ ولولا أنى استروحت نسائم الفن العالى فى واجهة الكاتدرائية ، وبخاصة فى برجها المتوج بما يشبه تيجان المآذن الأندلسية ، لغطت أبخرتها القائمة على الأضواء الصافية التى تسربت فى خلايا نفسى بتأثير فن الجريكو .

نعم ! طليطلة هى مدينة الجريكو وحده ، وماعداه فضوضـــاء وضباب . ضوضاء وضباب أردت أن أتحلل منهما ، فمضيت إلى الروابى ذوات البساتين العاطرة التى طالما مجدها شعراؤنا ومؤرخونا ، والتى يسمونها بالأسبانية los cigarrales ، وتنسمت عبــير الرَّتم ، ورحت أسبح بخيالى فى الماضى العريق الذى كان لأجدادى فى هذه المدينة ، أدخلها مع طارق فى يوم أغر من السنة الثانية والتسعين للهجرة ،

متعقباً العدو الهارب حتى وادى الحجارة ، ثم أحيا أعذب الأمانى التى لن يبددها إلا يوم مشئوم فى منتصف المحرم فى عام ٤٧٨ هجرية يوم أن دالت عنها دولتنا .

ولم ينتزعنى من خواطرى وأحلامى إلا مصرع الشمس تشيعها النواقيس وتسير فى موكبها فتيات التاجه .

— تم —

مطبعة مصر ٢٠٠٠/٥١/١٧٢



كنيسة سان سلپيس فى باريس



اوتيل بيرون ، متحف رودان



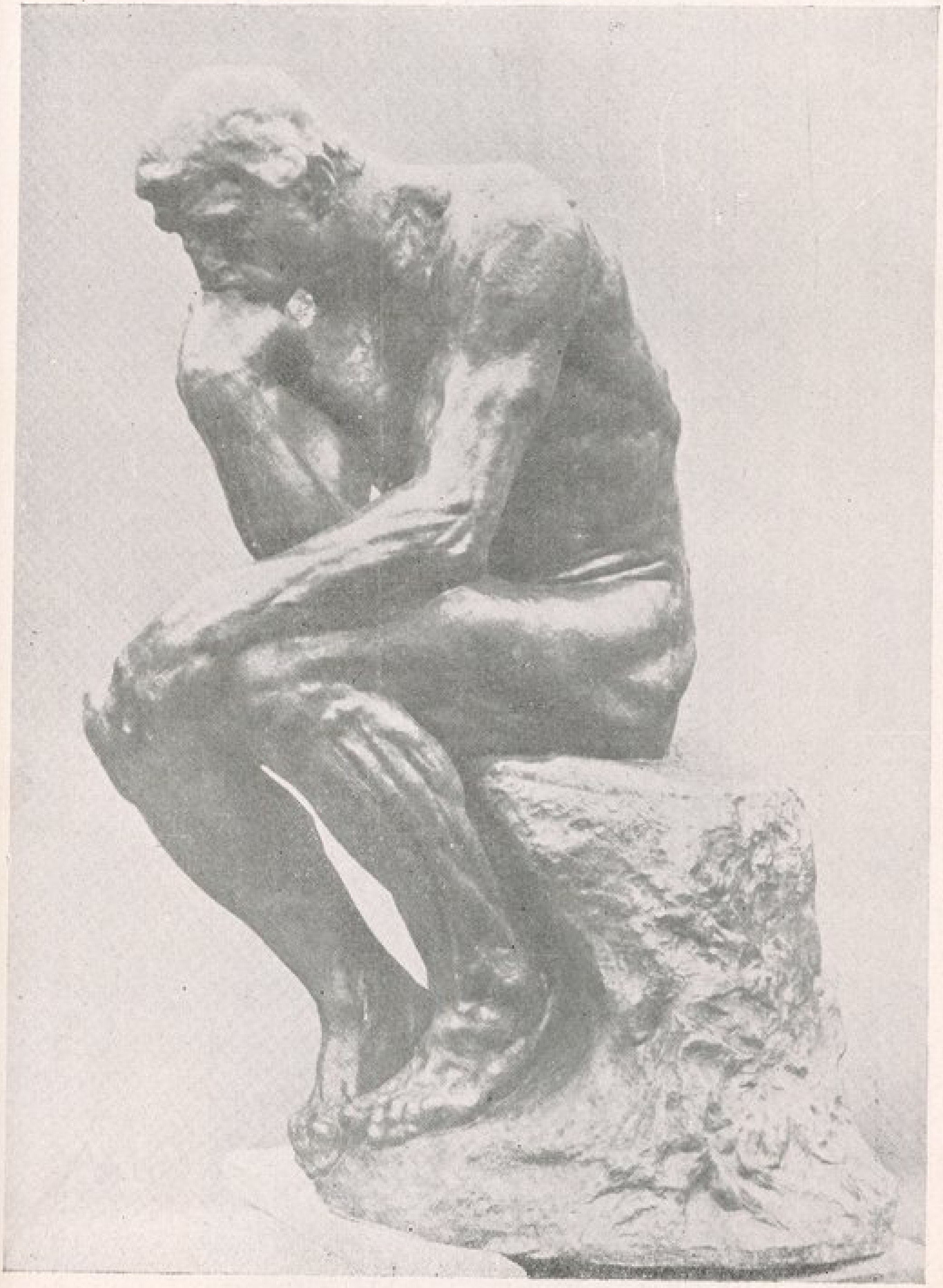
رودان ـ الصنم الخالد (سنة ١٨٨٩)



رودان ـ أحد أعيان كاليه (سنة ١٨٨٦)



رودان ـ حواء بعد الخطيئة



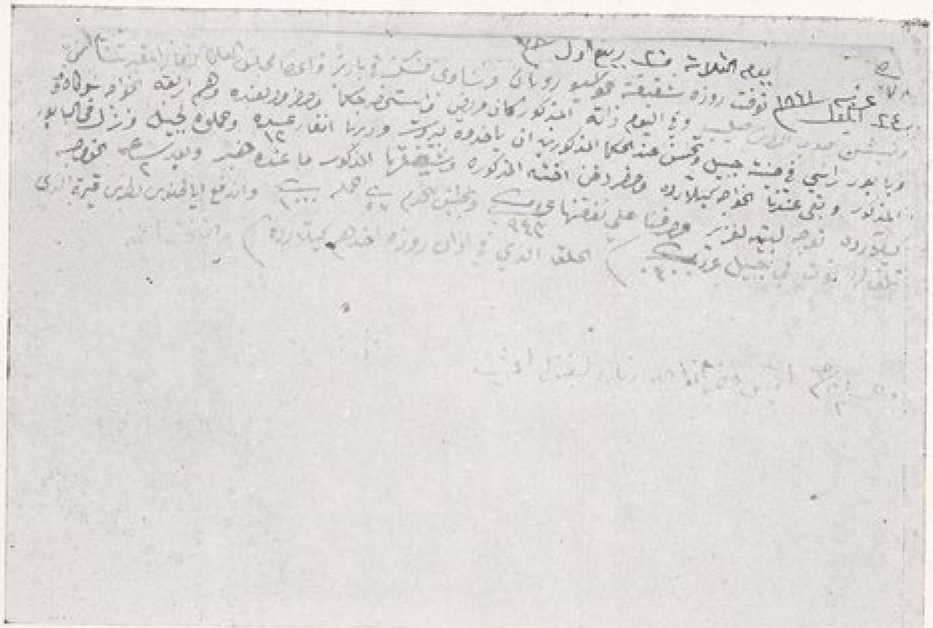
رودان ــ المفكر (سنة ١٨٨٠)



ڤينوس ميلو (متحف اللوڤر فى باريس)



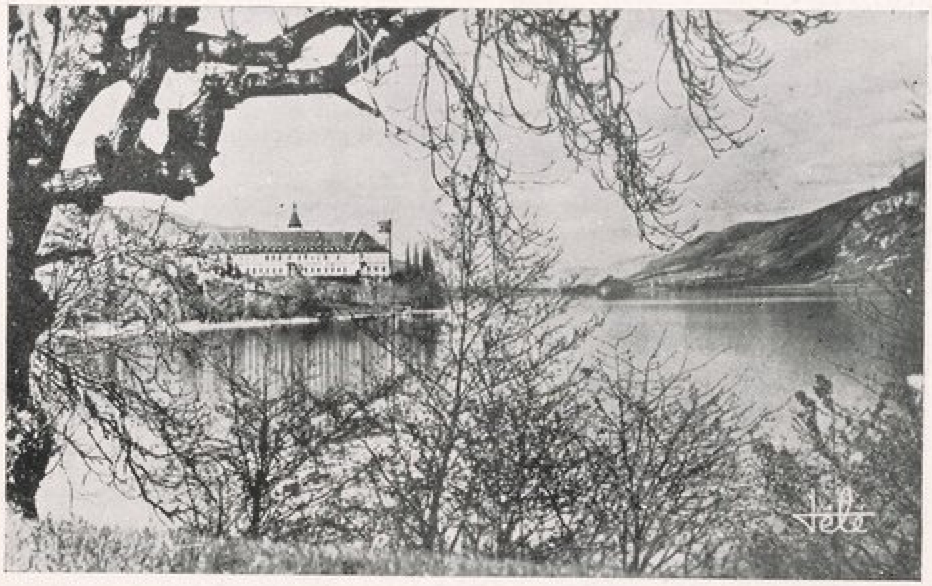
رودان ــ الربيع الدائم (سنة ١٨٨٤)



وثيقة بخط زخيا طوبيا كتبها يوم دفن هنريت رينان ،
يذكر فيها موتها وتكاليف دفنها



قبر شاتوبريان على الصخرة أمام سان مالو



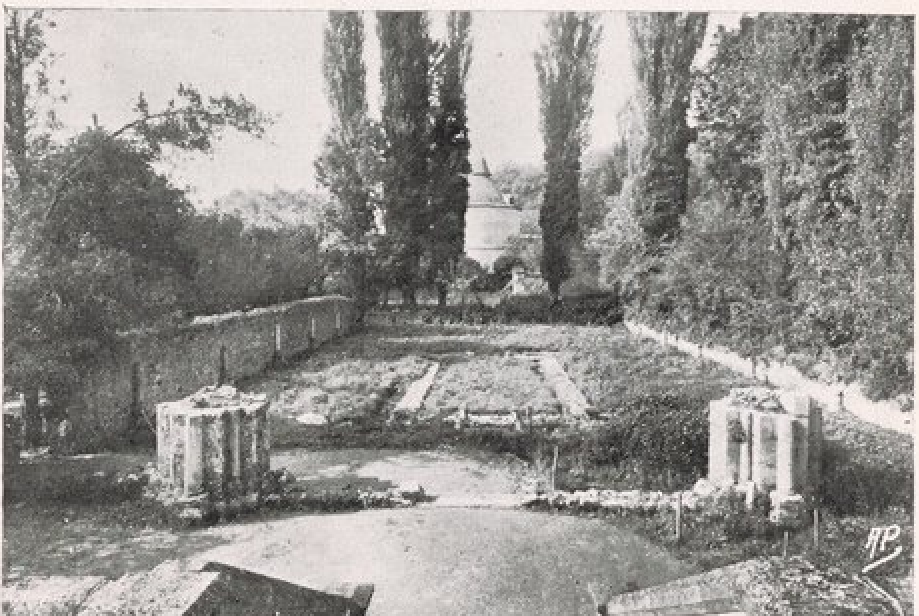
دير هوتكونب ، مغنى غرام جوليا ولامرتين



بحيرة البورجية واكس لى بان ومونت ريفارد ونيفوليه



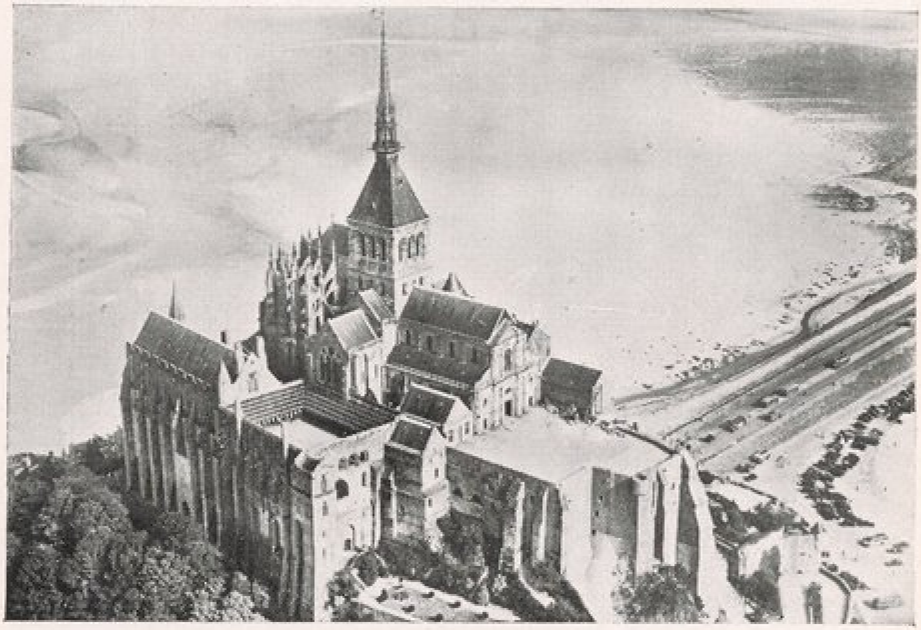
دير بور رويال كما كان قبل تدميره



دير بور رويال كما أصبح اليوم !



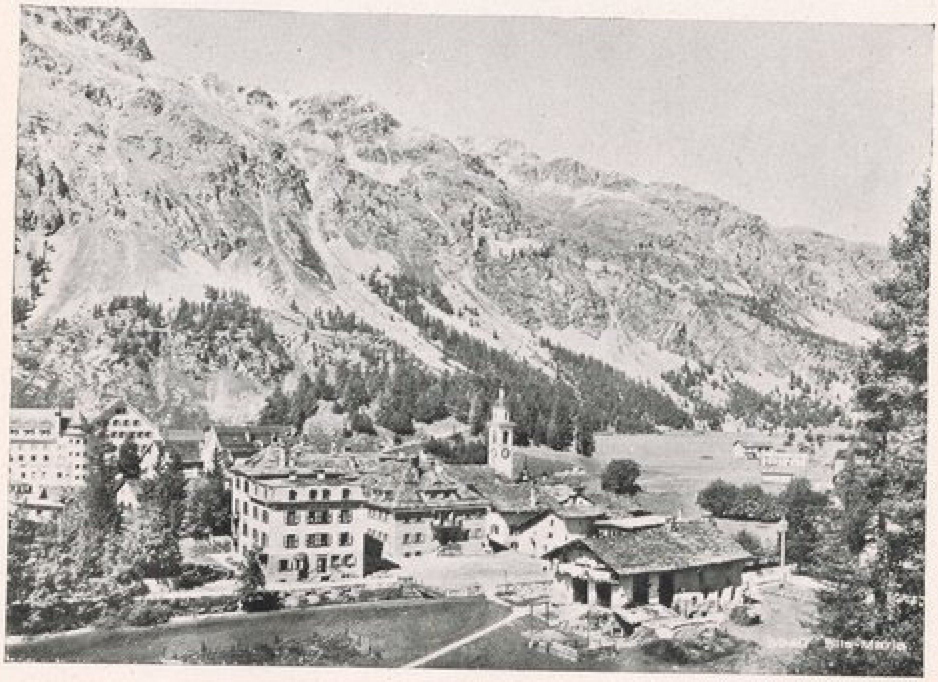
قبر جبران خليل جبران قرب دير مار سركيس في بشري



دير القديس ميخائيل فى بريتانى



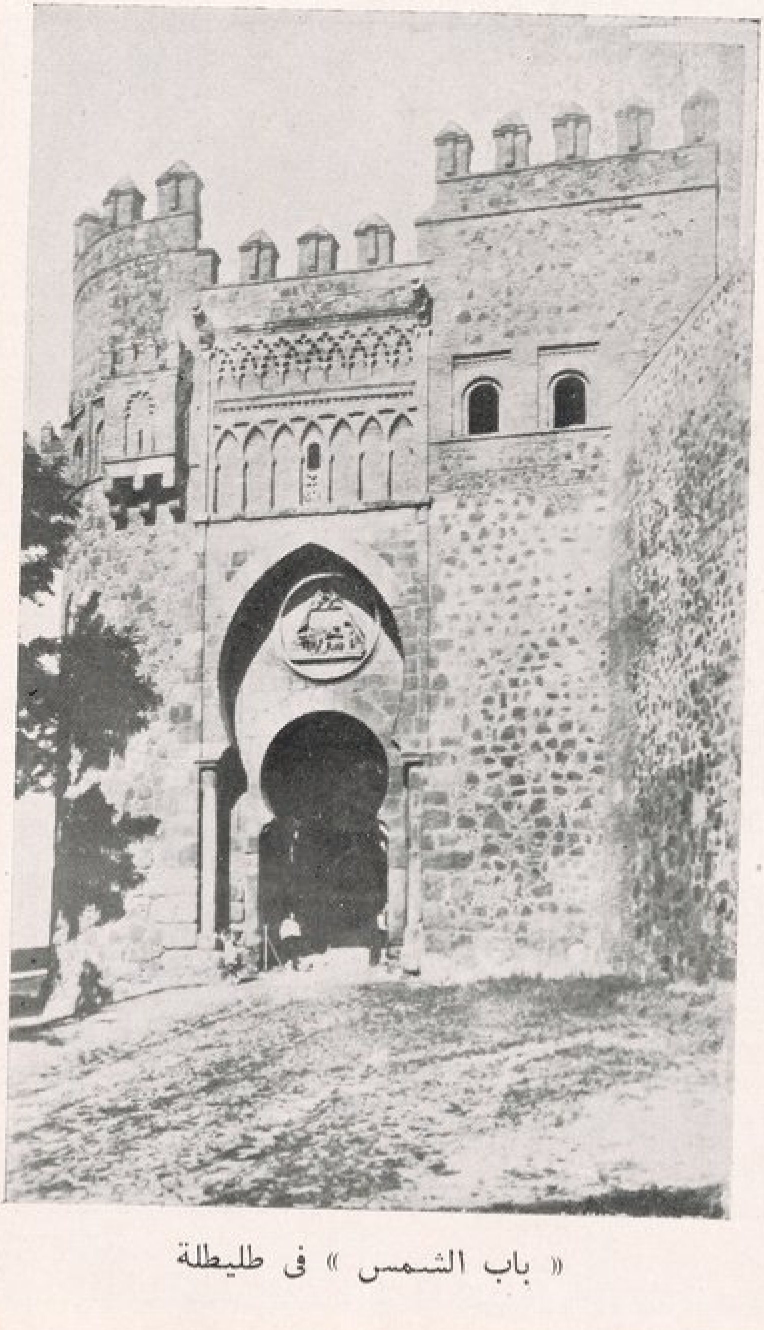
متحف فجنر فى تربشن قرب لوتسرن



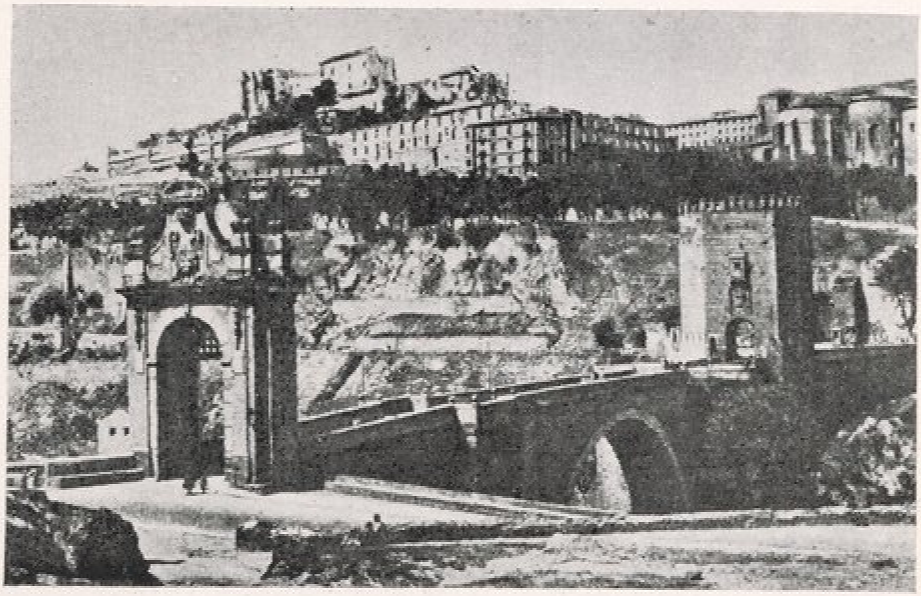
سلز ماريا والبيت الذى سكنه نيتشه



راقصة نورية فى غرناطة



« باب الشمس » فى طليطلة



« القنطرة » و « القصر » فى طليطلة



بيت الجريكو فى طليطلة



الجريكو ــ دفن الكوندى دى أورجاز
(كنيسة سان توميه فى طليطلة)



الجريكو ـ القديس فرنشسكو يتلقى الجروح الخمسة
(متحف سان بيثنته ـ طليطلة)



الجريكو ـ القديس يوحنا الانجيلي والقديس فرنشسكو الأسيزى
(متحف البرادو ـ مدريد)

مطبعة مصر
شركة مساهمة مصرية
بالقاهرة